حافة الهاوية
وثيقة وطن

الرواية التاريخية
لمباحثات حافظ الأسد وهنري كيسنجر

بثينة شعبان



حافة الهاوية

وثيقة وطن

الرواية التاريخية
لمباحثات حافظ الاسد وهنري كيسنجر

حافة الهاوية

وثيقة وطن

الرواية التاريخية

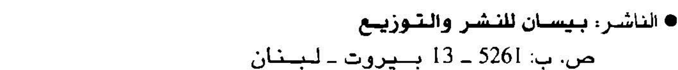
لمباحثات حافظ الأسد وهنري كيسنجر

بثينة شعبان



● اســم الكتاب: **حافة الهاوية «وثيقة وطن»** الرواية التاريخية لمباحثات حافظ الأسد وهنري كيسنجر
● المــــؤلــف: **بـثـيـنـة شـعـبان**
● **الطبعـة الأولـى: كانون الثانـي (يـنـايـر) 2017م.**

ISBN: 978 - 614 - 8014 - 95 - 6

● الناشر: **بيسان للنشر والتوزيع**

ص. ب: 5261 ـ 13 بـيـروت ـ لـبـنـان
تلفاكس: 351291 ـ 1 ـ 961
E-mail: info@bissan-bookshop.com
Website: www.bissan-bookshop.com
Facebook: مكتبة بيسان للنشر والتوزيع



المحتوى

شكر وتقدير

لم يكن لهذا الكتاب أن يكتمل من دون قائمة طويلة من الأشخاص الذين أسهموا في ذلك. أبدأ بتقديم الشكر أولاً إلى السيد الرئيس بشار الأسد الذي أبدى اهتماماً كبيراً بهذا المشروع، ومنحني فرصة استخدام أرشيف القصر الجمهوري والاطلاع على الوثائق ومحاضر الاجتماعات والرسائل التي تُتاح أول مرة .

أودّ أيضاً أن أتوجه بالشكر إلى السيد سعيد أحمد، رئيس دائرة الأرشيف في القصر الجمهوري على صبره، وإرشاده وكرمه في تقديم المساعدة على مراجعة عدد لا يحصى من محاضر الاجتماعات، والبرقيات الدبلوماسية، ومخطوطات الرسائل الشفهية، والوثائق المكتوبة بخطّ اليد. كما أشكر الدكتور إسكندر لوقا الذي أسهم إسهاماً كبيراً في توفير المصادر الأصلية لهذا الكتاب .

والشكر موصول أيضاً للمؤرخ السوري الدكتور سامي مبيض الذي أجريت معه سلسلة من النقاشات المثمرة حول الحاجة إلى مثل هذا المشروع .

ولا بدّ لي من أن أزجي خالص الشكر إلى مساعدي السيد فادي الإسبر الذي عمل بحماسة وحبّ على هذا المشروع منذ اللحظة الأولى لانطلاقه وأنجز عمليات البحث والتدقيق المتعلّقة به بدقّة وعناية فائقتين.

كما أشكر زميلي وصديقي المرحوم الدكتور منير صلاحي الأصبحي على مساهمته القيّمة في الترجمة، وحماسته النبيلة كي يرى هذا العمل النور فكان الزميل والصديق بامتياز. ستبقى مساهماته نبراساً لنا على الدوام.

وأشكر أيضاً السيدة رغد المحروس، والسيد قاسم الشاغوري، على الجهود التي بذلها كلاهما بكلّ محبّة واقتدار في مراحل مختلفة من إنجاز هذا العمل.

إنّ الجهد الذي قامت به الأستاذة نبيلة هاشم، من قراءةٍ وتصحيحٍ لغوي للكتاب، وتزيينه بعباراتها السلسة الجميلة، هو الذي أضفى على النصّ هذه الحلّة التي ظهر بها، فلها عميق الشكر.

وأخصّ بالشكر صديقي وشريك حياتي، زوجي، الدكتور خليل جواد، الذي وقف إلى جانبي وقدّم لي النصح، وشاركني الأفكار، وشجّعني بثبات على مواصلة المشروع. ولا شكّ في أنّ أفراد أسرتي: ابنتيَ ناهد ونازك، وابني رضا، هم دائماً الحافز الذي يغمر قلبي سعادةً ويمدّني بالطاقة والحبّ والأمل.

أخيراً وليس آخراً، أشكر للسيد عيسى أحوش، وللعاملين في دار بيسان للنشر جميعهم، جهودهم المبذولة في طباعة هذا العمل.

المقدمة

بعد نشر كتابي «عشرة أعوام مع حافظ الأسد» عام 2015، وبعد أن نفدت ست طبعات منه في أقلّ من عام واحد، متجاوزاً في ذلك كلّ الأرقام القياسية السابقة لمبيعات كتب مركز دراسات الوحدة العربية، أحد أهم دور النشر في لبنان والعالم العربي، أدركتُ حينذاك كم يتوق القرّاء عموماً، والقارئ العربي خصوصاً، إلى معرفة الأحداث المهمّة التي صنعت تاريخ منطقتنا. لذلك قرّرت البحث في موضوعات أخرى في التاريخ العربي والسوري المعاصر معتمدةً على التعمق في المصادر الأساسية للمعلومات، كمحاضر الاجتماعات والبرقيات الدبلوماسية، بغية إعطاء القرّاء روايات تاريخية دقيقة ومبنية على الحقائق تساعد على الوصول إلى تفهم صحيح للأحداث والقادة والشخصيات التاريخية. إنّ القراء العرب، من مختلف الأجيال، ضائعون بين روايات تاريخية كتبها أولئك الذين يحاولون تبييض صفحات بعض الزعماء وإعفاءهم من مسؤولياتهم التاريخية وتحويلهم إلى أبطال، وتشويه صورة آخرين. إن المهمة ليست بالأمر السهل، ولكن من الواجب أداؤها. وقد اتخذت قراراً لا رجعة عنه بأن أخصص ما يحتاجه الأمر من سنوات حياتي لملء هذا الفراغ في توثيق التاريخ العربي وتاريخ العالم بوجه عام.

وجدت من خلال أبحاثي أن الصعوبات التي واجهناها أثناء عملية السلام في التسعينيات، وبخاصة ما يتعلق باتفاقية أوسلو عام 1993 بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل، واتفاقية وادي عربة عام 1994 بين الأردن وإسرائيل، وتداعيات هاتين الاتفاقيتين الخطيرة على القضية العربية بمجملها، ما هي إلا نتاج طبيعي لفصل مسارات السلام، والذي بدأ باتفاق فصل القوات بين مصر وإسرائيل في أعقاب حرب تشرين عام 1973، وتثبتت ركائزه في اتفاق «سيناء2» عام 1975، قبل أن تقوم مصر بالتوقيع على اتفاقية السلام مع إسرائيل عام 1979. لذلك فإن البحث عن الأسباب الجذرية لما حصل في منطقتنا، في التسعينيات وما بعدها عن طريق البحث في الأحداث الهامة التي حصلت في السبعينيات، أمر بالغ الأهمية. وهذا هو ما يحاول كتاب «حافة الهاوية» تقديمه للقرّاء، فالكتاب يتناول بتعمُّق العلاقة بين الرئيس السوري حافظ الأسد (1971 ـ 2000)، ووزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر (1973 ـ 1976)، والدور الذي أدّتْه العلاقة بينهما في عملية السلام العربية الإسرائيلية، والحراك السياسي في الشرق الأوسط بين عامي 1973 و 1976. إن تفَحُّص هذه المجابهة بين باني الدولة السورية الحديثة وأحد أكثر وزراء خارجية أمريكا تأثيراً في القرن العشرين، يُكسب قارئ هذا الكتاب منظوراً غير مسبوق يقرأ به التاريخ العربي والدولي، كما يقوم بإعادة تقييمه بناء على المعلومات والتحليلات الواردة.

إن عمل كيسنجر الدبلوماسي هو أحد أكثر الموضوعات مناقشةً سواء في الجامعات أو في المؤسسات السياسية في أرجاء العالم. وهناك الكثير من الأبحاث التاريخية الموثّقة حول مفاوضاته في فيتنام والصين والاتحاد السوفييتي والشرق الأوسط. إلا أن هذا الكتاب لا يتناول كيسنجر وسياسته فحسب، بل يبحث في سياسة حافظ الأسد وفكره وتراثه أيضاً. إن هذا الكتاب هو إضافة هامة إلى الأعمال التاريخية حول سورية، عن طريق متابعته العمل الذي تم في «عشرة أعوام مع حافظ الأسد» وفي أثناء دراسة السياسة الخارجية السورية في

عهد حافظ الأسد اعتماداً على كثير من المصادر الأرشيفية المباشرة، وليس المصادر الثانوية أو المنقولة. إن كتاب «حافة الهاوية» يُقدم الرواية الدقيقة الموثّقة للصراع العربي الإسرائيلي وعملية السلام بين عامي 1973 و1976؛ الأمر الذي لم يسبق لأحد أن قدّمه حتى الآن. وإضافة إلى ذلك، تناول الكتاب أحد أكثر الموضوعات إثارة للجدل في التاريخ السوري والعربي الحديث، ألا وهو التدخل السوري في الحرب الأهلية اللبنانية بين عامي 1975 و1976، والدور السياسي الأمريكي في تلك الأزمة.

***

على الرغم من أن مفاوضات فصل القوات بين الأسد وكيسنجر، التي أعقبت حرب تشرين عام 1973، كانت مضنية واستغرقت أسابيع عديدة، فالتحدي الحقيقي الذي واجهه الرئيس السوري حينذاك ظهر في تصرفات من اعتقد أنه رفيقه في السلاح، الرئيس المصري أنور السادات، الذي ناور وخدع السوريين خلال الحرب. فقد شرح الرئيس الأسد لي شخصياً كيف توقف السادات في اليوم الثاني من الحرب عن الردّ على المكالمات الواردة من دمشق، وفي الوقت ذاته توقف الجيش المصري عن التقدم وقام بتثبيت مواقعه مدة أسبوع؛ مما سمح للإسرائيليين بتركيز قواتهم كلّها على الجبهة السورية. شعر الأسد أن هناك أمراً مشبوهاً حيال تصرفات السادات وأفعاله، غير أنه أراد الحفاظ عليه حليفاً، وأراد أن تبقى مصر وسورية موحدتين سواء في الحرب أو في المفاوضات التي تمت عن طريق الأمريكيين مع إسرائيل. ذكّر الأسد السادات بوحدة المصالح السورية المصرية، وحثّه في الاجتماعات المطولة والرسائل والمكالمات الهاتفية العديدة على ألاّ يعقد اتفاقيات ثنائية مع إسرائيل بوساطة كيسنجر ومن دون التشاور مع دمشق أولاً. وأكّد السادات بدوره للأسد أن لا شيء يحصل خلف ظهر سورية، لكن الاتفاقيات التي عقدها مع كيسنجر أثبتت العكس لاحقاً.

آمن الأسد إيماناً عميقاً أن الطريقة الوحيدة للحصول على «اتفاق جيّد» هي أن يتوحد العرب، وبخاصة سورية ومصر، في جبهة تفاوضية واحدة. وقد أمضى الأسد سنوات في محاولة إقناع القادة العرب أن يعملوا معاً بصدق؛ كما أمضى ساعات طويلة مع المفاوضين الأمريكيين يُبدي رفضه لفصل المسارات التفاوضية. ولكنَّ القادة العرب لم يسمعوا نصائح الأسد، ولم يكفّ الأمريكيون عن محاولاتهم لعقد صفقات سلام منفصلة بين إسرائيل وكل دولة عربية على حِدة عند كل منعطف من الصراع الذي استمرّ عقوداً. لقد شكلت «سيناء2» الإسفين الأول في الصف العربي وأضاعت تضحيات الجنود السوريين والمصريين، وأعطت إسرائيل اليد العليا على المستوى الاستراتيجي في المنطقة، دون أن تحصل مصر على أي شيء في المقابل.

إن إيمان حافظ الأسد بضرورة وحدة العرب لم يتزعزع يوماً؛ فقد رأى فيها السبيل الوحيد لتحقيق الانتصار في هذا الصراع الطويل، سواء عن طريق الحرب أو الدبلوماسية. ولا زلت أذكر ما قاله لي الرئيس الأسد عند انهيار محادثات شيبردزتاون بين سورية وإسرائيل مطلع عام 2000: «لقد حاولت جاهداً أن أوحِّد الصفّ العربي ولكن جهودي ذهبت هباءً. فكيف لنا أن نحقق أي شيء في منطقتنا وعلى الصعيد العالمي مادامت الثقة معدومة في ما بيننا، ومادمنا نرفض العمل بعضنا مع بعض بصدق؟»

وبعد مضي ستة عشر عاماً لا يزال هذا السؤال مطروحاً.

***

يتناول الفصل الأول من كتاب «حافة الهاوية» حرب تشرين عام 1973 وعواقبها المباشرة، ويستعرض الفصل الثاني النشاط الدبلوماسي المحموم الذي حصل بعد الحرب مباشرة، ولاسيّما التحضيرات المكثفة لمؤتمر جنيف

للسلام، وعودة التواصل السوري الأمريكي بعد قطيعة استمرت أكثر من ست سنوات. وينظر الفصل الثالث في العلاقات السورية ـ المصرية بعد عام 1970، ويبحث كيف فصل السادات بين الجبهتين السورية والمصرية، وكيف اختار طريق المباحثات الثنائية مع إسرائيل؛ كما يتضمن هذا الفصل بحثاً في الحظر النفطي العربي الذي فرضه العرب على الدول الصناعية في الغرب خلال حرب تشرين وبعدها، والطريقة التي انتهى بها هذا الحظر، والذي يُعدُّ من أكثر القضايا جدلاً في التاريخ المعاصر. أما الفصل الرابع فيتضمن مقاربة متميزة لجولة كيسنجر المكوكية الأولى له بين دمشق وتل أبيب ونتائجها مطلع عام 1974.

تتناول الفصول الثلاثة التالية، أي الخامس والسادس والسابع من هذا الكتاب، المفاوضات الطويلة المضنية التي أدت إلى توقيع اتفاق فصل القوات بين سورية وإسرائيل في شهر أيار من عام 1974. وتقدّم هذه الفصول تفاصيل دقيقة وغير مسبوقة عن اللقاءات الأربعة عشر التي حصلت بين حافظ الأسد وهنري كيسنجر في ذلك الشهر الحاسم؛ إذ تُعدُّ هذه المحادثات من أطول جولات المفاوضات المكوكية في التاريخ الحديث.

ويستعرض الكتاب في الفصل الثامن، وفي بحوث تنشر أول مرة، ما جرى في اللقاء بين الرئيس حافظ الأسد والرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون، الذي كان أول رئيس أمريكي يزور العاصمة السورية.

يتتبّع الفصل التاسع تدهور العلاقة بين الأسد وكيسنجر، مع مواصلة الأخير جهوده لعقد اتفاق ثنائي بين مصر وإسرائيل، والتي تُوِّجت باتفاق (سيناء2).

يبحث كتاب «حافة الهاوية» في الفصل العاشر في أول سنتين من الحرب الأهلية اللبنانية، إذ يقدم رواية سورية لتلك الحقبة المصيرية، وخصوصاً حول ما يسمى اتفاق الخطوط الحمر، الذي يَعدّ المؤرخون الغربيون والإسرائيليون

حصوله أمراً لا لَبْس فيه. ينظر هذا الفصل إلى الدور المثير للجدل الذي قامت به ديناميكية الأسد ـ كيسنجر وتأثيرها في مجرى الأحداث. كما يقدم الكتاب أدلة جديدة موّثقة من الأرشيف الرئاسي السوري تنشر أول مرّة في هذا الكتاب منذ تأسيس الأرشيف قبل خمسة عقود، وتنفي كثيراً من الادعاءات المتداولة حول الدور الذي أدّتْه سورية في لبنان.

واعتماداً على وثائق أرشيف رئاسة الجمهورية العربية السورية غير المنشورة حتى الآن، يتعمق هذا الكتاب في تفحّص العلاقة بين الأسد وكيسنجر اعتماداً على قراءة محاضر الاجتماعات التي دارت بينهما، والرسائل التي تبادلاها، سواء بوساطة السفير الأمريكي في دمشق أو بطريق البرقيات الدبلوماسية. كما تمّت الاستفادة من وثائق هامة أخرى، وبوجه خاص محاضر اجتماعات الرئيس الأسد مع القادة اللبنانيين خلال المراحل الأولى من الحرب الأهلية اللبنانية. كما اعتُمد أيضاً على وثائق الخارجية الأمريكية عن تلك الحقبة، التي نُشرت في مجلّدات «العلاقات الخارجية للولايات المتحدة»، وفيها تمّ البحث بدقّة لمعاينة كيف قام الأمريكيون بتوثيق ما دار بين الأسد وكيسنجر، ومقارنة ذلك بالوثائق السورية. وحصل إغناء البحث بالاستعانة بمواد توثيقية من التلفزيون العربي السوري، ووكالة الأنباء العربية السورية (سانا)، ووزارة الدفاع السورية.

إن كتاب «حافة الهاوية»، بتقديمه ـ أول مرة ـ رواية دقيقة موثقة عن أحداث الحقبة التاريخية التي أعقبت حرب تشرين التحريرية عام 1973، يردم فجوة هامة في كتابة تاريخ الشرق الأوسط. لقد اعتمد تأليف الكتاب على وثائق وسجلات كان كثير من المؤرخين والمواطنين العاديين يعدّون الحصول عليها مستحيلاً، أو أنها غير موجودة إطلاقاً. ولذا فهو مرجع هام يوضع في يد المؤرخين والباحثين وكل المهتمين بالتاريخ السوري، وتاريخ الصراع العربي–

الإسرائيلي، وصناعة السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، فضلاً عن العلاقات العربية ـ العربية، وبخاصة العلاقات المصرية ـ السورية، وعلاقة سورية المضطربة بمنظمة التحرير الفلسطينية، وتاريخ الحرب الأهلية اللبنانية، مع الأمل الأكيد أن تُساهم هذه الوثيقة في إعادة النظر بما كُتب عن هذه الحقبة التاريخية في المناهج المدرسية التي يدرسها أبناء الضاد في سائر أقطارهم.

***

الفصل الأول

الحرب في تشرين الأول

في السادس من تشرين الأول 1973، اليوم العاشر من شهر رمضان المبارك ويوم عيد الغفران، أقدس يوم في السنة اليهودية، شنت سورية ومصر هجوماً مفاجئاً كبيراً على إسرائيل. وعقب ست سنوات تلت حرب الأيام الستة في عام 1967، سنوات احتلت خلالها إسرائيل مرتفعات الجولان وشبه جزيرة سيناء المصرية، أزفت أخيراً ساعة التحرير التي طال انتظارها. وقد خاطب رئيس الجمهورية العربية السورية والقائد العام لقواتها المسلحة الفريق حافظ الأسد، وهو باللباس العسكري، السوريين والعرب والعالم بأجمعه في خطاب قصير على التلفزيون:

أيها المواطنون، يا جنودنا وصف ضباطنا وضباطنا البواسل، يا أبناء شعبنا الأبيّ، مع تحيتي لكل فرد منكم، أخاطب فيكم الروح العربية الأصيلة، روح الشجاعة والبطولة، روح البذل والتضحية، روح الفداء والعطاء. أخاطب فيكم محبة الوطن التي فُطرتم عليها والإيمان بالقضية التي صممتم على الدفاع عنها.

منذ أسبوع ونيف والعدو يحشد ويعد، وفي ظنه أنه سينال منا بضربة غادرة. وكنا يقظين ساهرين نرصد حركاته وسكناته،

ونستعد ونتأهب لرد عدوانه الجديد المحتمل. فلم نسمح له أن يأخذنا على حين غرّة، واندفعت قواتنا المسلحة ترد عليه الرد المناسب. ولم يسمح له إخوتنا في مصر أن يفاجئهم، فاندفع جيش مصر العظيم يدافع عن كرامة مصر وكرامة الأمة العربية. فتحية لجيشنا وشعبنا، وتحية لجيش مصر وشعب مصر العربي العظيم. ولا بد لي في هذه اللحظات الحاسمة من أن أوجه تحية من القلب إلى هؤلاء العسكريين البواسل الذين جاؤوا إلى قطرنا من المغرب الشقيق ليشاركوا في معركة العزة والكرامة، وليقدموا الدم سخياً إلى جانب إخوتهم في سورية ومصر، فجسّدوا بذلك وحدة الأمة ووحدة المصير وقدسية الهدف. . . .

لسنا هواة قتل وتدمير، إنما نحن ندفع عن أنفسنا القتل والتدمير. لسنا معتدين ولم نكن قطّ معتدين، لكننا ندفع عن أنفسنا العدوان. نحن لا نريد الموت لأحد، إنما ندفع الموت عن شعبنا. إننا نعشق الحرية ونريدها لنا ولغيرنا، ونداقع اليوم كي ينعم شعبنا بحريته. نحن دعاة سلام، ونعمل من أجل السلام لشعبنا ولكل شعوب العالم، وندافع اليوم من أجل أن نعيش بسلام.

في الساعة الرابعة عشرة، بدأت المدفعية السورية قصف المواقع الإسرائيلية على خط الجبهة. كانت مئات المدافع تفتح نيرانها على نحو متوال، وأطلقت آلاف القذائف. ودمرت النيران خط الدفاع الإسرائيلي الذي لم يكن قابلاً للاختراق من قبل مع خنادقه وتحصيناته. وسرعان ما أرسل سلاح الجو السوري طائراته النفاثة المئة والخمسين لتقصف المواقع الإسرائيلية في عمق هضبة الجولان. هرعت الطائرات المقاتلة الإسرائيلية للدفاع عن جنود العدو على الأرض، لكن كانت السماء فوق أرض المعركة قد أعدت مفاجأة أخرى. إذ أقدمت فرق الدفاع الجوي السورية ـ المجهزة بالصواريخ المضادة للطائرات

التي كانت آخر ما توصلت إليه الصناعة الروسية الممتازة والتي تسلّمتها القوات السورية قبل مدة وجيزة ـ على إسقاط الطائرات الإسرائيلية الواحدة تلو الأخرى. وقبل مضي ساعة واحدة في المعركة، كانت القوات الخاصة السورية المحمولة بالحوامات قد استولت على مرصد جبل الشيخ، بعد أن قتلت وأسرت عشرات الجنود الإسرائيليين، ورفعت العلم السوري في سماء هضبة الجولان. كان هذا الحصن المنيع الواقع على ارتفاع 2000 متر، والمطل على دمشق ومعالمها، عيني إسرائيل وأذنيها على الجبهة الشمالية. ولم تكن موجة القصف على الجبهة المصرية أقل عنفاً، وذلك مع تحرك قوارب ملأى بالجنود المصريين عبر قناة السويس لينزلوا على الشاطئ الشرقي الذي تحتله إسرائيل. وخلال ساعات تم الاستيلاء على حصون خط بارليف الأسطوري أو محاصرتها، واتخذت القوات المصرية مواقع دفاعية على طول الضفة الشرقية للقناة. كانت إسرائيل في حالة ذهول تام بعد أن أسكرتها الخيلاء ونشوة الانتصار المثير في عام 1967، ولم يكن جيشها النظامي الصغير قادراً على مواجهة الهجوم الضخم. وبعد ساعات من الحرب بدا الوضع كئيباً، وكان آخر أمل لإسرائيل يكمن في قواتها الاحتياطية القوية البالغ عددها ربع مليون جندي. ولكن كان وصول الاحتياطيين إلى الخط الأمامي لا يزال يتطلب يوماً أو يومين، ومع حلول صباح السابع من تشرين الأول، كان العدد القليل من الجنود الإسرائيليين ومن الدبابات على الجبهة الأمامية قد مُني بهزيمة قاتلة.

أهداف مختلفة، خطط مختلفة

في السادس من تشرين الأول 1973، كان حافظ الأسد، وقبل شهر واحد من الاحتفال بعامه الثالث في السلطة، في ذروة مسيرته. كان في الثالثة والأربعين من العمر، وقد تنقل في مراتب الجيش السوري، وتدرب ضابط طيران قبل أن يصبح وزير دفاع دولته عام 1966. وكان الحدث الأكبر في حياته الحرب ضد إسرائيل عام 1967، التي أدت إلى احتلال هضبة الجولان السورية،

بالإضافة إلى شبه جزيرة سيناء المصرية والضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية بأكملها. كان حافظ الأسد فتى ريفياً أتى إلى المدينة بعد بلوغه عامه الثامن عشر، وتعرض لمصاعب كثيرة في حياته، وعاش رجلاً عصامياً. وقد تغلب على أصوله الريفية المتواضعة وانضم إلى حزب البعث العربي في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين، وهو حزب يساري ينادي بوحدة الأراضي العربية، والتحرر من حكم الاستعمار، ومجتمع بلا طبقات يتم توزيع الثروة والدخل فيه على نحو مناسب. وقد أدى انتماؤه الحزبي إلى حكم عليه بالسجن أربعة وأربعين يوماً في القاهرة عام 1961 وتسريح فوري من القوات المسلحة؛ مما أجبره على أن يؤمن دخلاً كافياً بالعمل موظفاً مدنياً في إدارة النقل البحري في وزارة الاقتصاد. وأعاده تولي حزب البعث السلطة في 8 آذار عام 1963 إلى صفوف الجيش، حيث تسلّم قيادة سلاح الجو حتى عام 1966، قبل أن يصبح وزيراً للدفاع. وفي عام 1970 تولى السلطة في دمشق. ولم تُطلَق رصاصة واحدة في ذلك اليوم، الذي أطلقَ الأسدُ على أحداثه اسم «الحركة التصحيحية»، في صفوف حزب البعث الحاكم. اضطلع الأسد برئاسة الوزراء بضعة أشهر وعيَّن رئيس دولة مدنياً حتى آذار 1971، حين رشح نفسه للرئاسة وأصبح رئيس الجمهورية السابع عشر في سورية ـ والأصغر سناً من بين الذين تولوا الرئاسة منذ تكونت الجمهورية عام 1932. وسرعان ما تخلى عن زيه العسكري وبدأ يظهر مرتدياً ملابس مدنية أنيقة ـ باستثناء مدّة الحرب في تشرين الأول، التي لم يظهر خلالها علناً إلا بزيه العسكري الكامل بصفته قائد الجيش العربي السوري.

قبل أسبوعين من حرب تشرين، عُيّن هنري كيسنجر، مستشار الأمن القومي للرئيس ريتشارد نيكسون، وزيراً للخارجية الأمريكية. وهو الشخص الوحيد في التاريخ الأمريكي الذي شغل كلتا الوظيفتين في الوقت نفسه. وكان كيسنجر قد مارس سلطة شبه كاملة على السياسة الخارجية للولايات المتحدة قبل أن يصبح رئيس الدبلوماسية فيها. لكن تأثيره في سياسة الشرق الأوسط لم يكن مباشراً بقدر نفوذه في حالتي الصين وفيتنام.[1] وكان قد أوصى بعدم الخضوع

لضغوط الدول العربية والاتحاد السوفييتي، على عكس وزير الخارجية آنذاك وليام روجرز، الذي كان يسعى إلى نزع فتيل ذلك الضغط باقتراح حلول وسط، استلزمت قيام إسرائيل بتنازلات كبيرة، أي الانسحاب من الأراضي العربية التي احتلتها عام 1967. وكان نيكسون يميل إلى وزير خارجيته، وحاول روجرز إطلاق مبادرة سلام في الشرق الأوسط ـ دون تحقيق أية فائدة. وكما ستكشف فصول هذا الكتاب، أتاحت حرب تشرين الأول لكيسنجر تولي قيادة السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط بطريقة خدمت إلى حد كبير وضع إسرائيل الاستراتيجي. وهناك مسألة أخرى حاسمة يجب الإشارة إليها في مستهل هذا الكتاب، وهي التأثير الكبير للوبي اليهودي في واشنطن، في اتخاذ القرار في ظل إدارتي نيكسون وفورد كلتيهما، وخاصة في المحطات الانتخابية. لكن هذا التأثير لم يكن خلال ولاية نيكسون الأولى قبل فضيحة ووترغيت بالقوة نفسها التي أصبح عليها بعد حرب تشرين. وبحسب قول كيسنجر، «كان نيكسون على اقتناع بأنه غير مدين بشيء للأصوات اليهودية وأنه لن يستطيع زيادة الدعم اليهودي له مهما يفعل. وما كان يريده في أعماقه هو فرض تسوية شاملة خلال ولايته الرئاسية. وتشهد الكثير من تعليقاته اللفظية والمكتوبة على هذا الموقف النابع من الصميم.»[2] وكان هنري كيسنجر، الذي فقد ثلاثة عشر فرداً من عائلته في معسكرات الاعتقال النازية، على الطرف الآخر من الطيف العاطفي. «ولم يكن يتحمل تشجيع محرقة أخرى عن طريق اتباع سياسات حسنة النية تخرج عن السيطرة.»[3] وحين تولى السلطة عام 1969، كانت إسرائيل تتلقى مساعدة عسكرية من الولايات المتحدة بمقدار 30 مليون دولار في السنة. وفي عام 1971 ارتفع المبلغ إلى 545 مليون دولار، وأثناء حرب تشرين الأول، طلب كيسنجر 3 مليارات دولار لمساعدة إسرائيل، ثم خفَّض المبلغ فيما بعد إلى 2,2 مليار دولار.[4]

كان الشخصية الرئيسية الثالثة في دراما حرب تشرين الأول ورفيق الأسد في السلاح القائد المصري أنور السادات. وعلى خلاف الأسد، حين تولى

السادات منصبه بعد وفاة جمال عبد الناصر، لم يكن تحرير الأرض المحتلة عن طريق الحرب هو هدفه الوحيد. لقد حاول في بداية الأمر أن يستعيد شبه جزيرة سيناء عن طريق المفاوضات مع إسرائيل وبوساطة الولايات المتحدة. وفي شباط من عام 1971 أوفد مستشاره للأمن القومي، حافظ اسماعيل، للاجتماع سراً بكيسنجر. كان السادات مستعداً، في حال قبول إسرائيل بالانسحاب من الأراضي المصرية، للبحث في ضمانات أمنية ووضع نهاية لحالة العداء، لكن السلام النهائي بين مصر وإسرائيل سيتطلب حلاً يقبله الفلسطينيون. وبالطبع لم يُذكَر أي شيء عن سورية.[5] وقوبل العرض بالرفض من كل من كيسنجر ورئيسة وزراء إسرائيل غولدا مائير. لكن السادات ثابر على خطته، وكدليل على «حسن النية» طرد المستشارين والموظفين الروس من مصر في صيف عام 1972. ومرة أخرى لم تستجب إسرائيل والولايات المتحدة. ولهذا كان الرئيس المصري بحاجة إلى إحداث حركة في المنطقة لإرغام الأمريكيين والإسرائيليين على اتباع المسار الدبلوماسي نحو السلام. لذا أخبر قادته العسكريين أنه يريد شن «حرب محدودة،» وأنه إذا تمكن من استعادة عشرة مليمترات فقط على الضفة الشرقية لقناة السويس فهذا سيعزّز على الفور موقفه التفاوضي.[6]

لكن ما قيل لحافظ الأسد كان أمراً مختلفاً. فقد اتفق الرئيس السوري مع السادات على حرب تحرير شاملة منذ عام 1971، حرب تنتقم لهزيمة 1967 وتستعيد الأراضي العربية المحتلة جميعها. ولم يشارك الأسد قط في المكائد الدبلوماسية التي كانت تدبَّر قبل عام 1973، ولم تكن لديه معرفة بالعروض السرية التي قدمها السادات لمائير بواسطة كيسنجر. كان يريد حرب تحرير، وأعد جيشه للمهمة، على حين كان السادات يريد إلقاء حجارة في بركة الدبلوماسية الإقليمية والعالمية الراكدة. وكان المخططون العسكريون المصريون من جهتهم يدركون نيّات قائدهم، وأخفوا الحقيقة عن رفاقهم السوريين. وفي صيف عام 1971، وضع الجيش المصري خطتي حرب، تنطوي إحداهما على توغل القوات إلى ممري متلا والجدي في عمق سيناء؛ أما في الخطة الثانية فلن

تصل إلى أبعد من الضفة الشرقية لقناة السويس. وأُطلق على الخطة الأولى الاسم الرمزي **غرانيت 2** ووُضعت بالتعاون مع مستشارين روس. وسُمّيت الخطة الثانية **المآذن العالية** وكانت سراً لا يعرفه سوى القلة القليلة من القيادة العسكرية المصرية العليا.(7) وفي نيسان 1973، أمر أحمد إسماعيل وزير الدفاع المصري رئيس أركانه سعد الدين الشاذلي بدمج **المآذن العالية** و**غرانيت 2** في خطة **بدر**، التي ستصبح الخطة الرسمية المصرية للحرب ذات المرحلتين، وفسر ذلك بأنه إذا عرف السوريون أن القوات المصرية لا تنوي احتلال أكثر من 10 ـ 15 كم شرقي القناة فلن يشتركوا مع مصر في الحرب. وكما كتب الشاذلي في مذكراته:(8)

> لقد كنت أشعر بالاشمئزاز من هذا الأسلوب الذي يتعامل به السياسيون المصريون مع إخواننا السوريين، ولكني لم أكن لأستطيع أن أبوح بذلك للسوريين. وقد ترددت كثيراً وأنا أكتب مذكراتي هذه، هل أحكي هذه القصة أم لا، وبعد صراع عنيف بيني وبين نفسي قررت أن أقولها كلمة حق لوجه الله والوطن. إن الشعوب تتعلم من أخطائها، ومن حق الأجيال العربية القادمة أن تعرف الحقائق مهما كانت هذه الحقائق مخجلة.
>
> قمنا بتجهيز الخطة الجديدة التي لم تكن إلا الخطة غرانيت 2 بعد إجراء بعض التعديلات الطفيفة. وبعد أن تم وضع هذه الخطة، دمجت مع الخطة بدر، التي هي «خطة العبور» في خطة واحدة. أصبحنا نطلق على خطة العبور لفظ «المرحلة الأولى» وخطة التطوير لفظ «المرحلة الثانية». . . [مع] «وقفة تعبوية». . . ولم أتوقع قط أن يطلب إلينا تنفيذ هذه المرحلة.

في سلسلة من الاجتماعات خلال عام 1973 عرض السادات على الأسد الخطة **بدر** ونذر على نفسه أن يصل إلى الممرين. وحين التقى القائدان في

دمشق في أواخر شهر آب، اتفقا على تاريخ بداية الحرب، لكن السادات لم يفقد الأمل تماماً في تحقيق إنجاز دبلوماسي. فقد أرسل حافظ إسماعيل مرة أخرى لعقد اجتماع مع كيسنجر في شباط وأيار، وليعرض مرة أخرى السلام مقابل الانسحاب الإسرائيلي. لكن عروضه قوبلت بالرفض الفوري. وفي أيار 1973، حذّر ملك الأردن حسين كيسنجر من الاستعدادات العسكرية السورية والمصرية.[9] وفي 23 حزيران 1973، التقى القائد السوفيتي ليونيد بريجينيف ووزير خارجيته أندريه غروميكو، مع نيكسون وكيسنجر في كاليفورنيا، واقترحا انسحاباً إسرائيلياً إلى ما قبل خطوط 1967 مقابل إنهاء حالة العداء، لكن الأمريكيين رفضوا الاقتراح. وفي الثامنة من صباح 6 تشرين الأول 1973، اجتمع مجلس الوزراء الإسرائيلي لمناقشة حرب وشيكة، بعد استقبال تحذيرات من مصادر عربية، وبخاصة مصادر مصرية وأردنية. لكن وزير الدفاع موشيه دايان رفض تعبئة القوات الاحتياطية، رغم انتشار القوات السورية والمصرية، لأن هذا سيتيح للعرب ادعاء أن إسرائيل تهاجمهم وتفسر ما يلي من أحداث بأنه دفاع عن النفس. وفي الساعة التاسعة، صوَّت مجلس الوزراء ضد موقف دايان وأمر بتعبئة كاملة للقوات الاحتياطية.

ضباب الحرب

انطلق الاسم الحركي «بدر» لتسمعه القوات السورية بأجمعها عبر أجهزة المذياع على طول الجبهة في 6 تشرين الأول 1973. واجتازت ثلاث فرق عسكرية (الخامسة والسابعة والتاسعة) مؤلفة من 40000 جندي وستمئة دبابة، خط وقف إطلاق النار لعام 1967، وتوغلت في عمق مرتفعات الجولان. أصيبت القوات الإسرائيلية بالارتباك من الهجوم السوري، ومع قدوم الليل كانت الدبابات السورية المصنوعة في الاتحاد السوفييتي، والمجهزة بأحدث معدات الرؤية الليلية قد دخلت إلى قلب هضبة الجولان وبلغت أطراف القنيطرة

العاصمة. وانطلقت الفرقتان الخامسة والتاسعة في عمق جنوب الجولان وأصبحت بحيرة طبريا على مرمى النظر. ولكن في نهاية اليوم الأول، بدأت القوات الاحتياطية الإسرائيلية (البالغ عددها ربع مليون جندي) بالوصول إلى خط الحدود. لقد كانت الجبهة الشمالية أولوية وجودية لصناع القرار في تل أبيب؛ إذ إنّ صحراء سيناء كانت فاصلاً بين الجيش المصري وكلّ المراكز السكانية الإسرائيلية، في حين لو وصل السوريون إلى أقصى نهاية مرتفعات الجولان لأصبحت المدن والمستوطنات في الجليل وملايين الإسرائيليين الذين يقطنون هناك تحت رحمة الهجوم السوري الذي لا يلين. لذلك صدر الأمر لغالبية القوات والدبابات الاحتياطية بالتوجّه نحو الشمال. وبحلول يوم السابع من تشرين الأول كان الكابوس قد بدأ يتحول بسرعة إلى حقيقة مع تقدم القوات السورية للسيطرة على بلدة نفخ حيث أقامت القوات الإسرائيلية موقع قيادتها الأمامي. وبعد بضعة كيلومترات من نفخ كانت الجسور فوق نهر الأردن التي تصل بين هضبة الجولان وشمال فلسطين المحتلة. وبهجوم ألف دبابة سورية باتجاه الغرب أصبحت إسرائيل على حافة كارثة. ومع ذلك تمكن الاحتياطي الإسرائيلي من إيقاف السوريين، لكن بتكلفة عالية جداً بالأرواح والمعدات. وفي التاسع من تشرين الأول، بدأ الإسرائيليون هجومهم المضاد، وبحلول اليوم التالي كانوا قد قلبوا المكاسب السورية جميعها.

في واشنطن، استيقظ كيسنجر على خبر الهجوم العربي؛ وهذا ما فاجأه هو أيضاً. إن كلاً من وكالتي الاستخبارات الأمريكية والإسرائيلية، وصانعي السياسة في الدولتين أساؤوا فهم مؤشرات التحذير الواضحة. ولكن ما أخفقوا في فهمه أكثر من أي شيء آخر هو أن العرب سيجرؤون فعلياً على بدء حرب.[10] ومع ذلك، توقع كيسنجر «انتصاراً إسرائيلياً سريعا»[11]، كما كان مدركاً للأهداف المصرية الحقيقية. «لم يشن السادات حرباً لكسب مزيد من الأراضي، بل ليستعيد احترام مصر لذاتها، ومن ثمّ زيادة مرونتها الدبلوماسية.

وخاضت سورية الحرب لتحقيق أهداف أكثر واقعية وبساطة؛ لقد أرادت مجرد استعادة الأرض المحتلة بأقل تكلفة ممكنة وإنزال الخسائر بإسرائيل.»[12] وسرعان ما أُثبتت صحة تحليله؛ ففي السابع من تشرين الأول اتصل حافظ إسماعيل بواشنطن ليعرض شروط مصر. «على إسرائيل الانسحاب من الأراضي المحتلة جميعها؛ وبعد هذا الانسحاب فقط، يمكن لمؤتمر سلام أن يكمل بحث المسائل الأخرى، مثل حرية الملاحة في مضائق تيران يضمنها وجود دولي مؤقت في شرم الشيخ.»[13] وفي ساحة المعركة، أصدرت القيادة المصرية الأوامر بوقف العمليات بعد النجاح في صد الهجوم الإسرائيلي المضاد في الثامن من تشرين الأول. تحصن المصريون على الضفة الشرقية من قناة السويس ورفضوا التقدم بوصة واحدة إلى الأمام مدة أسبوع كامل. وأتاح التوقف المصري لإسرائيل تركيز كلّ طاقتها على الجبهة الشمالية مطلقة القوة الكاملة لسلاحها الجوي ضد سورية. وتعرضت أرتال الجنود السوريين لقصف لا رحمة فيه، واستهدفت الطائرات الحربية الإسرائيلية البنية التحتية المدنية في العمق السوري. وحين حشد الجيش الإسرائيلي قوة ضخمة في الشمال، لم يتمكن من أن يقلب المكاسب السورية فحسب، بل توغل في العمق متجاوزاً خط وقف إطلاق النار الذي كان قائماً عام 1967، واحتل قطاعاً بارزاً من التحصينات إلى الجنوب الغربي من دمشق. وانتظر الأسد وكبار ضباطه العسكريين أن يتحرك المصريون، لكنهم لم يتحركوا. وقال الأسد لباتريك سيل وهو يستذكر ما حدث: «كانت تلك أسوأ خيبة أمل في الحرب.» ومع ذلك وعلى نقيض ما كان عليه الحال عام 1967، أمر الأسد أن تقدم الإذاعة والتلفزيون السوريان تغطية واقعية للحرب وأن تعرض النكسات مثلما تعرض مواطن النجاح.

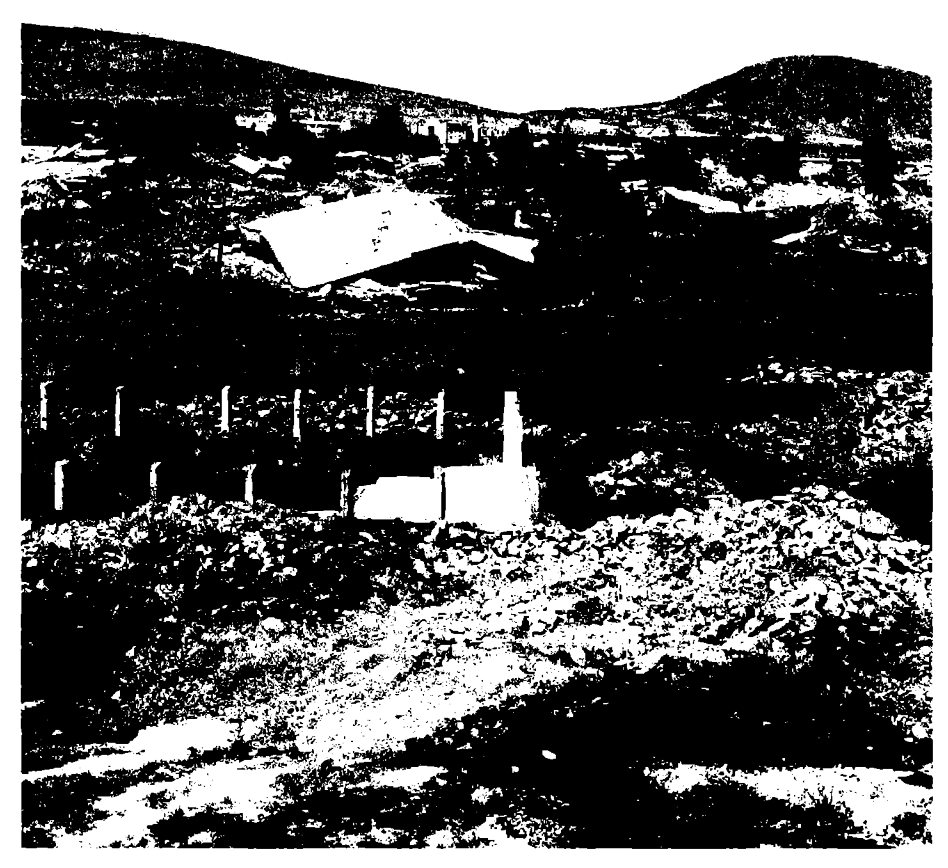
وبرغم ما حدث، كان الهجوم المضاد الإسرائيلي باهظ التكلفة جداً، ووجب على هنري كيسنجر ضمان تمكّن الإسرائيليين من إحراز النصر الذي تنبأ به وإنزال هزيمة مرة بالأسلحة السوفيتية. ونجح في كسر مقاومة وزارة الدفاع الأمريكية، التي سعت إلى إرسال أسلحة فقط في طائرات تستأجرها إسرائيل،

وأصبح جسر الأسلحة الجوي عملية عسكرية أمريكية. وقد اتخذ نيكسون، بناء على توصية كيسنجر، موقفاً ضد مقولة أن مثل هذه الشحنات ستؤدي إلى نفور العرب المعتدلين: «سنكون موضع انتقاد إن أرسلنا ثلاث شحنات كما سنكون موضع انتقاد إن أرسلنا 300 طائرة.»[14] وهكذا بدأ جسر جوي أمريكي ضخم، في الرابع عشر من تشرين الأول، (أطلق عليه اسم عملية عشب النيكل) بنقل أسلحة إلى إسرائيل للتعويض عن الأسلحة التي خسرتها. أُرسلت آلاف الأطنان من الذخائر والدبابات والطائرات والمعدات الإلكترونية، ولذلك حين استجاب السادات أخيراً للطلبات من دمشق وأمر قواته بالتقدم نحو ممري الجدي ومتلا، كان الإسرائيليون قد نعموا براحة أسبوع وأصبحوا الآن مدججين بالأسلحة وبمعدات أمريكية جديدة واستعدوا لتوجيه ضربة كبرى للقوات المصرية. ولم يُدحر الهجوم المصري فحسب، بل اخترق الإسرائيليون أيضاً في 16 تشرين الأول ثغرة في الخطوط المصرية، ونزلوا على الضفة الغربية للقناة. ولدى سماع السادات هذا الخبر المخيف دعا إلى وقف لإطلاق النار ومؤتمر سلام ترعاه الأمم المتحدة وذلك في خطاب ألقاه على مجلس الأمة المصري. وسرعان ما استجاب كيسنجر؛ إذ رأى أن الظروف سانحة الآن لإنهاء الحرب وفق الشروط الأمريكية الإسرائيلية.

في الثاني والعشرين من تشرين الأول وصل وزير الخارجية الأمريكي إلى موسكو واتفق مع القادة السوفييت على مسودة القرار 338، الذي دعا إلى وقف إطلاق النار ومؤتمر سلام برعاية الدولتين العظميين. وتبنى مجلس الأمن في الأمم المتحدة القرار بالإجماع، وفي الساعة السادسة و52 دقيقة مساءً بتوقيت دمشق في 22 تشرين الأول 1973، كان المفترض أن يتوقف القتال. وقبل السادات وقف إطلاق النار على الفور؛ مما أفسد خطة سورية لهجوم مضاد من جبهتين، يعود بموجبها السوريون إلى استعادة الجيب المحتل جنوب دمشق. لقد تبدّد أمل الأسد، ولم يبق له سوى قبول خيار وقف إطلاق النار، بعد أن بقيت سورية لتواجه إسرائيل والجسر الجوي الأمريكي وحدها تماماً. لكن

كيسنجر لم يكن قد انتهى بعد؛ فقد توقف في تل أبيب في طريق عودته من موسكو، حيث منح مباركته لإسرائيل لانتهاكها وقف إطلاق النار من أجل حيازة بعض المكتسبات الجديدة التي تقوي مركزها التفاوضي. وفي 23 تشرين الأول تقدمت القوات الإسرائيلية من مواقعها غرب قناة السويس وحاولت قطع طريق السويس ـ القاهرة. ومع حلول الليل تمكنت من قطع الطريق متجاوزة مدينة السويس، ووصلت إلى محيطها الجنوبي وحاصرت الجيش المصري الثالث المتمركز في شرق القناة. وفي الجبهة الشمالية أعادت القوات الإسرائيلية احتلال مرصد جبل الشيخ. وفي نيويورك، أصدر مجلس الأمن القرار 339 الذي يدعو إلى وقف جديد لإطلاق النار في الساعة السابعة صباحاً (بتوقيت دمشق) في 24 تشرين الأول، لكن إسرائيل خرقت وقف إطلاق النار مرة أخرى بتقدّمها نحو السويس. وفي اليوم نفسه في الساعة التاسعة و35 دقيقة مساء بتوقيت واشنطن، وصلت رسالة من موسكو تعلم البيت الأبيض أنها تفكر بإطلاق عمل أحادي الجانب لحفظ السلام وفرض وقف لإطلاق النار في الشرق الأوسط. ووضعت عدة فرق مظلية سوفييتية في حالة استعداد، وصدرت أوامر للجيش الأحمر بإجراء تمارين سريعة. وقرر هنري كيسنجر أن يزيد إسهامه، وكان رد فعله على التهديد السوفييتي في الساعة 11 و41 دقيقة مساء بتوقيت واشنطن برفع مستوى القوات الأمريكية المسلحة حول العالم إلى درجة التأهب القصوى في حالة السلام. وفي مواجهة احتمال حرب نووية، تراجع القادة السوفييت في الخامس والعشرين من تشرين الأول وتم خفض حالة الإنذار. وفي اليوم نفسه أصدر مجلس الأمن القرار 340 داعياً إلى وقف إطلاق النار في الشرق الأوسط، والذي ثبت هذه المرّة.

في 25 تشرين الأول 1973، سكتت المدافع وبدأ الصراع لإعادة صياغة الشرق الأوسط الجديد.



القنيطرة بعد التحرير ، حزيران 1974. وكانت قوات الاحتلال الإسرائيلي
قد قامت بتدمير المدينة قبيل الانسحاب منها .



مسجد مدمر في القنيطرة، حزيران 1974.



أسرى الحرب الإسرائيليين على جبهة الجولان، 15 تشرين الأول 1973 .



قداس يوم الأحد في إحدى كنائس القنيطرة المدمرة بعد التحرير، 30 حزيران 1974.



حطام طائرة إسرائيلية أُسقطت فوق مدينة دمشق، 10 تشرين الأول 1973.



جنود سوريون على جبهة جبل الشيخ، ربيع عام الـ 1974.

مراجع الفصل الأول

(1) Henry Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston 1982), p. 196.

(2) Henry Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston 1982), p. 202.

(3) Henry Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston 1982), p. 203.

(4) Patrick Seal, *Assad of Syria: The Struggle for the Middle East* (London, 1988), p. 217.

(5) Henry Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston 1982), p. 213.

(6) Patrick Seal, *Assad of Syria: The Struggle for the Middle East* (London, 1988), p. 197.

(7) سعد الشاذلي، مذكرات الشاذلي: حرب أكتوبر (دمشق 1984) ص 26.

(8) سعد الشاذلي، مذكرات الشاذلي: حرب أكتوبر (دمشق 1984) ص 35 - 36.

(9) Henry Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston 1982), p. 461.

(10) Henry Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston 1982), p. 465.

(11) Henry Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston 1982), p. 455.

(12) Henry Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston 1982), p. 460.

(13) Henry Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston 1982), p. 480.

(14) Henry Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston 1982), p. 515.

الفصل الثاني

كيسنجر في دمشق

لم يكن هنري كيسنجر يعرف سوى أقل القليل عن دمشق عندما دخل المدينة التاريخية العريقة أوّل مرة في أواخر عام 1973. وربما جُمعت معظم معلوماته الأساسية من سجلات الأمريكيين الذين زاروا دمشق، مبشرين أو سُيّاحاً، خلال منتصف القرن التاسع عشر، أو من تقارير وكالات الاستخبارات الأمريكية فقط. لقد غاب الدبلوماسيون الأمريكيون عن دمشق منذ أن قطعت سورية من جانبها العلاقات الدبلوماسية عقب حرب الأيام الستة عام 1967، لدرجة لم يبق فيها أيّ قسم لرعاية المصالح الأمريكية في دمشق مفتوحاً. وكانت زيارة كيسنجر هي الأولى لوزير خارجية أمريكي إلى العاصمة السورية منذ عام 1953 حين زارها آنذاك الوزير جون فوستر دالاس.

احتلّت سفارة الاتحاد السوفييتي في دمشق المشهد خلال السنوات الستّ من الغياب الأمريكي، وجنّدت قلوب السياسيين والناس العاديين وعقولهم، جاعلةً الـ «أمركة» تبدو وكأنها شيء متحجّر من الماضي. لقد تغيّرت دمشق على نحو هائل منذ الخمسينيات، ومع أوائل السبعينيات تضخمت المدينة وتوسّعت أفقياً وعمودياً من أجل استيعاب العديد من سكان الضواحي الفقيرة داخل المدينة الحضرية؛ مما أدى إلى استنزاف كل من احتياطي المياه وخزينة الدولة. وانتشرت المدارس الحكومية في كلّ أنحاء الريف من أوائل الستينيات مقدمةً

التعليم المجاني للسوريين كافة. كما عمّت دور السينما والمسارح؛ الأمر الذي أنتج وعياً ثقافياً جديداً وأخرج المدينة من تزمّتها الخانق. وأصبح بثّ التلفزيون الحكومي بالأبيض والأسود يصل إلى كلّ منزل في أرجاء سورية وغالباً ما كان يحمل رسائل سياسية مدروسة بعناية تهدف إلى تثبيت مبدأ العداء للصهيونية والإمبريالية والأمركة لدى أبناء الشعب. واستقرّ المشهد السياسي إلى حد بعيد بعد تسلُّم حافظ الأسد زمام السلطة عام 1970، منهياً بذلك سلسلة من الانقلابات والانقلابات المضادة التي هزّت سورية منذ عام 1949؛ الأمر الذي لم يكن على قدر كبير من الأهمية من وجهة النظر الأمريكية. وقد بدتْ سورية في عام 1953 وكأنها على وشك أن تصبح دولة شيوعية. وفي عام 1973 لم يكن الحال أفضل كثيراً إذ كانت متحالفة كلياً مع الاتحاد السوفييتي. وفي ذروة الحرب الباردة، استمرّت النظرة السائدة إلى سورية على أنها بلد «راديكالي» يفرض حكم الحزب الواحد ويتبنى الاشتراكية منهجاً اقتصادياً للدولة.

خلال حرب تشرين الأول عام 1973 وفي أعقابها مباشرةً، عقد كيسنجر العديد من الاجتماعات المتتالية مع مسؤولين سوفييت وإسرائيليين ومصريين وعرب، لكن سورية لم تكن على جدول أعماله حتى الثاني من تشرين الثاني 1973، حينما قابل محمد زكريا إسماعيل، نائب وزير الخارجية، في الجمعية العمومية للأمم المتحدة في نيويورك. وبعد أسبوع واحد، وأثناء زيارته الرياض في أول جولة شرق أوسطية يقوم بها في أعقاب الحرب، أُخبر كيسنجر أنّ حافظ الأسد مهتمّ بإجراء محادثات مباشرة مع الولايات المتحدة[1]. قال كيسنجر نعم، دون تردد. وبعد بضعة أسابيع التقى كيسنجر مسؤولاً سورياً آخر، وكان هذه المرة سفير سورية لدى الأمم المتحدة، هيثم كيلاني، وهو ضابط متقاعد تسلّم منصباً دبلوماسياً، وهو الذي أخبر كيسنجر أن حافظ الأسد سيستقبله في دمشق قبل عشرة أيام من عيد الميلاد المجيد عام 1973. كان كيسنجر بأمسّ الحاجة إلى رؤية الأسد؛ إذ كان منشغلاً بمحاولة عقد مؤتمر سلام برعاية أممية في جنيف تحضره سورية ومصر والأردن وإسرائيل. وكان يأمل أن يعقد هذا

المؤتمر في منتصف كانون الأول، تحت رعاية القوتين العظميين. وقد كان كيسنجر يأمل ـ إن جرى كلّ شيء على ما يرام ـ أن تؤدي الجلسة الافتتاحية إلى مسارات ثنائية من شأنها أن تحقق فصل القوات أولاً على الجبهة المصرية، ومن ثمّ السورية. ولم يكن الأسد من جانبه على اطلاع على مخطط كيسنجر الذي يهدف إلى كسر موقف العرب التفاوضي.

في الأسبوع الذي سبق لقاء الأسد، تمكن كيسنجر من ضمان مشاركة كل من الأردن ومصر في مؤتمر جنيف، كما حصل على مباركة السعودية لعملية السلام المزمعة. واتفق مع أنور السادات على الخطوط العريضة لفصل القوات بين مصر وإسرائيل، وعلى مفهوم المجموعات الثنائية الفرعية. والأهم من كلّ هذا، حصوله على وعد من الرئيس المصري بأن يوصي الأخير زملاءه من القادة العرب برفع الحظر النفطي فور إتمام فصل القوات في سيناء. ومع ذلك، بقيت سورية تشّكل علامة الاستفهام الرئيسية. هل سيوافق الأسد، «الراديكالي» القوي على الانضمام إلى دبلوماسية السلام الدولية المحمومة؟ وتوقّف كيسنجر، خلال بحثه عن الجواب، في محطة نهائية في الجزائر العاصمة للحديث مع الرئيس الجزائري، هواري بو مدين، أحد الحلفاء المقرّبين من سورية، وصديق شخصي للأسد. لقد أراد كيسنجر أن «يتعلم أكبر قدر ممكن» عن تفكير الزعيم السوري الغامض قبل لقائهما الأول المنتظر.[2]

اللقاء الأول

في الساعة الرابعة بعد الظهر بتوقيت دمشق من يوم 15 كانون الأول 1973، عُقد اللقاء الأول بين الأسد وكيسنجر في دمشق. وأقلّت سيارة مرسيدس سوداء كيسنجر برفقة موكب عسكري إلى بوابات قصر الروضة، الذي كان فندقاً وتحوّل إلى مقرّ رئاسي متواضع جداً. وحتى كلمة «قصر» لم تكن تنطبق تماماً على المكان الذي عمل فيه الأسد منذ توليه الرئاسة في عام 1971. يقع قصر الروضة في أعلى شارع أبي رمانة، وهو الشارع الراقي في دمشق الحديثة، مقابل

ساحة رئيسية تحمل الاسم ذاته، ويزيّنها مسجد صغير ذو قبة فضيّة، بناه أحدهم على نفقته الخاصة. كانت أزهار الياسمين تعرّش على شرفات قصر الروضة طوال فصل الصيف، ولكن في كانون الأول من ذاك العام، كان الطقس بارداً حزيناً، ربما ليعكس وضع العلاقات السورية ـ الأمريكية المتجمدة. يتألف البناء نفسه من قصر ذي خمسة طوابق، ليس لها أيّ تصميم أو حدائق، أو أيّ لون خاص على الإطلاق، فضلاً عن أنّ نوافذه المغلقة لا تتمتع بأيّ إطلالة مميزة على المدينة، وله فقط شرفة واحدة مستطيلة ذات أضلاع حادة «مزيّنة» بقطع سيراميك ذات لون أزرق بحري، كان الأسد يستخدمها لتحية مؤيديه. ودون الحاجة إلى تدقيق وتمعّن، يمكن لأيّ ضيف أن يلحظ آثار رصاص عميقة على الجدران الخارجية لقصر الروضة. تلك هي الآثار التي خلّفتها معركة عام 1966 حين توجه عسكريون لاعتقال أمين الحافظ، الرئيس آنذاك. وقد سبّبت تلك المعركة دمار أجزاء من منازل حي الروضة، ووضع أمين الحافظ في زنزانة رطبة في سجن المزة. وأطلق سراحه بعد حين، وأصدر الأسد قراراً بنفيه من دون عودة. لم يكترث الرئيس السوري لأمر تلك الندبات التي خلفها رصاص المعركة، ولم يكلّف نفسه عناء إزالتها، فبقيت محفورةً في جدران قصر الروضة حتى عام 2016. كانت تلك الآثار تذكر الجيران بالماضي المضطرب في دمشق؛ إذ لم تنعم المدينة بيوم من سلام وهدوء إلاّ حين تسلّم الرجل القوي زمام السلطة في عام 1970. وهناك في مدخل القصر منصة استقبال رخامية داكنة اللون، يليها درج متوسط الحجم يؤدي إلى مكتب الرئيس. ولا شكّ في أن هذا القصر لم يكن يستحق الذكر مقارنة بالقصور المترفة والمدهشة التي أقام بها كيسنجر في الرياض والقاهرة.

بدأ اللقاء الأول بتفاؤل كبير من كيسنجر عندما قال للأسد إن اجتماعهما مهمٌ من أجل «السلام في المنطقة، وحتى من أجل السلام في العالم».[3] لم تغب عن ذهن الأسد حقيقة أنّ هذه هي الزيارة الأولى لوزير خارجية أمريكي إلى دمشق منذ عقدين من الزمن؛ وكان يضع اللوم مباشرةً على الأمريكيين. وخلال

النقاش الذي استمرّ ست ساعات ونصف الساعة، كان الأسد وكيسنجر يعودان دائماً للحديث عن مدى أهمية تأسيس اتصال منتظم ومباشر بينهما بعيداً عن وسائل الإعلام والوسطاء. وكانت دهشة كيسنجر واضحة من مدى صراحة الأسد، واستعداده للمشاركة. وأشار كيسنجر إلى أنّ التقارير الأمريكية جميعها تؤكّد أنّ سورية كانت طرفاً يستحيل التفاوض معه. ومن الواضح أنّ هذا مبني على معلومات استخباراتية خاطئة. ولدى سماع الأسد ذلك التعليق لم تكن دهشته أقل من دهشة كيسنجر، وبأسلوب مهذّب أشار إلى أنه إن كانت السياسة الأمريكية تجاه سورية سياسة معادية بسبب تقارير استخباراتية (معيبة)، فإنّ المسؤول بالدرجة الأولى عن الصدع القائم في العلاقات هي الولايات المتحدة الأمريكية وليست سورية. ومن ثمّ انتقل الأسد إلى تحديد ثلاثة أسس لهذا الاجتماع ولأيّ محادثات مستقبلية، وهي: الوضوح، والصدق، والحقائق الثابتة. كان هذا هو الأسلوب البارع للأسد في إخبار ضيفه أنّ سورية لن تتأثر بسهولة بأيّ خطة أمريكية للسلام تُناقض مبادئها الجوهرية، وأنها أيضاً لن تكون ضحية لأيّ مكائد دبلوماسية. أخذ كيسنجر نفساً عميقاً ـ فكما هو متوقع، لن تكون المهمة سهلة، أو سريعة.

ولكسر إرث العلاقات الجليدية طوال عقدين من الزمن، سأل كيسنجر الرئيس السوري إن كان لديه أيّ موضوع محدّد في ذهنه يودّ أن يبدأ به النقاش. أجاب الأسد بحزم «العدوان الإسرائيلي المستمرّ، والموقف الأمريكي منه»[4] بدا واضحاً أن هذا الأمر كان يشغل فكره بدرجة يؤرقه فيها ليلاً. ويشير كيسنجر بعد سنوات، وحين كتابة مذكراته، إلى النفوذ الإسرائيلي في السياسة الداخلية الأمريكية، وإن لم يكن دائماً على درجة من البراعة والتحفظ.[5] ولكن، في هذا الاجتماع بالتحديد، وفي نوبة مفاجئة من صراحة الطرفين، اعترف كيسنجر أن الولايات المتحدة الأمريكية تدعم إسرائيل فقط نتيجة ضغط من أولئك الذين يسيطرون على «رأس المال، ووسائل الاتصالات»[6]. وبالطبع، كان يشير إلى

«اللوبي الإسرائيلي» القوي في واشنطن العاصمة، والدور الذي تؤديه الأموال والأصوات الانتخابية اليهودية في السياسة الانتخابية الأمريكية، ووسائل الإعلام الرئيسية التي يتحكم فيها مؤيدو إسرائيل. وتختلف الرواية الرسمية الأمريكية حول ما جرى في دمشق في ذلك الاجتماع في كانون الأول قليلاً عن الرواية السورية؛ إذ يقول كيسنجر: «هناك ضغوط محلية قوية في الولايات المتحدة الأمريكية لصالح دعم إسرائيل»(7) كما أنّ الرواية الأمريكية لا تذكر إطلاقاً أيّ تنويه له يتعلق بـ «رأس المال» أو «وسائل الاتصالات». أردف كيسنجر متذمراً أنه لا يستطيع ممارسة ضغط قوي على إسرائيل، أو حتى مواجهة غضب الصحف الأمريكية المؤثرة، ومحطات التلفزة، وأعضاء مجلس الشيوخ المؤيدين لإسرائيل.(8) لذلك كان كيسنجر بحاجة إلى مدة من الزمن لكي ينظّم الوضع الداخلي الأمريكي، وطلب إلى الأسد أن يجنّبه مشقة الحاجة إلى إعطاء كلمة نهائية حول الكيفية التي سيبدو عليها الحلّ الإقليمي في أعقاب جنيف. ومع ذلك، ذكّر كيسنجر الزعيم السوري بلطف أنه ما من خيار أمام سورية سوى الانتظار، لأنّ الولايات المتحدة الامريكية هي الوحيدة التي تملك النفوذ اللازم لتحقيق التقدم في الشرق الأوسط عن طريق الدبلوماسية بدلاً من الحرب. وتساءل كيسنجر لماذا يضيع الوقت في الضغط على إسرائيل للانسحاب إلى خط 22 تشرين الأول في الوقت الذي ربما ينجح فيه في أن ينتزع منهم ما هو أكثر أهمية.(*) ثم إنه نبّه مضيفه السوريّ الذي كان ينصت إليه بانتباه إلى أنّ الولايات المتحدة هي الوحيدة القادرة على ترويض عدوانية إسرائيل.

(*) أصدر مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة القرار رقم 338، الداعي إلى وقف إطلاق النار في 22 تشرين الأول 1973. وافقت مصر على وقف إطلاق النار في 22 تشرين الأول، وتبعتها سورية في اليوم التالي. وبرغم أنّ قرار وقف إطلاق النار دخل حيّز التنفيذ في 22 تشرين الأول الساعة 6,52 مساءً بتوقيت دمشق فالقوات الإسرائيلية واصلت عدوانها واحتلّت عدة مواقع داخل سورية ومصر. من هنا، فإنّ خط 22 تشرين الأول يشير إلى مواقع القوات الإسرائيلية والمصرية والسورية في الوقت الذي دخل فيه قرار وقف إطلاق النار حيّز التنفيذ.

مؤتمر جنيف

عرض هنري كيسنجر رؤيته لمؤتمر جنيف المقبل للسلام؛ إذ قال أولاً وقبل كلّ شيء، لا بدّ أن يبدأ المؤتمر، ليس لأنه سيكون احتفالاً رسمياً فقط، أو لأنّ الافتتاح من شأنه أن يؤدي إلى أيّ نتائج، بل إن الهدف الحقيقي من مؤتمر السلام هو تقديمه «المشهد» والإطار القانوني الذي يمكن من خلاله مواصلة عملية السلام.[9] وأضاف أنه فور البدء لن تكون هناك عودة. وسيُقسم المؤتمر خلال أداء مراسم الجلسة الافتتاحية إلى مرحلتين. في المرحلة الأولى تسعى الولايات المتحدة الأمريكية إلى إقناع الإسرائيليين بطريقة أو بأخرى بالانسحاب إلى مكان ما من الأراضي العربية المحتلة، وبذلك يتحقق فصل القوات. وأشار إلى أنّ هذا سيكون صعباً لأنّ إسرائيل، وعلى امتداد تاريخها، لم تتراجع إطلاقاً. فإذا تمكن من ضمان مثل هذا الانسحاب، ستكون تلك خطوة عظيمة، من شأنها أن تُحدث تبدلاً إيجابياً كبيراً في الوضع النفسي في المنطقة. ولكن كيسنجر أكّد أنّ هذا الانسحاب لا يستوجب الالتزام بـ «التفسيرات الدقيقة» لقراري مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بالرقمين 242 و338 والقاضيَين بالانسحاب الكلي من الأراضي العربية المحتلة جميعها. وعلى الجبهة المصرية، اقترح كيسنجر انسحاباً إسرائيلياً من الضفة الغربية لقناة السويس. وأشار إلى إمكان تطبيق المبدأ نفسه بصفة أساسية على الجانب السوري، حيث قال: «. . . لا بدّ من الانسحاب من الأراضي السورية في المرحلة الأولى»[10] وأضاف كيسنجر أنه بعد التوصل إلى ما سبق، يمكن الانتقال بالمفاوضات إلى المرحلة التالية. بقي الأسد جالساً متكئاً، يصغي بصمت دون أن ينطق بكلمة واحدة، منتظراً إنهاء كيسنجر مشهده المسرحي المدروس بعناية واضحة. ولفت وزير الخارجية الأمريكي النظر إلى أنّ مثل هذا الانسحاب سيكون أصعب في تحقيقة على الجبهة السورية من الجبهة المصرية، لأن الإسرائيليين «يكرهون السوريين حقاً.»[11]

سبّب تصميم رسالة الدعوة إلى المؤتمر كثيراً من الصداع للأمريكيين في الأسابيع السابقة، ذلك لأنّ إسرائيل رفضت حضور أي اجتماع إنْ تضمنت رسالة الدعوة إليه أيّ إشارة إلى وجود تمثيل فلسطيني. ناقش كيسنجر مع السادات رئيس مصر حلّين بشأن الرسالة؛ نصَّ أحدهما على أن تشير الدعوة إلى «مشاركة أطراف أخرى» في المرحلة الأولى من المؤتمر، والثاني أن تُختصر الرسالة المعقدة لتصبح دعوة بسيطة لحضور المؤتمر دون الإتيان على ذكر أحد من المشاركين ـ ويتضمن ذلك الفلسطينيين. وافق السادات بدوره على كلتا الصيغتين، شريطة موافقة دمشق أيضاً. وقد ذكّر كيسنجر الأسد أنّ إسرائيل كانت توّاقةً إلى افتعال شِجار دبلوماسي وأنها ستسعى بكل سرور إلى إحباط المؤتمر بسبب رسالة الدعوة. وأضاف أنه فضلاً عن الفتور الذي يبديه الإسرائيليون تجاه مثل هذا المؤتمر الذي قد يفضي بهم إلى تقديم تنازلات جدية، فإنهم يرحبون بأيّ ذريعة للتغيّب. وعلى مدى ست سنوات، كانت إسرائيل تزعم الرغبة في المفاوضات مع معرفتها التامة أنّ العرب سيرفضون. تابع كيسنجر متذمراً، أما الآن، وقد تبدلت المواقف، أصبحت إسرائيل مجبرة على الانتقال من الأقوال إلى الأفعال؛ الأمر الذي لم يكن سهلاً على غولدا مائير. وناشد كيسنجر الأسد الموافقة على تأجيل افتتاح المؤتمر من 18 كانون الأول إلى 21 منه، لمنحه متسعاً من الوقت لحلّ معضلة الدعوة مع الحكومة الإسرائيلية.

هنا تكلّم الأسد، خارقاً هاجس كيسنجر وحديثه عن تقنيات المؤتمر وإجراءاته، بقوله: «إنّ موقفنا الكامل من مؤتمر السلام يعتمد على محادثاتنا اليوم.»[12]

لم يكن موعد عقد المؤتمر، أو حتى كيفية صياغة رسالة الدعوة، هما المسألة الجوهرية؛ إذ قبل الوصول إلى تلك المرحلة المتقدمة لم تكن سورية قد قررت هل ستحضر مثل هذا المؤتمر أم لا. ونبّه الأسد كيسنجر إلى أنّه لم يُتخذ

بعد أيّ قرار يتعلق بهذا الأمر في دمشق، وأنّ الحديث عن تشكيل وفد لهذه الغاية ما زال سابقاً لأوانه. وأضاف أنه وقبل اتخاذ قرار نهائي، لا بدّ من أن يكون الأسد مقتنعاً شخصياً بما سيحرزه مثل هذا المؤتمر لصالح العرب. وأكّد الأسد أنه عندما قبلت سورية قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ذا الرقم 338، كانت هناك رؤية واضحة للكيفية التي سيبدو عليها مؤتمر السلام. غير أنّ التفسيرات المختلفة لقرار الأمم المتحدة ـ لا سيما الأمريكية منها والإسرائيلية، ساهمت في تعقيد الأمور وجعل الصورة العامة غير واضحة تماماً، فضلاً عن تباين الرؤى الأمريكية والسوفييتية لمؤتمر السلام، ومخرجاته النهائية؛ مما زاد الأمر تعقيداً.

أصيب وزير الخارجية الأمريكي بصدمة كبيرة، فقبل ثلاثة أيام من الموعد المفترض لافتتاح مؤتمر جنيف، وبينما كان كيسنجر غارقاً في الإجراءات الشكلية للمؤتمر، أراد الزعيم السوري التفاوض حول مشاركة سورية في المؤتمر، إن لم يكن الهدف منه التوصل إلى تسوية شاملة للصراع العربي ـ الإسرائيلي بمجمله. وكان ذلك هو الكابوس الملازم لكيسنجر الذي تمكّن السوفييت من إقناعه قبل مجيئه إلى دمشق ـ أو ربما ادّعى ذلك ـ أنّ سورية كانت مستعدة لحضور جنيف من دون شروط مسبقة.[13] وقال كيسنجر، مشتكياً إلى الأسد، إنه لا يحقّ للاتحاد السوفييتي الامتناع عن إعلام الأمريكيين بمجريات الأمور. وأكّد أنه لا يوجد أيّ اتفاق حتى ذاك التاريخ بين واشنطن وموسكو حول أيّ قضية جوهرية من قضايا الشرق الأوسط باستثناء الاتفاق على ضرورة عقد مؤتمر ذي طبيعة ما، وأنّ أي معلومات مخالفة ترد إلى سورية غير صحيحة دون شكّ. وبصراحة قال كيسنجر للأسد: «عليّ أن أكون صادقاً معك؛ أعتقد أن بوسعنا أن نكون أسرع من الاتحاد السوفييتي في عقد صفقة معك.»[14] وخلافاً للسوفييت، ادعى كيسنجر أن لديه نفوذاً حقيقياً في إسرائيل، التي هي طرف حاسم في عقد مؤتمر للسلام أو إفشاله. إلا أنّ الولايات المتحدة، وبعيداً

عن العلاقات الودّية، لم تكن تعترف بـ «مناطق نفوذ في الشرق الأوسط.»[15] وقال كيسنجر للأسد إنه لن يبدي أيّ تذمّر إن أرادت سورية التشاور مع الروس، مؤكّداً أنّ الولايات المتحدة «لا تسعى إلى التأثير في العلاقات السورية ـ السوفييتية.»[16] بالطبع، لم تكن عبارته الأخيرة صادقة؛ إذ كتب كيسنجر في مذكراته صراحةً أنّ الولايات المتحدة تفضل أن تكون العلاقات السورية ـ السوفييتية «أقلّ تقارباً.»[17] كان كيسنجر يعلم مسبقاً أنّ أنور السادات يبتعد بالتدريج، ولكن على نحو مؤكد، عن المعسكر السوفييتي ليدخل في تحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية؛ ممّا جعله يتصور إمكان تأرجح الأسد في موقفه وحذوه حذو السادات.

لم يُجب الأسد، بل أشار إلى كيسنجر أن يتابع حديثه، ممتنعاً بحذر عن إعطائه جواباً نهائياً؛ إذ لم يسمع بعد كلّ ما أراد أن يسمعه من الأمريكيين. كان كيسنجر يدور مراراً وتكراراً حول منطقة أكثر راحة للتفاوض، معتبراً الحصول على موافقة الأسد على حضور مؤتمر جنيف أمراً مسلّماً به. ثمّ عاد إلى مناقشة جدول أعمال المؤتمر. في المرحلة الأولى، يجب التوصل إلى فصل القوات، ويجب على إسرائيل الانسحاب من بعض الأراضي العربية. وستشهد المرحلة التالية انسحابات إسرائيلية أخرى، وبحثاً حول موضوع الضمانات الأمنية، ونقاشاً حول مصير الفلسطينيين، والقدس طبعاً. تردّد كيسنجر إلى حدّ ما في نقاش الشؤون الفلسطينية مع الزعيم السوري؛ إذ نصحه الجميع ألا يفعل، ولكنه أراد أن «يختبر حظّه، معولاً على حسن الضيافة العربية.»[18] وقال كيسنجر مقراً: «لا يمكن إيجاد حلّ دون أخذ حقوق الفلسطينيين بالاعتبار»[19]، ابتسم الأسد، وقد بدت الدهشة على وجهه لدى سماعه مثل هذا الموقف الأمريكي، أو ربما كانت زلّة لسان. وبسرعة أضاف كيسنجر أن هذه ليست خدعة، وأنه مستعدّ لـ «كتابة رأيه في مذكّرة يؤكد فيها وجهة نظره عن الفلسطينيين»، لكنه طلب أن يبقى هذا الأمر سراً.[20] وشدّد على أنّ أي محادثات بين الولايات

المتحدة والفلسطينيين يجب أن تبقى سريّة، شأنها شأن الاجتماع الذي جرى بين وفود من منظمة التحرير الفلسطينية، والدبلوماسيين الأمريكيين في المغرب إبّان حرب تشرين الأول. وهنا مثّل كيسنجر دور الجاهل ـ وهذه تقنية مشروعة في الدبلوماسية ـ قائلاً إن هناك الكثير من الجماعات الفلسطينية، تقارب في عددها عدد الدول العربية، وإنه لا يدري حقاً مع أيّ جماعة يجري اتصالاته، طالباً النصح، من الآن فصاعداً، من الأسد حول أكثر الجماعات الفلسطينية أهميةً في السياسة الفلسطينية.

المبادئ الأساسية للأسد

قرر الأسد مبتسماً أن يتولّى الحديث، بعد أن منح كيسنجر فرصة الكلام طوال الوقت، سائلاً «هل حان دوري لأتحدث؟ أنت أستاذ جامعي، وعادةً ما يحتاج الأستاذ الجامعي في كلامه إلى مدة تعادل مدة محاضرة جامعية. أما أنا فضابط في الجيش، وهذا يجعلني أميل إلى الاختصار.»[21] وشدّد الأسد على أن من المستحيل تحقيق السلام بالمعجزات، وإنما يمكن تحقيقه من خلال الاعتراف بـ «الحقائق على الأرض» فحسب.[22] لم تكن سورية أبداً عدواً للشعب الأمريكي، ولكن عندما يتعلق الأمر بالشرق الأوسط، وتحديداً بالقضية الفلسطينية، فإننا لا نتفق إطلاقاً مع حكومة الولايات المتحدة. لقد احتلّت إسرائيل الأراضي العربية، بما فيها مرتفعات الجولان، وجعلت المستوطنات علاماتٍ بارزة فيها، ولا يأتي ذلك إلاّ من التشجيع والدعم الكبيرين المتواصلين من الولايات المتحدة الأمريكية. ونبّه الأسد كيسنجر إلى أنّ الدعم الذي تمنحه بلاده لإسرائيل كان يسبّب إيذاء المصالح الأمريكية عالمياً، وأنه سينعكس عليها سلباً يوماً ما. ورفض الأسد أيضاً تصديق أنّ الولايات المتحدة الأمريكية، بكلّ نفوذها، لم تكن قادرة على إيقاف سيطرة اللوبي الصهيوني على السياسة الانتخابية الأمريكية ووسائل الإعلام. وأشار إلى حرب قناة السويس عام 1956،

عندما استخدم الرئيس آنذاك، دوايت آيزنهاور، نفوذه الكبير لحمل الإسرائيليين على إيقاف هجومهم على مصر. وبرغم تآمرهم مع بريطانيا العظمى وفرنسا، انسحب الإسرائيليون حينئذ عاجزين عن تحدي إدارة آيزنهاور. وأجاب كيسنجر برأي معاكس قائلاً إن الوضع الداخلي في الولايات المتحدة الأمريكية في «عالم اليوم» أصبح مختلفاً عمّا كان عليه عام 1956، ولا يمكن مقارنة نفوذ اللوبي اليهودي آنذاك بما أصبح عليه عام 1973.[23]

شعر حافظ الأسد بالحاجة إلى تذكير كيسنجر اليهودي الأمريكي أنّ سورية لم تذهب إلى الحرب سواء في عام 1948 أو 1967 لأن حكومتها أو شعبها كرهوا اليهود. وعلى نقيض ذلك، كان اليهود السوريون جزءاً من النسيج الاجتماعي والثقافي للبلاد، وكانوا يعيشون جنباً إلى جنب مع المسلمين والمسيحيين على مدى قرون، إلى أن جاءت إسرائيل عام 1948 وأخلّت بحالة السلم والهدوء التي كانت تسود الشرق الأوسط. وأشار إلى أنّ أيّ شيء يخالف هذه الرواية هو ببساطة نتاج الأكاذيب الإسرائيلية. وأضاف أنّ العدوّ الحقيقي لسورية، بكل تأكيد، هو الصهيونية، الحركة السياسية، وليست اليهودية الدين السماوي. ووجد الأسد أيضاً أنه من الضرورة بمكان تصحيح سوء فهم آخر لوزير الخارجية الأمريكي، وهو أنّ سورية لم تكن دولة تدور في فلك الاتحاد السوفييتي، وأنها ليست دولة متطرّفة راعية للإرهاب حسبما كانت تتهمها وسائل الإعلام وأجهزة الاستخبارات الأمريكية في كثير من الأحيان. وأشار إلى أنّ سياسات سورية كانت «مستقلّة تماماً»، وتتقرّر فقط على ضوء «مصالحها الوطنية وطموحات شعبها.»[24] وبدا واضحاً أنّ كيسنجر لم يكن مدركاً مدى اهتمام الأسد وحساسيته تجاه آراء شعبه به، قياساً بمعايير كل من السعودية والكويت والعراق أو مصر، وتبين له فيما بعد أنّ أنور السادات لم يكترث إطلاقاً لرأي القاعدة الشعبية بسياساته الخارجية؛ فقد كان يتصرف وفقاً لرأيه الشخصي بالنيابة عن الشعب المصري.[25] استأنف الأسد حديثه، مطلقاً عبارة أصبحت فيما بعد

سمته المميزة على مدى الثلاثين عاماً التالية، إذ قال «تريد سورية سلاماً عادلاً.»[26] ليس الشعب السوري من هواة الحروب، ولكن شأنه شأن شعوب العالم، يقاتل من أجل استعادة أراضيه المفقودة، وغايته الأساسية هي العيش بسلام. وأشار إلى أنّ مثل هذا السلام لا يمكن أن يتحقق مادامت الأراضي العربية تحت وطأة الاحتلال.

وأخيراً، ربما كانت الحقيقة الجوهرية والمسلّم بها في سياسة الأسد، والتي بقي مخلصاً لها حتى آخر يوم في حياته، هي أن سورية لن تتنازل إطلاقاً عن سيادتها ولا عن أيّ بوصة من أراضيها. لقد أكّد ضرورة استعادة كلّ الأراضي التي احتلّتها إسرائيل، دون أي تنازل عن أي جزء منها. وأضاف أنّ ادعاء إسرائيل بأنها ستتراجع إلى «حدود آمنة»، لا إلى ما قبل حدود عام 1967، إنما هو خدعة، قائلاً لكيسنجر: «لا يحتاج الأمر إلى ذكاء خارق لإدراك أن لا وجود لحدود آمنة في هذا العصر!»[27] لقد أثبتت حرب تشرين الأول تعذُّر إطلاق مثل ذلك الادعاء الكاذب أمام أسلحة المدفعية الحديثة والدبابات والطائرات المقاتلة والصواريخ. ويعود الجمود في المصطلحات إلى تشرين الثاني عام 1967، تاريخ صدور قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ذي الرقم 242. تحدث ذلك القرار عن «سلام عادل ودائم» ضمن «حدود آمنة ومعترف بها» بيد أنه لم يحدد مكان تلك الحدود الآمنة. وفسّر العرب بدورهم ذاك القرار على أنه انسحاب إسرائيلي كامل من الأراضي المحتلة عام 1967. وبحماسة دافع الأسد عن القضية العربية قائلاً: «لماذا يجب أن تكون هذه الحدود الآمنة المفترضة على حساب العرب؟ لماذا تكون في مرتفعات الجولان ولا تكون في الجليل؟»[28] وتابع أنه إذا كان الهدف الأساسي من الحدود الآمنة هو ضمان منطقة عازلة متساوية على كلّ جانب، فمن المنطقي أن تكون في الجليل، في منتصف الطريق بين دمشق وتل أبيب. رفض كيسنجر مثل هذا الطرح قائلاً إن من الممكن تطبيقه على الجبهة المصرية. وبسخرية، ادّعى أنه لو

جرى تطبيق هذا الاقتراح، لنقلَ الإسرائيليون العاصمة شمالاً إلى حيفا. لم تعجب تلك الفكاهة الرئيس الأسد، وأجاب بطل جِدّ أنه إن حدث ذلك، فسيقوم بنقل عاصمته جنوباً إلى القنيطرة، المدينة الرئيسية في مرتفعات الجولان. تراجع كيسنجر في مقعده وقال إن الفكرة كانت «مجرد مزاح.»[29]

الطريق المسدود

لم يشأ الأسد أن يسهب كثيراً في الخلافات التاريخية، بل انتقل إلى الأمور الأكثر أهمية في اجتماع ذاك اليوم طارحاً على ضيفه ثلاثة أسئلة جوهرية حول مؤتمر جنيف المقترح: «هل توافق الولايات المتحدة الأمريكية على أننا لا نستطيع التخلي عن أيّ جزء من أراضينا المحتلة، وأنه لا بدّ من استعادتها كاملةً، أم أنّ لديكم رأياً مختلفاً؟ هل يعتقد الدكتور كيسنجر أن من الممكن تحقيق السلام دون حلّ القضايا الأساسية للفلسطينيين؟ هل سنذهب إلى مؤتمر السلام لنضع برنامجاً لتحقيق هاتين النقطتين اللتين ذكرتهما أولاً أم لنغرق فقط في جزئيات قد تستغرق وقتاً طويلاً من غير التوصل إلى حلّ شامل؟»[30] أجاب كيسنجر أنه وبالتأكيد لا يودّ إضاعة الوقت في نقاش تفاصيل تافهة. وفيما يتعلق بالسؤال الثاني الذي طرحه الأسد، أكّد استحالة التوصل إلى حل نهائي دون أخذ قضية الفلسطينيين وطموحاتهم بعين الاعتبار. وفي مسألة الأرض، كان مستعداً لمناقشة أمرها مع الأسد إما في ذاك الوقت أو لاحقاً، مع انتهاء المرحلة الأولى وتحقيق انسحاب جزئي للقوات الإسرائيلية من مرتفعات الجولان السورية. ولكنه رفض أن يُلزِم نفسه بموقف حيال مسألة الانسحاب الكامل، لأنه لا يضمن بقاء ذلك سراً وقتاً طويلاً في العالم العربي، وإذا ما كُشف أيّ تعهد سرّي من طرفه بهذا الخصوص فمن شأنه أن يؤدي إلى آثار كارثية في العلاقات الأمريكية ـ الإسرائيلية. لكن حافظ الأسد كان رجل حقائق، وقد ذكر كيسنجر حقيقتين واضحتين مرتبطتين بتفكير الأسد؛ إذ قال: «لا يمكن التوصل إلى تسوية إقليمية

من دون سورية، ولا تملك الولايات المتحدة أي وسيلة ترغم بها السوريين على قبول شيء لا يريدونه.»[31] لكنه كان تواقاً إلى عقد مؤتمر السلام ـ ورأى أن كلّ التفاصيل الأخرى، من ضمانات أمنية ومحطات إنذار مبكر، تأتي في الدرجة الثانية حال التوصل إلى فصل كامل للقوات. هزّ الأسد رأسه، وأخرج خريطة كبيرة وفتحها أمام ضيفه الأمريكي. أوجز كيسنجر المبادئ التي اتفق عليها مع السادات، والتي تضمّنت انسحاب كتيبتين من الجيش المصري شرق القناة، والإبقاء على كتيبة واحدة، مع الحدّ من استخدامها للمدفعية الثقيلة والدبابات. وينسحب الإسرائيليون من جانبهم من الضفة الغربية للقناة باتجاه ممري متلا والجدي، وبذلك تصبح المنطقة الواقعة بين الجيشين منطقة عازلة، تديرها قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة.

تجدر الإشارة إلى أنّ ضباط الجيشين المصري والإسرائيلي أداروا المفاوضات المباشرة بعد حرب تشرين الأول، أي بعد مباحثات الـ كيلو 101، والتي أدَّت دوراً حاسماً في تسهيل عقد اتفاقية فصل القوات في سيناء. وفي الواقع، كانت المحادثات ناجحة جداً، واقترب الطرفان من الاتفاق على فصل القوات بمفردهما في أواخر تشرين الثاني، واضطر كيسنجر إلى التدخل من أجل إنهاء العملية؛ إذ كانت على وشك أن تحوّل الأنظار عن قوته الدبلوماسية، وأن تمهد الطريق لعقد مؤتمر جنيف المتنازع عليه.[32]

رأى كيسنجر أنه ينبغي تطبيق «الأفكار» نفسها التي بحثها مع السادات على الجبهة السورية، مع مراعاة أن مرتفعات الجولان ليست بعمق سيناء. ومع ذلك، لم يكنْ هناك بدّ من وجود منطقة عازلة، وخطّ يجب على الإسرائيليين التراجع إليه. وعندما يتحقق ذلك الانسحاب، تُعطي الولايات المتحدة وعداً بإعلان أن ذلك هو «المرحلة الأولى» فقط من الانسحاب الإسرائيلي الكلّي.[33] ولمّا بدأت وجهات نظر المفاوِضَين بالتقارب، شرعا في مناقشة الجوانب التقنية للعملية. من وجهة نظر الأسد، أنّه مادامت مرتفعات الجولان أصغر في

المساحة من سيناء، وذات تعداد سكاني أكبر، فيجب على القوات الإسرائيلية أن تنسحب كلياً من المنطقة بغية إنجاح عملية فصل القوات، ويحلّ المراقبون الدوليون مكان القوات السورية في الأراضي المحرّرة. قاطعه كيسنجر، من دون أن يطرف له جفن، معلناً أنّ إسرائيل لن توافق على مثل هذا المقترح، مضيفاً أنه، ومع ذلك، فربما يوافقون على إخلاء المنطقة التي احتلوها بعد السادس من تشرين الأول عام 1973. أجاب الأسد أن مثل هذا الجيب ليس ذا قيمة من الناحية العسكرية، وأنّ استعادة جولان مجزّأ لا يمكن أن يحلّ أيّ شيء بالتأكيد. ومهما يكنْ الأمر، فليس من مصلحة إسرائيل أن تبقى في جيب محاصر، وهذا من شأنه أن يُظهر لنا مدى «الحماقة» التي يتّسم بها الضباط الإسرائيليون.[34] بدا هنري كيسنجر موافقاً على هذا التوصيف. لقد أرادت سورية فصل القوات على خط السادس من تشرين الأول (خطّ ما قبل الحرب)؛ وكانت قواتها تنتشر فعلياً على طول الخط ـ باستثناء منطقة الجيب.

هنا وصل اجتماع الأسد ـ كيسنجر إلى طريق مسدود. وأصرّ الرئيس السوري على ضرورة ترسيم خطوط فصل القوات مع كيسنجر قبل بدء المؤتمر، وكان على معرفة تامة أنّ الاتفاقية الدولية ستكون مجرد «مشهد مسرحي» يتمّ من خلاله تمرير اتفاق متفاوض عليه مسبقاً، ومتفق عليه بين الأسد والسادات.[35] كان الرئيس المصري قد أخبر رفيق سلاحه السوري في العاشر من كانون الأول الماضي أن خطوط فصل القوات «يجب أن تُرسم بوضوح على الخريطة قبل مؤتمر جنيف»[36] ولكنّ كيسنجر توقّف بضعة أيام في القاهرة بعد ذلك، واتفق مع السادات على أن فصل القوات يجب أن يكون موضوع المفاوضات الرئيسي في جنيف، ويستحيل رسم أيّ خطوط محددة قبل المؤتمر.[37] ولم يتمّ إعلام الأسد بالتطوّر الأخير. عارض كيسنجر بانفعال طريقة رؤية الأسد للمؤتمر؛ وبحسب خطّته إنّ من شأن مؤتمر جنيف، وبعد الجلسة الافتتاحية، أن يخلق جوّاً من الارتياح تبدأ فيه المجموعات الفرعية بالعمل على خطوط فصل

القوات. وإنْ لم تقتنع سورية بالنتائج التي يتمّ التوصل إليها في هذه المرحلة، يكون لوفدها الحرية في مقاطعة المؤتمر والمغادرة قبل إعادة انعقاده في كانون الثاني عام 1974. رفض الأسد قطعياً تقسيم العرب، ووافق على حضور المؤتمر، والجلوس إلى الطاولة نفسها التي يجلس إليها الإسرائيليون شريطة أن يكون اجتماعاً ثلاثياً تحضره مصر وترأسه الأمم المتحدة. وبالتأكيد لم ترُق فكرة المفاوضات الثلاثية لكيسنجر الذي كان يرمي إلى عقد مباحثات سورية ـ إسرائيلية في قاعة منفصلة، ومباحثات مصرية ـ إسرائيلية في قاعة أخرى، وأن يؤدي هو دور الوسيط بين الأطراف. كان كيسنجر قد اتفق مسبقاً مع السادات على ضرورة «انقسام المؤتمر إلى مجموعات فرعية بالسرعة الممكنة»[38] وأراد السادات من جانبه عقد اتفاق سريع حول فصل القوات في سيناء خشية أن يثبط الأسد العنيد من همّته. وكان يسعى أيضاً إلى استبعاد القوتين العظمَيين من المجموعات الفرعية من أجل تفادي التأثير السوفييتي، وتجنّب إنشاء جبهة سورية ـ سوفييتية تصرّ على تسوية شاملة، بما يتعارض وسياسة الخطوة خطوة التي تنتهجها أمريكا. ومع ذلك، أصرّ الرئيس المصري على بقاء كيسنجر فعالاً من وراء حجاب كي يتمّ إبرام الاتفاق مع إسرائيل فور إعادة عقد المؤتمر في كانون الثاني. وبدا واضحاً أن الأسد لم يبذل حتى ذاك الحين جهداً في معرفة الدرجة التي أصبح فيها النفاق جزءاً لا يتجزأ من شخصية السادات.

واصل كيسنجر مهمته واضعاً قضية أسرى الحرب موضع النقاش. أصرت إسرائيل على أنها لن تجلس إلى طاولة نقاش واحدة مع سورية مالم تطلق دمشق سراح أسرى الحرب. وافق السادات على تحرير المعتقلين الإسرائيليين جميعاً في مطلع تشرين الثاني، كجزء من اتفاقية النقاط الست من أجل ضمان وصول شحنات المساعدات إلى الجيش الثالث المحاصر. ولم يطلب الأمريكيون من سورية الذهاب إلى أقصى ما يمكن في تلك المسألة. ولكن، ودليلاً على حسن النية، كان على دمشق إطلاق سراح الجرحى من المعتقلين الإسرائيليين في

السجون السورية، والسماح للّجنة الدولية للصليب الأحمر بزيارة الباقين منهم. وفور التوصل إلى اتفاق نهائي، تقوم سورية بإطلاق سراح كلّ الإسرائيليين المعتقلين منذ تشرين الأول عام 1973. أشار كيسنجر، أنه في حال موافقة الأسد، فإن ذلك من شأنه أن يوفّر للولايات المتحدة الأمريكية حجّة تستخدمها في محادثاتها المقبلة مع الإسرائيليين. ولكن الأسد رفض الطلب رفضاً قاطعاً، قائلاً إنه من المبكر جداً بحث موضوع كهذا، ومذكراً كيسنجر أن ثقته بالإسرائيليين معدومة. وبصرف النظر عن أيّ نقاش متعلق بقضية أسرى الحرب، فإنّ مشاركة سورية في مؤتمر جنيف مرهونة بالتوصل إلى اتفاق حول موضوع فصل القوات، وقد أكّد الأسد أنه لا بدّ من تحقيق هذا الأمر قبل عقد المؤتمر وليس بعده. ولم يكن الأسد ليتخلى عن ورقة أسرى الحرب بتلك البساطة من أجل الشروع بالمباحثات أو لإرضاء الأمريكيين فحسب. لقد كانت محادثات جنيف مضيعةً للوقت والمصداقية للرئيس السوري، فلا هو أراد تلك المحادثات ولا الشعب السوري أرادها.

وبتذمّرٍ قال كيسنجر إذا انهار المؤتمر، أو إن لم يُعقد إطلاقاً، فسيجعل ذلك منه أضحوكة للمجتمع الدولي. قاطعه الأسد قائلاً: «هذه ليست مسألة شخصية يا دكتور كيسنجر. إنّ الحرب والسلم والاحتلال هي أمور يجب التعامل معها بوضوح مطلق، وإلا، فمن شأن أيّ سوء فهم لها أن يؤدي إلى كارثة.»[39]

بعد ذلك ناقش الطرفان خياراً نهائياً؛ إذ اقترح كيسنجر أن يقوم بترتيب محادثات تسبق المؤتمر بين الضباط السوريين والإسرائيليين لمناقشة موضوعات فصل القوات وأسرى الحرب. ومع ذلك حذّر كيسنجر من أن المحادثات إن تمكنت من إحراز النجاح، فسيصبح حافز الإسرائيليين لحضور المؤتمر ضئيلاً لأنّ موضوع النقاش التالي سيكون بحث انسحابهم إلى خطوط ما قبل الحرب. أطاح الأسد مجدداً بهذا الطرح، رافضاً فكرة تقسيم العرب، غير مدركٍ لنيّات السادات الحقيقية.

بدا واضحاً أن المحادثات وصلت إلى طريق مسدود. لقد أراد كيسنجر أن يعقد المؤتمر لكنه لم يكن قادراً أو راغباً في إعطاء الأسد أي شيء ملموس في المقابل. وبعد ستّ سنوات من انقطاع العلاقات، كانت ثقة الأسد بمحاوريه الأمريكيين ضئيلة، إضافة إلى أنّ ثقته بالسادات كانت تتلاشى سريعاً. واقترح الأسد أن ينظر كيسنجر مجدداً إلى الخريطة ليحاول الوصول إلى إجابات أو حلول قائلاً: «يطلق الناس عليك لقب مهندس السياسة الأمريكية، وهذه ليست بالقضية المعقّدة.» أجاب كيسنجر: «لقد استغرقتُ أربع سنوات من أجل تسوية الصراع في فيتنام.»[40] يبدو أنه كان مستاءً من فرط توقعات العرب من دبلوماسيته، وربما يرجع ذلك إلى سمعته المذهلة في الانفتاح على الصين وإنهاء حرب فيتنام.[41] إنّ هذه الثقة العربية العمياء بكيسنجر، والتي استغلّها من غير تردّد، ستعبر عن نتائج مدمرة في الأشهر أو السنوات المقبلة.

باب مفتوح

حرص الأسد، وبرغم الاختلاف الواضح في الآراء، على إطراء جهود كيسنجر، مؤكداً ضرورة مواصلة الحوار، حتى وإن قرّرت سورية مقاطعة مؤتمر جنيف. ولكي يتمّ إنجاز ذلك، يجب على سورية والولايات المتحدة الأمريكية العودة إلى إيجاد قنوات اتصال مباشرة عن طريق افتتاح دائرة لرعاية المصالح الأمريكية في دمشق، ومثلها لرعاية المصالح السورية في واشنطن، وأن يتمّ إيفاد موظفين دبلوماسيين مؤهلين وموثوقين للعمل في هاتين الدائرتين. ذلك هو كلُّ ما كان كيسنجر يتوق إلى سماعه بعد مفاوضات شاقة ـ لقد أراد أن يعيد بناء الجسور مع دمشق. وبرغم تصميم حافظ الأسد على تحليل مؤتمر جنيف ومناقشته، فقد وافق على أن يكون جزءاً من عملية السلام الشاملة، معطياً فرصةً للعلاقات السورية ـ الأمريكية.

امتنعت دمشق أخيراً عن الذهاب إلى جنيف، لكنها لم تعارض الحصول

على مقعد ـ ولو فارغ ـ على الطاولة المستديرة. ورأى كيسنجر أن هذه الخطوة تجعل سورية عضواً أصيلاً في مؤتمر السلام، ولها الحقّ في المشاركة في جلسات مستقبلية.[42] ومن جهة أخرى، وافقت كل من مصر والأردن على حضور مؤتمر جنيف رغم غياب رفيق سلاحهم السوري، على حين بقي الفلسطينيون مهمّشين تماماً. غير أنّ وقائع جلسات المؤتمر أثبتت أن حافظ الأسد كان محقاً؛ إذ لم يكن المؤتمر سوى مجموعة من الخطابات الموجّهة على نحو واسع إلى القواعد الشعبية للمشاركين كافة. ولم يبدأ العمل الحقيقي المتعلّق بالتسوية إلا بعد انتهاء المؤتمر.

خَلُصَ كيسنجر في تقويمه لزيارته الأولى إلى دمشق، إلى أنه أحرز أكثر مما كان يتوقع.[43] فقد أسس حواراً إيجابياً مع الأسد، واستطاع أن يُدخل سورية المستقلّة في العملية السلمية، وتمكن من استعادة العلاقات الثنائية مع دمشق. وبعد ذلك ستتوالى الأحداث، وستثبت زيارة كيسنجر إلى دمشق في عام 1973 أنها الحلقة الأولى في سلسلة طويلة، أنتجت اتفاقاً لفصل القوات على مرتفعات الجولان دام أربعين عاماً، ورتّبت زيارة لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية إلى سورية ـ كانت الأولى من نوعها في تاريخ البلاد.

أصبح الطريق إلى دمشق الآن ممهداً أمام هنري كيسنجر، وفُتح الباب الآن على مصراعيه أمام حافظ الأسد لأداء دور إقليمي أكبر.

مراجع الفصل الثاني

(1) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 761.

(2) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 765.

(3) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 1.

(4) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 2.

(5) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 484.

(6) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 4.

(7) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXV, Arab-Israeli crisis and war, 1973, eds. Craig Daigle and Nina Howland (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 393, p. 1068.

(8) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 4.

(9) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 5.

(10) المصدر نفسه.

(11) المصدر نفسه.

(12) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 6.

(13) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 7.

(14) المصدر نفسه.

(15) المصدر نفسه.

(16) المصدر نفسه.

(17) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 782.

(18) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 9.

(19) المصدر نفسه.

(20) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 10.

(21) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 12.

(22) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 13.

(23) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 20.

(24) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 13.

(25) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 781.

(26) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 14.

(27) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 16.

(28) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 17.

(29) المصدر نفسه .

(30) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 20

(31) المصدر نفسه.

(32) Patrick Seale, *Assad of Syria: The Struggle for the Middle East* (London, 1988), p. 228.

(33) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 21.

(34) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 22.

(35) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 24.

(36) Patrick Seale, *Assad of Syria: The Struggle for the Middle East* (London, 1988), p. 229.

(37) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 773.

(38) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 770.

(39) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 25.

(40) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 15 كانون الأول 1973، ص 31.

(41) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 529.

(42) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 798.

(43) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 785.

الفصل الثالث

مصر تنجرف بعيداً

ذات يوم، كان حافظ الأسد وأنور السادات صديقين حميمين. كان لقاء الرجلين الأول أثناء الوحدة السورية المصرية التي لم تعش طويلاً في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين. ومع أن الأسد يصغر السادات بعشر سنوات، فقد أعجب الأسد بهذا القائد العسكري المصري الذي انقلب إلى سياسي لالتزامه في البداية بالقومية العربية وإخلاصه الثابت للرئيس جمال عبد الناصر. وحين كان السادات ضابطاً مبتدئاً أثناء الحرب العالمية الثانية عمل سراً مع الألمان ضد المحتلين البريطانيين في مصر، فقتل ضابطين ودخل السجن نتيجة عمله، وهذا شيء أحبه الأسد بصدق فيه. كان السادات هو الذي أعلن للعالم نجاح ثورة الضباط الأحرار، التي أطاحت بالملك فاروق وأسرت عقول السوريين وقلوبهم جميعاً، بمن فيهم الأسد، وذلك في عام 1952. وجاءت خيبة الأمل الأولى من السادات في أيلول 1961، حين أسقط ضباط عسكريون سوريون نظام الوحدة في دمشق؛ إذ إن السادات تقبل الانفصال سلبياً كواقع قاس، ولم يحرّك إصبعاً واحداً للدفاع عن الوحدة. أما الأسد، فقد نظر إليه على أنه أكبر كارثة في حياته، لم يعادلها سوى حرب الأيام الستة عام 1967. وكان من الممكن ملاحظة الاختلاف في الشخصيتين منذ اللحظة الأولى بعد

الانفصال. فقد بدأ ميل السادات إلى سياسة «مصر أولاً» في الظهور وأصبحت تلك السياسة الصفة المميزة لرئاسته. وفي الوقت نفسه بدأ الأسد على الفور بعقد لقاءات سرية مع أعضاء الحركة البعثية والناصرية السرية، لمناقشة كيفية إعادة الجمهورية العربية المتحدة. وكان الأسد على قناعة تامة أنه لو لم يحصل الانفصال عام 1961، لما تعرض العرب للهزيمة عام 1967، وما كانت إسرائيل لتكسب هضبة الجولان.

تولى أنور السادات وحافظ الأسد السلطة في مصر وسورية وبفاصل زمني أقلّ من شهر واحد بينهما، في أواخر عام 1970؛ فقد خلف السادات جمال عبد الناصر قي تشرين الأول وقام الأسد بحركته التصحيحية في تشرين الثاني. وبعد عشرة أيام فقط من تولي الأسد السلطة، غادر دمشق، ولم يتجه إلى حلب أو اللاذقية، بل إلى القاهرة، العاصمة السابقة للجمهورية العربية المتحدة. وهناك عقد اجتماعاً مطولاً بالسادات وقرر الرجلان أن يعملا جنباً إلى جنب ويداً بيد. وأسسا وحدة جديدة متأرجحة مع القائد الليبي الشاب معمر القذافي. ويبدو أن الأسد كان على ثقة تامة بنظيره المصري وأن الاحترام والثقة كانا متبادلين. وقبل حرب تشرين الأول وأثناءها، وضع السادات فعلياً صورة مؤطرة لحافظ الأسد خلف مكتبه في القاهرة، وكان يعرضها من قَبْل أثناء مقابلاته مع الصحفيين العرب والغربيين.

أخفقت حرب تشرين الأول في استعادة أراض محتلة، لكن هذا زاد من تصميم الأسد. ومع ذلك فقد تركت الحرب السادات وهو على شفا انهيار عصبي؛ فالجيش المصري الثالث كان مطوقاً، ومدينة السويس محاصرة حصاراً كاملاً من قبل الإسرائيليين. وكان السادات متلهفاً لمتابعة السير على الخط السياسي لإنقاذ قواته، ولتحقيق أحد أهداف شن الحرب، وهذا الهدف هو إتمام الانتقال بصفة نهائية وكاملة إلى النطاق الأمريكي. وقد أمضى فترة الحرب بأكملها في اتصالات متبادلة مع هنري كسنجر. وحين صمتت المدافع، أرسل

السادات وزير خارجيته إسماعيل فهمي إلى العاصمة الأمريكية في 28 تشرين الأول. وفي اليوم التالي بدأت مفاوضات مباشرة بين الضباط المصريين والإسرائيليين، ترأسها رئيس العمليات في القوات المصرية المسلحة المشير محمد الجمصي، والجنرال الإسرائيلي آرون ياريف، وذلك عند نقطة الكيلومتر 101 على طريق السويس القاهرة ـ على أرض مصرية. وفي 31 تشرين الأول انطلقت رئيسة الوزراء الإسرائيلية غولدا مائير إلى واشنطن العاصمة.

كان هنري كيسنجر قد بدأ إعداد استراتيجية ما بعد الحرب للشرق الأوسط. وقد أراد مشاركة أمريكية مباشرة للسيطرة على العملية لكي تتجنب إسرائيل آلام العزلة الدولية، ولتحقيق انسحابات ذات شأن، أولاً وقبل كل شيء. ولو تمّ بذلُ جهد عالمي للتوصل إلى تسوية شاملة بعد اندلاع لهيب الحرب، لتبنّى دون شكّ الموقف العربي الذي يطالب بالانسحاب الإسرائيلي الشامل من كلّ الأراضي المحتلة عام 1967. وكانت إسرائيل ستجد نفسها في مواجهة فيض من القرارات الدولية التي تطالب بالانسحاب من الأراضي العربية المحتلة، مع عقوبات مرافقة، وتجد الولايات المتحدة نفسها وحيدة في موقف حرج في مواجهة بقية العالم. لقد كان السوفييت قد بدؤوا بالفعل يدعمون المطالب العربية الأساسية منذ 1967. وتبعهم الأوروبيون واليابان من أجل إنهاء محنة حظر العرب لتصدير النفط المؤلمة، الذي أدى إلى تعطيل اقتصادهم الصناعي المزدهر.[1]

احتاج كيسنجر إلى كسر الاتفاق العربي الأوروبي، وإلى إحداث فجوة بين السوفييت ومعظم الأنظمة العربية، والعمل على صدع الجبهة العربية التي كانت موحدة حتى ذلك الحين. وكانت الأداتان الرئيسيتان اللتان استخدمهما لتحقيق برنامجه هما قلق السادات حول مصير جنوده، وتعطشه للانفتاح على الأمريكيين والابتعاد عن الاتحاد السوفييتي.[2] لم يكن هناك وقت للانتظار، وقام وزير الخارجية الأمريكي في 5 تشرين الثاني بأول زيارة له للشرق الأوسط

بعد الحرب، وقابل السادات في القاهرة أول مرة، وجعل الرئيس المصري يوافق على سلسلة من التنازلات المؤلمة، اشتهرت بـ «اتفاقية النقاط الست.» ففي مقابل سماح إسرائيل بمرور المؤن الغذائية والدوائية إلى الجيش الثالث المطوق وإلى مدينة السويس، أطلقت مصر سراح أسرى الحرب جميعهم ورفعت الحصار عن مضيق باب المندب، أقصى بوابة جنوبية إلى البحر الأحمر. كما اتفق الطرفان على بدء مباحثات لفك ارتباط القوات في سيناء؛ مما أصاب الأسد بخيبة أمل كبيرة. لكن عزيمة الرئيس السوري لم تَلِنْ؛ إذ كان لا يزال في وضع لا يسمح له بقطع العلاقات السورية المصرية. ورغم انهيار استراتيجيتهما الحربية المشتركة، أدرك أنه لا بد أن يقف هو والسادات معاً وأن يتفاوضا فريقاً واحداً للحصول على نوع من الصفقة المفيدة من الأمريكيين، حتى وإن لم تكن وفق أهوائهما تماماً.

في أواخر تشرين الثاني 1973، توقف الأسد في القاهرة للقاء آخر مع السادات، وهو في طريقه إلى مؤتمر قمة عربي في مدينة الجزائر. في تلك الأثناء كانت المفاوضات بين المصريين والإسرائيليين تسير قدماً عند الكيلو متر 101، دون حضور أمريكي. واقترب الجانبان أكثر نحو إتمام اتفاقية فصل القوات في سيناء ـ لكن كيسنجر أفسد الاتفاق في النهاية. كان الرئيس السوري يستشيط غضباً تجاه كل ذلك الحديث عن فصل للقوات المصرية، وسأل صديقه القديم غاضباً: «ما الذي تفعله؟ ما هذا الفصل للقوات؟ كيف يمكن لك فصل قواتك عن قوات إسرائيل وهي لا تزال تواجه سورية على أرض المعركة؟» كان السادات يجلس على أريكة ذات ذراعين ويرتدي زيه العسكري الكامل، ويطلق الدخان من غليونه، مقلداً الأسلوب الأرستقراطي الأوروبي الذي أخفى خلفيته تماماً. سأله الأسد غاضباً: «هل خضنا الحرب لنحقق هذا؟» أجاب السادات بهدوء: «ألا تثق بي؟» كان الأسد على وشك الانفجار: «هناك أفعال تناقض الثقة!» وبحركة مسرحية لوَّح السادات بذراعه وقال: «حسناً إذن سألغي كل

شيء!»[3] ووعد بإنهاء المحادثات إلى أن يتحقق شيء ملموس على الجبهة السورية. لكنه لم يفعل ذلك، ولم تتوقف المحادثات إلا بسبب تدخل كيسنجر. وفي كانون الأول 1973، التقى الرجلان مرة أخرى في القاهرة، وتعهد السادات أن لا يحضر مؤتمر جنيف ما لم تتحدَّد خطوط فصل القوات على كلتا الجبهتين، المصرية والسورية. ولكنه نكث بوعده مرة أخرى.

حين افتتح مؤتمر جنيف في 21 كانون الأول 1973، حضره وزير الخارجية المصري وجلس خلف طاولة مقابل نظيره الإسرائيلي يغال ألون. وكان كيسنجر حاضراً، وكذلك رئيس الدبلوماسيين السوفييت أندريه غروميكو. وبقي مقعد سورية شاغراً. ومع أن مؤتمر جنيف لم يحقق أية نتائج ملموسة، فقد مهد لأسلوب الخطوة بعد الخطوة لكيسنجر، الذي سيؤدي إلى انفصال العالم العربي ـ الذي كان جبهة واحدة حتى ذلك الحين -إلى مسارات مفاوضات ثنائية مع إسرائيل. وقد اغتاظ الأسد بشدة من هذه المكائد الدبلوماسية ومن ضعف السادات في مواجهة الأمريكيين. فمن وجهة نظره، انتقمت حرب تشرين الأول لحرب 1967 وأعادت الكرامة للعرب. والآن من حق العرب أن يعاملوا بجِدّ، ولكن يجب أن ينظروا إلى أنفسهم بجِدّ قبل أي جانب آخر في المجتمع الدولي، إلا أنّ استراتيجيته وروحه المعنوية كانتا ستتعرضان لضربة كانتا وشيكة أشدّ قسوة.

ففي 18 كانون الثاني 1974، نجح كيسنجر في التوصل إلى اتفاقية لفصل القوات بين مصر وإسرائيل بعد فترة من الدبلوماسية المكوكية المحمومة. فقد انسحبت إسرائيل من الضفة الغربية لقناة السويس وتراجعت عشرة كيلومترات أخرى إلى الشرق لإيجاد منطقة عازلة بين القوات المصرية والإسرائيلية تحت إدارة الأمم المتحدة. ووافق السادات على ألاّ يُبقي قوة أكبر من ثماني كتائب من جيشي مصر الميدانيين المتمركزين شرق قناة السويس، مؤلفة من سبعة آلاف رجل وثلاثين دبابة. كما أذعنت مصر لوجود منطقة محدودة السلاح عرضها

ثلاثون كيلو متراً على كل من جانبي القناة، وشمل ذلك إزالة بطاريات صواريخ الدفاع الجوي كافة. كانت أيام العبور العظيم قد ولّت، وكان الأمريكيون سيتولون مراقبة التزام كلا الجانبين من خلال الطلعات الجوية.

كان الأسد على حافة الانفجار وهو يشاهد الأخبار على التلفزيون. وقال للسادات وهو يصيح من دمشق إلى أسوان: «هل تفهم معنى ما تقوم به؟ إنه يعني أن إسرائيل ستنقل إلى جبهتنا كل دبابة ومدفع لها في سيناء.»[4] لكن كيسنجر كان فخوراً جداً بما أطلق عليه اسم «سيناء 1.» وإذا لم يُحدث هذا تصدعاً بين سورية ومصر ولم يأتِ بحافظ الأسد إلى طاولة المفاوضات، لن ينجح أي شيء آخر. ومن المؤكد أن «سيناء 1» غيرت الديناميكية الإقليمية وأجبرت الأسد على القبول بواقع قاس جديد. فاستراتيجية الجبهتين التي تبناها، والتي كان يأمل أن تحقق لبلاده صفقة سلام مشرّفة، أصبحت الآن ملغاة بعد أن أخفقت في إنهاء حرب تشرين الأول بنصر عربي، ووجد نفسه يواجه إسرائيل وحيداً إن فشلت عملية السلام. لكن الولايات المتحدة أدركت الحاجة إلى الاستمرار في التعاطي مع سورية للإبقاء على دور السادات كـ «قوة معتدلة» في السياسة العربية، ولتبرهن للعرب أن السلام واستعادة أراضيهم لا يمكن أن يتحققا إلا عن طريق الدبلوماسية الأمريكية.[5]

بعد يومين فقط من «سيناء 1» وقبل التوجه في طريق العودة إلى واشنطن العاصمة، وصل كيسنجر المزهو بانتصاره إلى دمشق لمقابلة الأسد. لقد كان المزاج أشدّ توتراً، وبلغ درجة أعلى مما كان عليه عندما التقى الرجلان في دمشق أول مرة في شهر كانون الأول.[6] وقبل أربع وعشرين ساعة تماماً من هبوط الطائرة، التي تحمل نخبة وزارة الخارجية الأمريكية(*)، في العاصمة

(*) وزارة الخارجية الطائرة، هو الاسم الذي أطلقه الصحفيون على طائرة كيسنجر أثناء جولته المكوكية بين مصر وإسرائيل خلال مفاوضات فصل القوات.

السورية، كان الأسد قد عقد اجتماعاً عاصفاً استمرّ تسع ساعات مع السادات في قاعة الشرف في مطار دمشق. وفي هذه المرة كانت ورقة التوت قد سقطت واتهمه الأسد دون مواربة بالازدواجية والطعن في الظهر، قائلاً إن اهتمام شعب سورية ينصبُّ على مصر وليس على أنور السادات. وحين سأله الأسد عن صحة الشائعات بأن مصر ستفتح قناة السويس، أجاب السادات ساخراً: «هل تصدق كل شيء تقرؤه في الصحف؟ ما أريده فقط هو خداع الإسرائيليين. فأنا لن أفتح القناة!» لكن السادات كان قد وعد كيسنجر في محادثة خاصة بإعادة السكان إلى المدن والبلدات المحاذية لقناة السويس، وذلك في إشارة إلى إسرائيل أنه لا ينوي شن حرب مرة أخرى، ومقدمة لاستئناف نشاط السفن الطبيعي، الذي سيشمل السفن الإسرائيلية مع مرور الوقت. وبدافع من غضب الأسد العارم على أجوبة السادات المراوغة، قال للسادات بحدة لاذعة: «ما السبب في أنك مستعجل هكذا لفصل القوات؟ ألا يمكن أن تترك مجرد نقطة مواجهة واحدة؟ ربما فرقة واحدة على الجبهة؟ سيشير هذا على الأقل لإسرائيل وللعرب أن الجيش المصري لا يزال يواجه إسرائيل وأن الحرب قد تشتعل في أية لحظة. ولن يكون بإمكان إسرائيل أن تنعم براحة كاملة.»، أجاب السادات: «حسناً، حسناً... لا تتعب نفسك. سأبقي فرقة لمجابهة الإسرائيليين.»[7] ومرة أخرى ذهب هذا الوعد لحافظ الأسد أدراج الرياح مثل وعود أخرى سبقته.

الجولة الثانية في دمشق

رغم رد فعل الأسد المنفجر تجاه الاتفاقية الثنائية المصرية الإسرائيلية، بقيت لهجته ودية طوال لقائه بكيسنجر. وعلى نقيض السادات، انتقل كيسنجر إلى قصر الروضة ولم يبق في المطار. لكن الأسد لم يحاول أن يخفي غضبه تجاه الاتفاقية المصرية. كان همّه الأول التأثير الذي ستحدثه الصفقة المصرية المنفردة في الشعب السوري، الذي كان يثق بمصر في الماضي ثقة تامة وهو

يشاهدها الآن تنجرف ببطء إلى المدار الأمريكي الإسرائيلي. لم يؤثر ذلك في معنويات الشعب فحسب، بل جعل التعاون بين دمشق والقاهرة في المستقبل، إن لم نقل التحالف، شبه مستحيل. ولم يُخفِ الأسد حقيقة قوله بصراحة للسادات إنه مهما يكن عبء الجيش الثالث المحاصر ثقيلاً، فإنّ عليه ألاّ يمضي نحو اتفاقية منفردة مع إسرائيل. حاول كيسنجر استيعاب غضب الأسد قائلاً إن الاتفاقية الإسرائيلية المصرية جيدة للجبهة العربية الجماعية، لأنها أجبرت إسرائيل أول مرة في تاريخها على الانسحاب من أراض عربية. ومع إنجاز اتفاقية فك الارتباط في سيناء، يمكن الآن التوصل إلى اتفاقية مماثلة على هضبة الجولان السورية. وتعهد بممارسة النفوذ نفسه الذي مارسه في المحادثات المصرية، دون الدخول في أية تفاصيل. لكن الأسد لم يقتنع.

لم يستطع كيسنجر تحريك الرئيس السوري، وأخذ يتذمر مجدداً من الضغوط التي تمارس عليه من قبل اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة، ومن السيناتور الديمقراطي هنري جاكسون، حيث ألقى كيسنجر باللوم في منع حصول اختراق جدي في عملية السلام، على هذا اللوبي وليس على سورية.[8] ادّعى كيسنجر أنه كلّما حاول هو ونيكسون القيام بمبادرة جديدة في الشرق الأوسط، ظهرت «اتهامات جديدة».[9] كان يلمّح بالطبع إلى فضيحة واترغيت وتداعياتها التي زعزعت إدارة نيكسون وهي من عمل اللوبي اليهودي والأمريكيين المؤيدين لإسرائيل. كما ادّعى كيسنجر أنه لو تمادى في العلاقة مع سورية لتمّت حياكة فضيحة جديدة حوله، لذلك فهو مضطّر إلى المضي في سياسة الخطوة ـ خطوة.

في تلك الفترة كانت إدارة نيكسون ترزح تحت وطأة تداعيات واترغيت وضغوط السيناتور جاكسون، الذي قام بتعطيل سعي الإدارة الأمريكية لمنح الاتحاد السوفييتي معاملة تفضيلية في المجال التجاري، والتي كانت جزءاً من سياسة الوفاق التي أريد بها تخفيف التوترات بين القوتين العظميين. كان هدف

جاكسون المعلن هو الضغط على القيادة السوفييتية للسماح بالهجرة اليهودية من الاتحاد السوفييتي، بدعم من اللوبي اليهودي في واشنطن.[10] إلا أن الهدف الأساسي من حملته هذه كان إفشال سياسة الوفاق برمتها وليس شلّ الدبلوماسية الأمريكية في الشرق الأوسط.[11] لقد اعتمد كيسنجر سياسة الخطوة ـ خطوة وفصل مسارات السلام عن سابق إصرار وتصميم، وليس رداً على ضغوط اللوبي اليهودي أو الحزب الديمقراطي. فالأثر السلبي الوحيد لحملة جاكسون تتمثل في أنّ زعزعة عملية الوفاق ستؤدي إلى تعنّت سوفييتي قد يقود إلى محاولة القيادة السوفييتية تعطيل السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، غير أن هذا الأمر لم يحصل خلال المفاوضات السورية. وإضافة إلى ذلك، من الصحيح أن اللوبي اليهودي كان يكره رؤية إسرائيل تتعرض لضغوط كي تنسحب من الجولان المليء بالمستوطنين. ولكن لم يكن الأمريكيون في تلك المرحلة من المفاوضات يطلبون من الإسرائيليين القيام بأي انسحاب كبير من الجولان، كما أن الإسرائيليين لم يكونوا ضد فكرة الانسحاب الكامل؛ إذ وافقوا على انسحاب أوسع خلال مفاوضات الكيلومتر 101 مع المصريين في تشرين الثاني من عام 1973، أكبر مما عرضه كيسنجر في محادثات فصل القوات بعد ثلاثة أشهر. لقد كانوا يقبلون بالانسحابات الجزئية، على عكس ما ادعاه كيسنجر.

ومع ذلك بدا الأسد مقتنعاً بهذا العذر؛ حتى إنه حذّر كيسنجر من أن «واترغيت جديدة» قيد التحضير بحقه.[12] في تلك اللحظة، ترسّخت فكرة في عقل الأسد وهي أن اللوبي اليهودي يقف خلف فضيحة واترغيت لمنع نيكسون من فرض تسوية شاملة على إسرائيل. وقد تعزّزت هذه النظرية عندما دفعت فضيحة واترغيت نيكسون إلى الاستقالة بعد شهرين من زيارته دمشق في حزيران عام 1974، والتي قدّم فيها الرئيس الأمريكي ما فسّره الأسد تعهداً من هذا الرئيس للعمل على تسوية شاملة في الشرق الأوسط تعيد الأراضي العربية المحتلة كلها. وسيظلّ الأسد متمسّكاً بهذه الفكرة في العقدين القادمين رغم تغيّر

الإدارات الأمريكية؛ حيث قال عام 1991 لوزير الخارجية الأمريكية في حينه جيمس بيكر: «بعد لقائنا نيكسون قام بالإدلاء بتصريح بأن نظرته متطابقة مع ما قالته الأمم المتحدة حول هذا الصراع. ثم عاد إلى الولايات المتحدة وأتت واترغيت. فجأة اختفى نيكسون وشُنّت عليه حملة سريعة، ونحن نعتقد أن لهذا الأمر علاقة أساسية بموقفه من السلام في المنطقة.»[13]

بعد أن نجح كيسنجر حيث أخفق السادات، أي في التهدئة من غضب الأسد، انتقل الوزير الأمريكي إلى شرح المنهجية التي استخدمها لتحقيق فصل القوات بين مصر وإسرائيل. لقد كان عليه أولاً، وقبل الحصول على الاقتراحات الإسرائيلية، أن يحصل على موافقة السادات على المبادئ العامة لفصل القوات، كما كان عليه أن ينجز ذلك بسرعة وسرّية بعيداً عن أنظار وسائل الإعلام (وعن أنظار الأسد أيضاً). وبناءً على ذلك، أراد كيسنجر تقديم بعض الأفكار حول الجبهة السورية، مع التنبيه إلى أنه قد لا يستطيع إنجازها كلها. ولم يكن يريد الاحتيال على الرئيس السوري، أو على الأقل هذا ما ادعاه، ولم يشأ قطع عهود لا يمكنه الوفاء بها كي لا يفقد ثقة محاوره به. اعتقد كيسنجر بأنّ على إسرائيل الانسحاب من الجيب الذي احتلّته داخل الأراضي السورية أثناء الحرب، إضافة إلى موقعين إضافيين في جبل الشيخ تم احتلالهما بعد 22 تشرين الأول 1973، أي بعد دخول وقف إطلاق النار حيز التنفيذ. إلا أن استعادة القنيطرة، كبرى مدن هضبة الجولان[14]، إلى السيادة السورية كانت تستوجب الكثير من الحنكة.

من الصعب تحديد المصدر الذي أتى منه اقتراح القنيطرة، فلا وجود في مذكرات كيسنجر ولا في السجلات الرسمية الأمريكية لأي ذكر للقنيطرة خلال هذه المرحلة من المفاوضات. ولربما ناقشها كيسنجر مع وزير الدفاع الإسرائيلي دايان، أو مع السادات، دون أن يتم تسجيل ذلك في المحاضر الرسمية. ولكن الإشارة الأولى حول القنيطرة وردت في محضر هذا الاجتماع الرسمي بين الأسد وكيسنجر، والذي قام الدكتور إسكندر لوقا بتدوينه. إنّ هذا هو الدليل التوثيقي

الوحيد على أن مسألة القنيطرة كانت قد نوقشت في هذه المرحلة المبكرة من العملية التفاوضية.

ورداً على هذه الأفكار المتلاحقة المعروضة أمام الأسد، فقد شرح لضيفه أن مساحة الجولان أقل كثيراً من مساحة شبه جزيرة سيناء الضخمة؛ وأن القنيطرة تقع على عمق 4 كيلومترات فقط خلف خط السادس من تشرين الذي تسيطر إسرائيل عليه. ردّ كيسنجر على الفور بأن «هذه المساحة قد لا تعني الكثير للسوريين، إلا أن الإسرائيليين مستعدون للقتال من أجلها.»[15] كانت العقبة الأساسية أمام التوصل إلى اتفاق على الجبهة السورية هي كثافة عدد سكان الجولان مقارنة بسيناء؛ إذ يبلغ عدد سكانه 170000 نسمة موزعين على 163 قرية. ولا تقلّ الظروف الحياتية لأهالي الجولان الرازحين تحت الاحتلال، أو أولئك الذين هُجّروا منه، أهمية عن الانسحاب. وكان الأسد يدرك جيداً أن الشعب السوري لم يكن يكترث كثيراً بالتفاصيل التقنية لفصل القوات، بل كان همّه الأساسي هو مصير إخوته المهجرين من الجولان، حيث أكد الرئيس السوري: «على الأقل دعنا ننقذ ما أمكن من القرى السورية. لو لم تكن مأهولة، ولو كانت أرضاً بوراً فحسب، لأمكن الحديث بمنطق مختلف؛ ولكن للقرى المأهولة أهمية قصوى. لو أرجعنا أهالي القنيطرة فقط، فسيتظاهر المهجرون الآخرون في شوارع دمشق رغم أنهم صامتون الآن.»[16]

كان الأسد يعرف من خبرته الطويلة؛ إذ كان ضابطاً في الجيش ووزيراً للدفاع، أن إسرائيل تقلق من وجود القوات السورية المسلّحة بالمدفعية والدبابات على التلال المطلة على سهل الحولة ـ تلك الرقعة من الأراضي الخصبة على الجانب الغربي المحتل من هضبة الجولان. ولكن بالنظر إلى الصورة الأشمل، كان الأسد يعلم أن اسرائيل لا يهمها بضعة كيلومترات، فقادتها يريدون تحقيق «إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل.»[17] ذكّر الأسد كيسنجر أن وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه دايان قال في خطابه الأول بعد حرب

الأيام الستة: «نحن الجيل المؤسس، نجحنا في الوصول إلى حدود عام 1967، وتقع على كاهلكم أيها الجيل الثاني مهمّة الوصول إلى حدود إسرائيل الكبرى.»[18] لذلك تدرك سورية أنه بسبب هذه الطموحات التي لم يخفِها الإسرائيليون، لن تنسحب إسرائيل من الأراضي المحتلة طواعية.

رأى كيسنجر الأمور على نحوٍ مختلف طبعاً؛ فقد اتفق مع الأسد على أن إسرائيل أصبحت أقل ميلاً للتخلي عن الأراضي بعد حرب تشرين. وعندما قابل غولدا مائير بعد الحرب حين زارت الولايات المتحدة، اقترح كيسنجر أن تنسحب إسرائيل إلى خط 22 تشرين الأول ـ أي خط وقف إطلاق النار. رفضت مائير هذا المقترح وثار غضبها على كيسنجر، وأدارت له ظهرها طوال فترة العشاء الذي أقامته السفارة الإسرائيلية في واشنطن على شرفها، وحينها علّق كيسنجر مازحا: «إن ظهرها جميل كجمال وجهها!»[19] ولكن لما كانت دبلوماسية كيسنجر على الجبهة المصرية قد أثمرت اتفاقاً، فإن «الضغوط الأمريكية المستمرة» بحسب زعمه دفعت مائير للتراجع عن تعنتها[20]. كان كيسنجر على استعداد لأن يتعهد للأسد بأن المفاوضات إذا بدأت على الجبهة السورية، فسيبذل «قصارى جهده كي يمنع فشلها.»[21] بيد أن العقبة الأخيرة المتبقية كانت إصرار الأسد على الاتفاق على تحديد النتائج النهائية قبل بداية العملية التفاوضية. تذرّع كيسنجر بأنه في الحالة المصرية كان على علم مسبق بالمطالب المصرية وسقف التنازلات الإسرائيلية؛ مما مكّنه من التدخل في الزمان والمكان المناسبين، ولكن هذا لم ينطبق على المحادثات السورية. ولو بدا وكأنه يميل قليلاً إلى الموقف السوري، فستدمّره إسرائيل سريعاً.[22] إن الطريقة المثلى للمضي قدماً، من وجهة نظر كيسنجر، هي أن يقدّم كل جانب اقتراحه، ثم يقوم هو بوساطته لردم الهوة. واقترح على الأسد اتفاق شرف ينقل بموجبه الوزير الأمريكي ما يسمح به السوريون فقط إلى الإسرائيلي حول موضوع فصل القوات، وبالعكس[23].

مع هذا الضوء الأخضر المبدئي من الولايات المتحدة للبدء بمفاوضات

الجولان، عرض الأسد موقفه، وشرح أن سورية أودعت لدى مصر ثلاث خرائط (لم تُحفظ هذه الخرائط في الأرشيف السوري) تحتوي تفاصيل الخيارات السورية حول فصل القوات، وحان الآن دور كيسنجر كي يراها. تضمنت كل خريطة اقتراحاً لا يختلف عن سابقه بأكثر من خمسة كيلومترات، إلا أن سورية لن تقبل بأقل مما اعتبرته حداً أدنى لخط الفصل. ورأى الأسد أن لا طائل من مناقشة تفاصيل المناطق منزوعة السلاح ومناطق تخفيف السلاح، وأنّ الضمانة الوحيدة دون تجدّد النزاع في نظره هي الاتفاقات الدولية. فقبل حرب تشرين، حفرت إسرائيل خندقا بطول سبعين كيلومتراً على جبهة الجولان وبعرض قناة السويس، ونشرت خلفه حقولاً ضخمة من الألغام على أمل إيقاف الدبابات السورية. إلا أنه وفي اليوم الأول من الحرب، عبر سبعون ألف جندي سوري هذا الخندق، وقاموا بتنظيف حقول الألغام وتدمير معظم التحصينات الإسرائيلية، وقتلوا أو أسروا من فيها من جنود. ولاحظ الأسد أنّ الدعم الأمريكي وحده هو الذي حال دون هزيمة إسرائيل، لا تحصيناتها. وكانت سورية جاهزة لشن هجوم معاكس لاستعادة الجيب المحتل خلال الحرب، إلا أن الخطة ألغيت عندما قبلت مصر بوقف إطلاق النار.

لم يستطع كيسنجر منع نفسه من التعليق على ما قاله الأسد وأخذ يسأل عن الأسباب التي دفعت سورية إلى الموافقة على وقف إطلاق النار. رد الرئيس السوري بأعلى صوته: «مصر تركت المعركة!»[24] كانت القيادة العسكرية السورية قد أخبرت نظيرتها المصرية أن التحضيرات لشن هجوم معاكس تجري على قدم وساق، وأن الحرب يجب أن تستمرّ على الجبهتين، لكن أنور السادات ترجّى للأسد أن يقبل وقف إطلاق النار قبل أن تخسر مصر وسورية كلّ شيء. ولكن الأسد رفض، فتصرفت مصر منفردة، وأعلنت قبولها وقف إطلاق النار في 22 تشرين الأول عام 1973. أدركت القيادة السورية أن مواجهة إسرائيل من دون مصر، خاصة في ظل الجسر الجوي الأمريكي الذي ينقل كميات هائلة

من السلاح والعتاد، أمر مستحيل، فقبلت وقف إطلاق النار مساء 23 تشرين الأول عام 1973. وتذكر الأسد بمرارة ما دار حينذاك: «أخبرني السادات على الهاتف أن هنالك ضمانات من القوتين العظميين أن إسرائيل ستنسحب من الأراضي العربية المحتلة، وبالطبع إنّ استعادة الأراضي دون استمرار الحرب هو الخيار الأفضل.»[25]

معضلة أسرى الحرب

كان هنري كيسنجر يفضّل لو أن ضباط الجيش السوري شرحوا تلك المقترحات الثلاثة للإسرائيليين مباشرة، إلا أنه من المستحيل الحصول على موافقة الأسد على فكرة كهذه. وعليه اقترح الوزير الأمريكي طلب مساعدة مصر والأردن لتفعيل المفاوضات السورية ـ الإسرائيلية، حيث يمكن لأي من هذين البلدين العمل كوسيط بين سورية وإسرائيل اللتين ترفضان بشدة التفاوض المباشر. وكانت إحدى الأفكار المطروحة هي دعوة ضباط سوريين لحضور لقاءات اللجنة العسكرية المصرية الإسرائيلية المنبثقة عن مؤتمر جنيف. أما الفكرة الأخرى، فكانت تشكيل لجنة إسرائيلية أردنية يمكن أن يحضرها الضباط السوريون[26]. استحسن الأسد كلتا الفكرتين؛ إذ أظهرتا أن الأمريكيين بدؤوا يفهمون طريقة تفكير سورية بوجه أفضل، ولكنه أصرّ على الحصول على ضمانة أمريكية بأن المفاوضات إذا بدأت فهي لن تفشل. ولتوضيح وجهة نظره، دعا الأسد كيسنجر إلى أن يُحلّق بطائرته فوق هضبة الجولان ليرى كيف أن تلك المنطقة التي لا تزيد مساحتها على 1200 كيلومتر مربع، تضمّ أكثر من 163 قرية وكان يقطنها عشرات آلاف السوريين.[27] لن يقبل الأسد أبدا أن يعرّض حياة أي سوري للخطر، فلا يزال الآلاف من السكان يرزحون تحت نير الاحتلال، وقد يتعرضون لأعمال انتقامية في حال فشل المفاوضات، ثم إنه كان قلقاً على مصير المهجرين الذين اعتمدت عودتهم إلى قراهم على نجاح المفاوضات.

تبجّح الوزير الأمريكي أمام مُضيفه السوري بأنه لم يخفق في أي مفاوضات من قبل، وأنه لن يقبل الإخفاق في الملف السوري. لقد نجح في إطلاق هذا المسار ولو جزئياً، ونجح في تجنب صدام مبكّر عن طريق تحاشيه ذكر المطالب الإسرائيلية المتكررة بأن تطلق سورية سراح أسرى الحرب الإسرائيليين من ضباط وجنود لايزالون في السجون السورية، كشرط لبدء العملية التفاوضية. لقد حاولت إسرائيل تضمين بند خطي حول أسراها في سورية في اتفاق فصل القوات مع مصر، إلا أن الوزير الأمريكي رفض ذلك قطعياً، لأنه كان سيخدم أهداف الأسد بمنع اتفاق مصري إسرائيلي منفرد. لقد كان الرئيس السوري على استعداد لإبقاء الأسرى الإسرائيليين في سورية إلى أجل غير محدّد في حال أدى ذلك إلى منع هذا الاتفاق من الحصول.[28] وتوصل كيسنجر إلى نتيجة مفادها أنه لا يمكن إطلاق سراح الأسرى الإسرائيليين في سورية قبل التوصل إلى اتفاق لفصل القوات في هضبة الجولان.

ومهما يكن الأمر، كان الأسد هو البادئ في الحديث عن قضية الأسرى. وقال متفاخراً إن الجنود السوريين لم يقتلوا أو يؤذوا أي أسير رغم كل الصور التي نشرت حول إعدام أسرى إسرائيليين في سورية، فهذه بنظره «تلفيقات إعلامية غير صحيحة»[29]. لقد كان الجندي السوري يلقي التحية العسكرية بحسب العرف السائد على الأسير الإسرائيلي قبل اقتياده للأسر، والجيش السوري جيش عقائدي ملتزم بالتقاليد العسكرية المتعارف عليها. وبما أن القضية قد وُضعت على طاولة النقاش، فقد حاول كيسنجر دفع سورية لإطلاق بعض الأسرى كإجراء لبناء الثقة، فالموضوع حساس جداً للإسرائيليين، وهم يلقون اللوم فيه على الأمريكيين، لأن الزعيم السوفييتي بريجينيف كان قد وعد كيسنجر بأن يطلق سراح كل الأسرى الإسرائيليين بعد ثلاثة أيام من بدء سريان وقف إطلاق النار في نهاية حرب تشرين.[30] كان كيسنجر على استعداد لأن يُطلع الأسد على تعهد مكتوب من بريجينيف بهذا الصدد، إلا أن الرئيس السوري لم

يتزحزح عن موقفه، ورفض حتى تسليم لائحة بأسماء الأسرى ولن يسمح للصليب الأحمر بزيارتهم قبل إتمام فصل القوات في مرتفعات الجولان. لم يصرّ كيسنجر على هذه النقطة كثيراً؛ إذ كان قد توصّل إلى النتيجة نفسها حتى قبل بدء اجتماعه بالأسد.

قناة اتصال مباشر

قرّر الفريق التفاوضي الأمريكي تغيير مسار طائرته عقب انتهاء اللقاء بين كيسنجر والأسد، والتوقف في تلّ أبيب قبيل العودة إلى واشنطن. وهناك نقل هنري كيسنجر إلى مجلس الوزراء الإسرائيلي موافقة الأسد المبدئية على انطلاق العملية التفاوضية على الجبهة السورية. ولكن ما جابهه كان تمنّع غولدا مائير التي، وإن وافقت من حيث المبدأ على ضرورة التوصل إلى اتفاق فصل قوات مع سورية، فقد رفضت القيام بأية خطوة قبل إطلاق سراح أسرى الحرب الإسرائيليين فيها. لم يستطع كيسنجر تفويت هذه الفرصة رغم كل العقبات؛ إذ كان عليه تخفيف الضغط عن مصر، التي يتعرض رئيسها لانتقادات كبيرة في العالم العربي نتيجة فصله مسارات التفاوض. ولذلك كان من الضروري جداً إنجاز خطوة على الجبهة السورية، وأبرق كيسنجر إلى الرئيس نيكسون أن هذا سيخفف من قدر «المتاعب» التي يمكن أن يثيرها السوفييت.[31]

كان من الضروري وجود تواصل آمن وغير منقطع بين دمشق وواشنطن، وحاول كيسنجر فتح قناة خاصة للتواصل المباشر مع الأسد. وسأل كيسنجر إن كان الرئيس السوري يودّ أن يرسل له رسائله الخاصة مباشرة دون المرور بوزارة الخارجية الأمريكية (ولا بالخارجية السورية)[32]. فسّر الأسد هذا الطلب بأنه محاولة لتجاوز وزير خارجيته عبد الحليم خدام الذي تداولت الدوائر العربية والغربية أخباراً عن تطرفه السياسي ونفوذه في القيادة السورية، ولكن أكد الأسد بحزم قائلاً: «ليس لوزير الخارجية رأي غير الرأي الذي أمليه أنا! أؤكد لك

ذلك». [33] ومع هذا، قبِل الرئيس السوري إيجاد هذا التواصل المباشر، ونشأت آلية تم خلالها تبادل الرسائل من خلال مكاتب رعاية المصالح في عاصمتي البلدين. ونقل توماس سكوتس، الدبلوماسي الأساسي في مكتب رعاية المصالح الأمريكية في دمشق، رسائل كيسنجر الخطية والشفهية إلى الأسد، وهي التي لم يحفظها الأمريكيون في أرشيفهم (أو على الأقل لم يعرضوها)، على حين وثّقها الجانب السوري بدقة. وخلال العامين التاليين، أرسل كيسنجر دورياً رسائل مفصّلة إلى الأسد سواء بطريق سكوتس، أو بواسطة السفير الأمريكي ريتشارد مورفي بعد عودة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين. وكان يرسل أحياناً رسالة مشابهة إلى وزارة الخارجية السورية عبر الأقنية الرسمية ولكن دون الخوض في تفاصيل مماثلة. وكان المبعوث الأمريكي في دمشق يسلّم الرسائل شخصياً إلى المكتب الخاص في الرئاسة السورية، ومن هناك ينقل أسعد كامل إلياس، السكرتير الصحفي للرئيس الأسد ومترجمه، محتوى الرسائل إلى الرئيس.

تم أول تواصل من هذا النوع في الثلاثين من كانون الثاني عام 1974، حين نقل سكوتس تقريراً عن نتائج مباحثات كيسنجر مع الإسرائيليين. أُخبرت سورية مجدداً أن المفاوضات غير ممكنة قبل أن تقدم لائحة بأسماء الأسرى الإسرائيليين لديها وتسمح للصليب الأحمر الدولي بزيارتهم. [34] وبعد أقل من أسبوع، أي في 5 شباط، أرسل كيسنجر مقترحاً من خمس نقاط للحل إلى الأسد لكسر الجمود حول قضية أسرى الحرب[35]. أولاً، ينبغي على سورية تأمين لائحة بأسماء الأسرى يسلمها مكتب رعاية المصالح السوري في واشنطن إلى كيسنجر. وفي المقابل يطلب الوزير الأمريكي من الإسرائيليين تقديم عرض جادّ حول فصل القوات. وعندما يسمح الأسد للصليب الأحمر الدولي بزيارة أسرى الحرب الإسرائيليين ينقل كيسنجر هذا العرض الإسرائيلي إلى دمشق، كما سيحث إسرائيل على إرسال مسؤول رفيع إلى واشنطن يخوّل مناقشة

تعديلات إضافية على مقترح فصل القوات المبدئي. وأخيراً، عند اكتمال هذه الشروط، تبدأ العملية التفاوضية ضمن نطاق اللجنة العسكرية المصرية الإسرائيلية المنبثقة عن مؤتمر جنيف.

قَبِلَ الأسد مقترح النقاط الخمس، وبذلك وافق على بدء المفاوضات غير المباشرة مع إسرائيل. إلا أن كيسنجر سرعان ما أتبعَ مقترح النقاط الخمس بمطلب آخر[36]؛ إذ أراد أن ترفع الدول العربية الحظر النفطي قبل أن يبدأ بجهود الوساطة على الجبهة السورية.[37] وبعد مضي أربعة أشهر على حرب تشرين الأول، كانت الدول الصناعية الكبرى في الغرب لا تزال تعاني ارتفاع أسعار النفط وانخفاض حصص الإنتاج الناجم عن الحظر النفطي الذي فرضته الدول العربية عقب حرب تشرين الأول؛ الأمر الذي استنزف اقتصادات اليابان وأوروبا والولايات المتحدة. وأنتج الحظر النفطي تعقيدات خطيرة في علاقات الولايات المتحدة بحلفائها الغربيين، حيث تمردت دول غربية كثيرة، وخاصة فرنسا، على المقاربة الأمريكية للصراع العربي ـ الإسرائيلي، واتخذت موقفاً قريباً من المطالب العربية في محاولة منها لإيقاف مزيد من خفض الإنتاج. وكان من الضروري للأمريكيين تفادي ما وصفه كيسنجر «جبن وغباء» الأوروبيين بسبب فصم العلاقة بين النفط والصراع العربي ـ الإسرائيلي.[38] أما السادات فقد أعطى كيسنجر وعداً أحاديّ الجانب برفع الحظر النفطي عقب فصل القوات في سيناء. غير أن الضغوط المستمرة من السوريين أجبرت مصر والسعودية على إبقاء الحظر. كان الأسد قد خسر فعلاً الجبهة المصرية، وحاول جاهداً ألاّ يفرّط بسهولة بما تبقّى بيده من أوراق التفاوض، وأهمها الحظر النفطي وأسرى الحرب وحرب الاستنزاف المتواصلة ضد الاحتلال الإسرائيلي في الجولان.

أتى توقيت المطلب الأمريكي الجديد برفع الحظر النفطي ليتزامن مع لقاء قمة عربي في الجزائر، جمع الأسد والسادات وبو مدين وفيصل في 12 شباط 1974، لمناقشة هذه المسألة بعينها إضافة إلى آخر التطورات في الملف

السوري. وتزامنت المطالب الأمريكية أيضاً مع مؤتمر حول قطاع الطاقة نظّمه كيسنجر في واشنطن بهدف توحيد الدول الصناعية الغربية المستهلكة للنفط لمواجهة التحديات الجديدة في حقبة ما بعد حرب تشرين الأول.

اتفق القادة العرب على إبقاء الحظر النفطي بطلب من الأسد[39]، بَيْد أن كيسنجر كان مصمماً على ألاّ يسمح لسورية بانتزاع تنازلات من الولايات المتحدة وإسرائيل عن طريق سلاح النفط، وأصرّ أنّ على مصر والسعودية كبح جماح «أخيهم المتعنت» في دمشق. ولكن لم يستطع كيسنجر ونيكسون تنفيذ تهديدهما بوقف النشاط الدبلوماسي الأمريكي في الشرق الأوسط لأن من شأن ذلك تعزيز الارتباط بين قضايا النزاع والنفط في المنطقة عوضاً عن إضعافه[40].
هرع وزيرا خارجية مصر إسماعيل فهمي والسعودية عمر السقاف إلى واشنطن بعد يومين من قمة الجزائر واتفقا مع كيسنجر على رفع الحظر النفطي على نحو غير مشروط في الأول من آذار 1974 (ورفع الحظر نهائياً في 18 آذار 1974).
وفي المقابل، طلب العرب إلى كيسنجر «القيام بأقصى ما يمكن لإنجاز اتفاق فصل قوات على الجبهة السورية»[41]. وعليه، قرر الوزير الأمريكي العودة إلى المنطقة في نهاية شهر شباط لإطلاق عملية تفاوضية بين سورية وإسرائيل. وأخذ الأسد من جهته يستعد لمعركة دبلوماسية طويلة وشاقّة، بعد أن سُلِبتْ منه أهم ورقتي ضغط في جعبته، ألا وهما الجبهة المصرية والحظر النفطي.

مراجع الفصل الثالث

(1) William B. Quandt, *Decade of Decisions: American policy toward the Arab-Israeli conflict, 1967-1976* (Berkeley, 1977), p. 210.

(2) William B. Quandt, *Decade of Decisions: American policy toward the Arab-Israeli conflict, 1967-1976* (Berkeley, 1977), p. 214.

(3) Patrick Seale, *Assad of Syria: The Struggle for the Middle East* (London, 1988), p. 228.

(4) Patrick Seale, *Assad of Syria: The Struggle for the Middle East* (London, 1988), p. 237.

(5) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 846.

(6) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 848.

(7) Patrick Seale, *Assad of Syria: The Struggle for the Middle East* (London, 1988), p. 238.

(8) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 20 كانون الثاني 1974، ص1.

(9) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 20 كانون الثاني 1974، ص2.

(10) Robert G. Kaufman, *Henry M. Jackson: A life in politics* (Seattle, 2000), pp. 266-268.

(11) Robert G. Kaufman, *Henry M. Jackson: A life in politics* (Seattle, 2000), P. 248.

(12) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 20 كانون الثاني 1974، ص2.

(13) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ بيكر، 23 نيسان 1991.

(14) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 20 كانون الثاني 1974، ص4.

(15) المصدر نفسه.

(16) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 20 كانون الثاني 1974، ص5.

(17) المصدر نفسه.

(18) المصدر نفسه.

(19) المصدر نفسه.

(20) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 20 كانون الثاني 1974، ص6.

(21) المصدر نفسه.

(22) المصدر نفسه.

(23) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 20 كانون الثاني 1974، ص10.

(24) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 20 كانون الثاني 1974، ص13.
(25) المصدر نفسه.
(26) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 20 كانون الثاني 1974، ص7.
(27) المصدر نفسه.
(28) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 832.
(29) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 20 كانون الثاني 1974، ص8.
(30) المصدر نفسه.
(31) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 19, pp. 105-106.
(32) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 20 كانون الثاني 1974، ص9.
(33) المصدر نفسه.
(34) الأرشيف الرئاسي السوري، برقية من كيسنجر إلى الأسد، 30 كانون الثاني 1974.
(35) الأرشيف الرئاسي السوري، برقية من كيسنجر إلى الأسد، 5 شباط 1974.
(36) الأرشيف الرئاسي السوري، برقية من الأسد إلى كيسنجر، 9 شباط 1974.
(37) الأرشيف الرئاسي السوري، برقية من كيسنجر إلى الأسد، 11 شباط 1974.
(38) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 23, p. 113.
(39) Patrick Seale, *Assad of Syria: The Struggle for the Middle East* (London, 1988), p. 241
(40) William B. Quandt, *Decade of Decisions: American policy toward the Arab-Israeli conflict, 1967-1976* (Berkeley, 1977), p. 231.
(41) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 951.

الفصل الرابع

الجولة المكوكية الأولى

في السادس والعشرين من شهر شباط عام 1974، بدأ هنري كيسنجر رحلته «الاستكشافية» التي طال انتظارها إلى الشرق الأوسط. وتعدّ هذه الرحلة الخطوة الرسمية الأولى نحو فصل القوات السوري ـ الإسرائيلي. تنقّل كيسنجر في أقلّ من أسبوع بين دمشق وتل أبيب والقاهرة، عاقداً سلسلة من الاجتماعات المتتالية مع كل من حافظ الأسد وأنور السادات وغولدا مائير. وكان أحد الأهداف الأساسية وراء تلك الرحلة هو حلّ قضية أسرى الحرب الإسرائيليين؛ إذ تعرّضت رئيسة وزراء إسرائيل، غولدا مائير، التي أُلقي عليها الكثير من اللوم بسبب الهجوم العربي المفاجئ، إلى ضغوط هائلة من أجل استعادة العشرات من الجنود الإسرائيليين المعتقلين في سورية. بدا موقف مائير السياسي أكثر ضعفاً ممّا كان عليه حين عقد كيسنجر لقاءه الأول بالأسد في شهر كانون الثاني؛ إذ أودت بها نتائج الانتخابات العامة الإسرائيلية إلى أن تترأس حكومة ائتلافية مزعزعة مع الحزب القومي الديني، وهو مجموعة متعصّبة ترفض أيّ شكل من أشكال التسوية الإقليمية مع العرب. وعلى صعيد استراتيجي أكبر، اعتقد كيسنجر أنه من الضروري إحراز بعض التقدم على الجبهة السورية ـ الإسرائيلية؛ إذ قال لمجموعة من القادة اليهود ـ الأمريكيين قبل توجّهه إلى دمشق: «إذا

وافقت أكثر دولة عربية تطرُّفاً ومجاورة لإسرائيل على عقد اتفاق، أيّ اتفاق كان، فإنّ ذلك سيغيّر النمط الأخلاقي، ويفصل سورية عن العراق، ويسهّل الطريق أمام السادات للبدء بالخطوة التالية.»[1] وخلُصَ إلى أن ذلك سيتبعه تسوية إقليمية مصرية، تُخرج مصر من المعادلة الاستراتيجية في المنطقة، ومن ثمَّ تقضي على أخطر تهديد عسكري عربي لإسرائيل. لكنه كان يعلم أن المهمة في دمشق ستكون أصعب كثيراً مما هي في القاهرة حيث لم يسأم السادات إطلاقاً من تقديم التنازلات بُغية التوصل إلى اتفاق فقط. من ناحية أخرى لم يكترث الأسد لقضاء أسابيع من أجل المساومة على هدف معيّن، وكانت التسوية التي اقترحها كيسنجر أبعد ما يمكن عن فكره. كانت غاية الأسد المنشودة ـ على حسب ما قيلَ لزعماء يهود ـ هي «قتل إسرائيل.»[2]

استُقبل الوفد الأمريكي لدى وصوله إلى دمشق هذه المرة في قصر الضيافة، وهو بناء ذو طابقين، يقع في أعلى شارع أبي رمانة السكني الثريّ. وشأنه شأن قصر الروضة؛ إذ كان لا يشبه القصر إلا في التسمية، مع أنّ قصر الضيافة كان أكثر أناقةً وبساطةً واتساعاً، تزيّنه حديقة كبيرة تمتدّ من أبي رمانة إلى شارع بيروت مقابلةً أرض دمشق للمعارض الدولية. أعلن جمال عبد الناصر، قبل ستة عشر عاماً، تأسيس الجمهورية العربية المتحدة من المكان ذاته؛ حيث تكلّم من شرفة القصر أمام آلاف السوريين واللبنانيين والفلسطينيين الذين نصبوا الخيام مع عائلاتهم ليلتين كاملتين بانتظار عبد الناصر ليخاطب الشعب. وقف حافظ الأسد الشاب ضمن ذلك الحشد، يهتف بحماسة لعبد الناصر. كما ظهر أنور السادات شاباً في شرفة قصر الضيافة عام 1958 واقفاً في ظلّ ناصر. ليس في دمشق مكان أفضل من قصر الضيافة ليذكّر بأروع اللحظات التي شهدتها العلاقات السورية ـ المصرية. لقد بدا واضحاً أنّ الأسد أراد أن يلفت النظر إلى أمر مهم؛ إذ كان يعلم أن محادثاته مع كيسنجر سوف تدور، بالتأكيد، حول مستقبل العلاقات السورية ـ المصرية، التي أصابها ضررٌ بالغ عند الفصل بين

مسارات السلام. علم الأسد جيداً أنّ سورية لا تستطيع تحدّي إسرائيل من دون مصر، مردداً الحقيقة البديهية، التي صاغها كيسنجر بعد حرب تشرين الأول، والتي تقول: «لا يمكن إشعال حرب في الشرق الأوسط دون مصر، ولا يمكن تحقيق سلام دون سورية». لذلك، كان قصر الضيافة يرمز إلى مدى التشابك الذي وصلت إليه العلاقات بين دمشق والقاهرة منذ زمن ليس بالبعيد، وكيف يجب أن تستمرّ تلك العلاقات في مستقبل لا وجود فيه لأنور السادات وهنري كيسنجر.

استمرّ العشاء الرسمي مع أعضاء الحكومة السورية مدةً أطول من رغبة كيسنجر، لكن الأسد لم يتمكن من استقباله قبل أن يُنهي عشاءً رسمياً مع الرئيس الروماني نيكولاي تشاوشيسكو، أحد أصدقاء الأسد الشخصيين، وحليف سياسي لسورية، كان يزور دمشق في الوقت نفسه في شهر شباط. وبعد مرور عشرين سنة، أجّل الأسد اجتماعاً مع وارن كريستوفر، خليفة كيسنجر؛ إذ كان منشغلاً باستضافة رئيسة وزراء الباكستان، بنظير بوتو. بالطبع، أراد الأسد، في كلتا الحادثتين، تمرير رسالة مهمّة أخرى، وهي أنه لا يشبه أيّ زعيم عربي يعتذر من أيّ أحد ويترك كلّ شي في سبيل استقبال مسؤول أمريكي زائر، فالأسد لا يشعر بأيّ عجلة للجلوس مع الأمريكيين. وفي عام 1994، انتابت كريستوفر نوبة غضب عارمة، وهدّد بالمغادرة، على حين انتظر كيسنجر الرئيس السوري بهدوء في عام 1974.

لم يكن هنري كيسنجر متحمساً لإجراء أيّ محادثات دبلوماسية جادّة ليلاً، ربما لأنه أراد أن يكون بكامل يقظته عند مخاطبة محاوريه. أمّا الأسد فقد كان مدمناً للعمل، ومستعداً لخوض المحادثات متى دعت الحاجة، سواءً في السادسة صباحاً أو حتى بعد منتصف الليل. كان ينام سويعات قليلة، ويمكث أغلب وقته يقظاً متأهباً للعمل الذي كان هاجسه الأوحد، وكأنّ لا حياة أخرى لديه. أراد الأسد أن يعقد الاجتماع الأول في الليلة نفسها؛ الأمر الذي أزعج

كيسنجر. اجتمع الرجلان في قصر الروضة بعد منتصف الليل، وباشرا الحديث حول سياسات الشرق الأوسط. كانا يجلسان قبالة لوحة قماشية ضخمة تُجسّد معركة حطين، حيث هزم السلطان المسلم صلاح الدين الصليبيين، ومضى إلى فتح القدس. أحبّ الأسد تلك اللوحة التي رسمها سعيد تحسين بك، أحد روّاد الفنّ التشكيلي في دمشق في مطلع القرن العشرين. تُرى هل كان مكان الجلوس في ذلك الاتجاه مجرّد مصادفة، أم أنّ الأسد تعمّد إجلاس كيسنجر ثلاث ساعات ونصف الساعة ليحدّق في انتصارات صلاح الدين، أو في الرجل الذي وصفه جيمي كارتر لاحقاً أنه صلاح الدين المعاصر؟ لم يكن أمر اللوحة، وحادثة انتظار الرئيس تشاوشيسكو لإنهاء وجبته، وحتى الإقامة في قصر عبد الناصر في شارع أبي رمانة مجرّد مصادفات. لقد أراد الأسد أن يحيط أستاذ التاريخ، الذي تسلّم منصب وزير خارجية الولايات المتحدة، بالرموز التاريخية التي تثبت أنّ سورية لم تخجل يوماً من الصراع في سبيل تحرير كامل أراضيها المحتلة، وأنها ستبقى متحالفة مع سياسات عبد الناصر، لا السادات، مؤكداً كلّ المخاوف التي كانت تراود كيسنجر قبل الزيارة.

انطلاق مضطرب

بدأت المحادثات بدعوة مفاجئة ـ غير رسمية ـ من وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية إلى الأسد لزيارة البيت الأبيض، الذي قال ممازحاً إن ذلك من شأنه أن يُحسّن لغة الأسد الإنكليزية. وفي هذا المعرض، أقول إنني اكتشفت لاحقاً، لدى عملي مترجمةً خاصةً في التسعينيات مع الأسد، أنه كان يفهم الإنكليزية، لكنه كان يرفض التحدث بها ليؤكّد هويته العربية. غير أنه لم يتردّد يوماً في المساعدة على تصحيح أيّ كلمة أثناء قيام جمال هلال، مترجم الرئيس بل كلنتون، أو أثناء قيامي بالترجمة في أي لقاء. لم تكن لدى الأسد أيّة رغبة في زيارة الولايات المتحدة مادام موقف واشنطن من الصراع العربي ـ

الإسرائيلي منحازاً للإسرائيليين. لم يُجرِ أيّ رئيس سوري زيارة للولايات المتحدة الأمريكية منذ أن تأسست العلاقات الثنائية بين البلدين في أربعينيات القرن العشرين، ومن غير أدنى شكّ، لن يكون حافظ الأسد أول رئيس يزورها ما بقيت مرتفعات الجولان رازحة تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلي. لقد قدّم رؤساء أمريكا، ابتداءً بكارتر وانتهاءً بكلنتون، ومروراً بجورج بوش الأب، دعوات مشابهة للأسد الذي كان يرفض بأدب تلبيتها في المناسبات جميعها، تماماً مثلما فعل مع نيكسون وكيسنجر عام 1974.

كان هنري كيسنجر رجلاً متّقد الذهن يُتقِنُ اختيار التوقيت الأنسب للانسحاب من أي نقاش فور شعوره أنه لن يثمر شيئاً. شكر كيسنجر الرئيس السوري لأنه لم يعرقل مؤتمر جنيف، برغم قدرته على ذلك، واشتكى مجدداً من الضغوط اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية. وشدّد على ضرورة تجنّب أيّ مواجهة عن طريق الابتعاد عن ممارسة الضغط الشديد على الإسرائيليين، محذّراً أنّ هذا من شأنه أن يؤدي إلى الإطاحة به وبنيكسون.[3] وبرغم كلّ شيء بلغت فضيحة ووترغيت ذروتها وأصبحت تهدّد بإسقاط نيكسون. لا جديد حتى الآن، تمتم الأسد الذي سمع تلك النقاشات جميعها أكثر من مرة. ومؤكد أن كيسنجر لم يقطع المحيط الأطلسي لتكرار الحجج ذاتها التي سبق وطرحها في شهر كانون الأول الفائت.

عرض كيسنجر تصوّره للأيام القليلة القادمة آملاً أن يُنهي الجلسة بسرعة. وقال إنه يريد إعلان تسلّمه قائمة أسماء أسرى الحرب الإسرائيليين في دمشق أولاً. أمّا حقيقة الأمر فهي أنّه تسلّمها عن طريق مكتب المصالح السورية في واشنطن في العشرين من شهر شباط. لم يكن كيسنجر ليسافر إلى المنطقة لو لم يحمل تلك القائمة في جيبه، لكن الوقت أصبح مؤاتياً للاستفادة من هذا الامتياز لمصلحة سورية، وتغيير صورة الدولة «الراديكالية» في الولايات المتحدة الأمريكية والعالم أجمع.[4] وافق الأسد بحماسة. وتابع كيسنجر أنه سيأخذ بعد

ذلك القائمة ويسافر بها إلى تل أبيب، حيث سيطلب من الإسرائيليين تقديم اقتراح حول فصل القوات مع سورية، وقال متذمّراً: «أعلم أنني سأمضي ليلة طويلة في إسرائيل غداً».[5] وأضاف كيسنجر أنه إذا وافقت سورية على بدء زيارات الصليب الأحمر لأسرى الحرب الإسرائيليين يوم الخميس (في 28 من شهر شباط)، فسيعود حينها إلى دمشق يوم الجمعة (في الأول من شهر آذار) ومعه الخطة الإسرائيلية. ومع ذلك، حرص كيسنجر على ذكر شرط محدد وهو أن «الخطة الإسرائيلية الأولى لن تُعجب السوريين»، وبيّن أن ذلك لن يكون نهاية الطريق، لأنه لا يمكن لمثل تلك المفاوضات أن تنتهي في غضون أسبوع واحد.[6]

لم يكن الأسد مستعداً للضغط على كيسنجر المتعب، وبدلاً من مناقشة موضوع اليوم بدأ يتحدث مُحاضراً حول السياسات الداخلية السورية. وأوضح أنه ليس في سورية أيّ «أجنحة سياسية تُقيّد الرئيس»، خلافاً لما يعتقده السادات وزعماء عرب آخرون، وينقلونه إلى كيسنجر. وقال الأسد مؤكداً: «أنا أتمتّع بالثقة والشعبية في هذا البلد.»[7] لم يكن التطرف السياسي أو الاختلاف مع سياسة الأسد سبباً في إلهاب الجماهير السورية والقيادة البعثية، بل إنّ السبب هو الاقتراب من خطّ المواجهة، وقيام إسرائيل بقصف المدن خلال الحرب؛ الأمر الذي لم يحصل أبداً في القاهرة أو الإسكندرية. وإضافة إلى ذلك، فقد تعمّقت الروابط بين السوريين والفلسطينيين. وروى الأسد بحماسة كيف كانت فلسطين تعدّ في العقل السوري «جنوب سورية»، وكيف تمّ اقتراح دستور في مؤتمر شعبي عام 1920 من أجل «سورية موحّدة» مع ممثلين يحضرون من سورية وفلسطين ولبنان والأردن.[8] والأكثر أهمية في الأمر هو أنّ مخيمات اللاجئين الفلسطينيين المضطربة كانت متناثرة في أرجاء سورية، وعلى أطراف المدن السورية الرئيسية؛ الأمر الذي جعل الشعب العربي في سورية معنياً بالأمور السياسية على نحو كبير مقارنةً بأيّ من سكان الدول العربية الأخرى. ولكن هذه

الحال لم تستدعِ إشعال الحروب، بل على العكس؛ السوريون متحفظون تجاه الحروب، ويتطلعون إلى سلام عادل، ولذلك فهم يدعمون جهود الأسد الحالية.

لم تؤجل محاضرة الأسد الطويلة المأزق المحتوم؛ لقد أراد أن يباشر كيسنجر بتنفيذ معظم المفاوضات من أجل التوصل إلى اتفاق قبل قيام اللجنة العسكرية المصرية ـ الإسرائيلية في جنيف ـ بالاشتراك مع الضباط السوريين ـ بتسهيل التفاصيل التقنية. وحسب معلومات الأسد، كان كيسنجر قد أبرم اتفاقاً مع الإسرائيليين على مثل هذا المخطط، غير أنه لم يفعل في الواقع. أراد وزير خارجية الولايات المتحدة عقد جلسة نقاش تمهيدي سوري ـ إسرائيلي في جنيف، لكي يحصل على مقترحات ملموسة للعمل خلال عملية المفاوضات.[9] رفض الأسد رفضاً قاطعاً، وقال بحزم إن مجموعة العمل العسكرية لا يمكنها التوصل وحدها إلى نتيجة مثمرة، كما لن يقبل الجيش السوري بمثل هذا المخطط.[10] بدا واضحاً أن تلك كانت مسألة كبرياء وطني من وجهة نظر سورية؛ إذ إنّ جبهة الجولان تستحق بذل جهود لا تقلّ عن الجهود الدبلوماسية الدولية التي بُذلت خلال مفاوضات سيناء ـ لا سيما من ناحية مستوى التدخل الأمريكي. أراد الأسد تأكيد مكانته لاعباً مركزياً في المنطقة؛ إذ إن سورية لم تبقَ تابعاً للسياسة المصرية في العالم العربي، خصوصاً مع وجود السادات في موقع المسؤولية. طلب الأسد إلى كيسنجر الذهاب إلى القاهرة ومناقشة فصل القوات في مرتفعات الجولان مع المصريين، إن كان يعتقد أنّ سورية دولة تابعة لمصر.[11] أجاب كيسنجر المنهك محتجاً: «عليّ إدارة السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية، وليس بوسعي أن أمضي كلّ وقتي في الشرق الأوسط!».[12] وبرغم ذلك، اعترف كيسنجر لاحقاً أن الأسد نفسه اكتشف المشكلات المتعلقة بالمفاوضات على اتفاق فصل القوات في اللجنة العسكرية في جنيف قبل أن يتمكن هو من اكتشافها، إذ إنّ الجهود

التي بذلت لعقد اجتماع سوري ـ إسرائيلي مباشر كان بإمكانها تعطيل العملية[13]. وهكذا كان الخيار الوحيد أمام كيسنجر هو إدارة عملية المفاوضات السورية ـ الإسرائيلية بنفسه، مع أنّ تلك الفكرة كانت «تملؤه رعباً.»[14] ولكن لم يكن الأسد في تلك الليلة مستعداً بعد للتنازل، وأرجأ الرجلان الموضوع إلى الصباح.

العامل السوفييتي

أراد كيسنجر إرجاء المسائل الأخرى جميعها إلى صباح اليوم التالي، غير أنّ الأسد لم يشأ ذلك؛ فقد استخدم الزيارة المقبلة التي يقوم بها وزير الخارجية السوفييتي، آندريه غروميكو إلى دمشق لاستكشاف وضع العلاقات السوفييتية ـ الأمريكية، ومدى تأثيرها في عملية السلام في الشرق الأوسط. زار غروميكو واشنطن في مطلع شهر شباط الفائت لتوبيخ كل من نيكسون وكيسنجر على الأفعال الأمريكية أحادية الجانب في الشرق الأوسط.[15] لكن الحسابات السوفييتية فيما يتعلق بالدبلوماسية الأمريكية في المنطقة كانت معقدة أيضاً، بل ومتناقضة إلى حدّ ما. ولم يشأ الروس أن يتمّ استبعادهم من عملية السلام في الشرق الأوسط، وربما في المنطقة ذاتها، وهو الأمر الذي عملت من أجله إدارة نيكسون دون كلل أو ملل قبل حرب تشرين الأول. ومن جهة أخرى، لم تُرد موسكو أن تغامر في مواجهة أخرى في المنطقة ربما تؤذي حلفاءها، ولا أن تُخاطر في تعريض الانفراج للنُّكس. وخلُصَ كيسنجر إلى أنّه «ربما» ذلك هو السبب الذي دعا الاتحاد السوفييتي إلى دعم فصل القوات على الجبهة السورية لأنّ ذلك يبدد مغامرة الدخول في صراع فوري، على حين يترك تساؤلات تحتاج إلى إجابات حول قضايا أكبر، وبذلك تكون «مفتوحة للمناورة.»[16]

عشية رحلة كيسنجر المكوكية الاستكشافية، أعلن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية نيّة غروميكو القيام بجولة في المنطقة مع وزير خارجية

الولايات المتحدة في وقت واحد. لم يخبر السوفييتيون نظراءهم الأمريكيين بخطط غروميكو؛ الأمر الذي بدا محاولةً واضحة لإجهاض المقاربة الأمريكية أحادية الجانب للسلام في الشرق الأوسط. اشتكى كيسنجر إلى الأسد في دمشق من محاولة غروميكو إقحام نفسه في الدبلوماسية الأمريكية الشرق أوسطية. لكن الزعيم السوري تجنّب الوقوع في فخّ القوتين العظميين؛ إذ كان الاتحاد السوفييتي مزوّد الأسلحة الرئيسي لسورية، كما كان الارتباط الدبلوماسي بالولايات المتحدة الفرصة الأفضل للأسد لاستعادة الأراضي المفقودة. ولم يكن منه إلا أن أكّد أن سورية لم تعارض التعاون السوفييتي ـ الأمريكي، مع أنه ليست لديها «أي توصيات» لأيّ من القوتين العظميين حول كيفية إدارة سياستها في الشرق الأوسط.[17] وبرغم ذلك، «اقترح» الأسد على السوفييتيين أنه لا ضرورة لحضور غروميكو إلى دمشق أثناء وجود وزير خارجية الولايات المتحدة فيها.[18] قال كيسنجر بنبرة مبتهجة: «ياله من يوم رائع!»، وأضاف: «هذا هو الاختبار الأفضل لمهاراتك الدبلوماسية»[19]. وهنا أشارت حماسة كيسنجر العاطفية، التي لم تكن مقصودة في الغالب، إلى النيّات الحقيقية لأمريكا. لقد اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية، من خلال الانفراج، بـ «المساواة» السوفييتية، ولكن ذلك المبدأ لم ينطبق على الشرق الأوسط.[20] صرّح كيسنجر علناً، منذ عام 1969، أنه يريد «طرد» السوفييت من المنطقة،[21] وقد أنجز كلّ من السادات وإسرائيل دورهما المتعلق بهذه العملية، وربما حان دور الأسد ليطلق رصاصة الرحمة على الروس. إذا صدّق كيسنجر مثل ذلك الافتراض، فسيكون هذا قراءة خاطئة خطيرة لتفكير الأسد، الذي، خلافاً للسادات، لم يكن ليتخلى عن مبادئه الاستراتيجية مقابل ثمن بخس. ومن البديهي أنه لن يفعل ذلك من أجل بضعة كيلومترات من الأسلاك الشائكة أو من أجل زوجين من التلال.

أصرّ كيسنجر، الذي تخلّص من مواجهة مُحرجة مع نظيره السوفييتي، على أنه لم يَشأ التدخل في العلاقات السورية ـ السوفييتية، ووعد الأسد ألاّ ينقل

من المعلومات إلاّ ما يريد منه الرئيس السوري نقله إلى السوفييت.[22] ورأى كيسنجر أيضاً أن من الضروري التنسيق مع الأسد حول ما سينقله كلّ طرف من الأطراف إلى السوفييت، ووافق الأسد على ذلك.[23] غير أنّ هذا الوعد لم يدم طويلاً؛ ففي الاجتماع الذي عُقد بينهما في الـ 20 من كانون الثاني، تحدّث الأسد مُمازحاً، في حديث غير رسمي، عن توريد الأسلحة الأمريكية لكل من إسرائيل والعرب، بغية إلغاء ادّعاء كيسنجر الحاجة إلى منع تفوق الأسلحة السوفييتية على الأسلحة الأمريكية، وهي الحجة الأساسية التي تذرّع بها كل من نيكسون وكيسنجر من أجل نقل أطنان من الأسلحة جواً إلى إسرائيل خلال حرب تشرين الأول. وعندما زار كيسنجر موسكو في نيسان، نقل فحوى ذلك الحديث إلى بريجينيف والقيادة السوفييتية، وقام بتغيير تفصيل دقيق واحد؛ إذ جعل من المزحة الصغيرة التي أطلقها الأسد مطلباً سورياً لشراء أسلحة أمريكية بدلاً من الأسلحة الروسية، مدّعياً أنّه رفضَ مطلب الأسد حرصاً منه على الابتعاد عن «تأجيج سباق الأسلحة».[24] وعندما حطت طائرة حافظ الأسد في موسكو، بعد بضعة أيام، بغية شراء المزيد من الدبابات والمقاتلات الجوية من الاتحاد السوفييتي، وجد أنّ عليه تقديم الكثير من «التفسيرات»[25]

تراتيل جميلة

أعلنت الساعة في مكتب الأسد تمام الثالثة فجراً، غير أنّ الرئيس السوري لم يشأ بعدُ أن يترك كيسنجر لينصرف. غرق الرجلان ساعةً أخرى في ذكريات صراع «أيلول الأسود» في عام 1970 بين الفصائل الفلسطينية والمملكة الأردنية. قام الأسد، الذي كان في حينها وزير الدفاع في دمشق، بإرسال قواته جنوباً لمساعدة القوات الخاصة الفلسطينية في حربها ضدّ حُسين، ملك الأردن. كان الأسد حذراً من الفوضى التي خلّفتها المجموعات الفلسطينية في الأردن، ولم يكن ينوي الإطاحة بنظام الحكم في عمّان، بل كان هدفه منع وقوع مذبحة

جماعية للفلسطينيين على أيدي رجال الجيش الأردني. أثار التدخّل السوري ردّ فعل قوي من جانب إسرائيل وهنري كيسنجر، الذي كان وقتئذ مستشار الأمن القومي لنيكسون. ورأى الأمريكيون في التدخل العسكري السوري في الأردن محاولةً من دولة تابعة للاتحاد السوفييتي لإسقاط نظام مؤيد للغرب. وبناءً على طلبٍ من كيسنجر، وتلبيةً لدعوة ملحّة من حُسين، وضع نيكسون القوات الأمريكية المحمولة جواً على أهبة الاستعداد، وقام بنقل البوارج إلى الشواطئ السورية. ومن جهة أخرى كانت غولدا مائير تعدّ لإطلاق العنان للقوة الجوية الإسرائيلية ضدّ الأرتال السورية المتقدّمة نزولاً عند التماس الملك حسين. إلا أنّ السوريين انسحبوا بسرعة من الأردن قبل تنفيذ أيّ عمل عسكري إسرائيلي أو أمريكي. شكّلت تلك الحادثة بأكملها لحظةً حاسمةً للأسد الذي أوشك أن يصبح رجل سورية القوي. وإضافة إلى ذلك كلّه، كان لقاء الأسد بكيسنجر والإسرائيليين والفدائيين الفلسطينيين في عام 1970 منذراً مهماً بمأزق قد يحدث مستقبلاً في مرتفعات الجولان في عام 1973، وفي لبنان في عام 1975. تركت أحداث أيلول الأسود انطباعاً سيئاً عن مقدرات الجيش السوري لدى كل من الأمريكيين والإسرائيليين؛ الأمر الذي زاد من دهشتهم عندما نجحت القوات السورية في اختراق مرتفعات الجولان في الأيام الأولى من حرب تشرين الأول.

أخيراً، وبعد مرور أربع سنوات، تمكن الأسد، وهو يجلس في مكتبه في قصر الروضة، من شرح كيف أنّ سورية لم تنسحب من الأردن بسبب الخسائر البشرية أو بسبب التهديدات. اعتمدت خطة الأسد الأصلية على بقائه يومين إضافيين في الأردن، لكن القوات السورية مكثت أربعة أيام، وكان الهدف من العملية هو مساعدة الفلسطينيين على احتلال شمال الأردن، وتأمين ملجأ آمن لهم من الهجوم. وجزَم الأسد أنّ الجنود السوريين تلقّوا أوامر بعدم إطلاق النار على نظرائهم الأردنيين مالم تعِقْ قوى المقاومة الأردنية التقدّم السوري. وفي الواقع، تحدّى جيش الملك حسين السوريين، وضرب العديد من الدبابات،

غير أنّ الأسد امتنع عن إرسال قوّاته الجوية لضرب القوات الأردنية. وبعد سنوات، أخبر الأسد الصحفي البريطاني باتريك سيل أنه قرّر أن لا يرسل القوة الجوية للحَؤول دون المزيد من التصعيد وسفك الدم العربي.[26] ورغم ذلك، قال الأسد لكيسنجر إنّ سورية انسحبت طوعاً إلى حدودها بعد وقف الأعمال العدائية ووصول لجنة الوساطة العربية، ولكن ليس قبل تحقيق أهدافها الأساسية. احتلّت القوات السورية مدينة إربد الواقعة شمال الأردن وسلّمتها للفلسطينيين، محقّقة بذلك الملجأ الآمن الموعود، والذي تمّ تعزيزه بوحدة من القوات الخاصة السورية كانت ترتدي زيّ الفدائيين الفلسطينيين.[27]

أصغى كيسنجر باهتمام بالغ، ولم يعارض رواية الأسد، رغم الاختلاف الواضح في الآراء ـ وربما كان الإنهاك سبباً في ذلك. وخلافاً لما كان عليه كيسنجر في عام 1970، فقد امتنع عن التباهي بفوزه الساحق على «الوكيل السوفييتي». جرى هذا الحديث بالذات في الساعات المبكرة من صباحٍ دمشقي باردٍ، ومع ذلك فقد ساهم في توطيد علاقة شخصية بين الرجلين. وبعد سنوات، تذكّر كيسنجر الشعور الذي انتابه أثناء هذا الحديث القصير؛ إذ أحسَّ أنّه والأسد كانا أشبه بـ «محاربين قديمين قُدِّر لهما أن يقفا على جبهتين متعارضتين في معارك شبه منسية، لكنّ صراعهما أنشأ بينهما رباطاً أمتن من ذاك الذي ينشأ بين أولئك الذين لم يعرفوا إطلاقاً عواطف الصراع.»[28]

قبيل بزوغ الفجر، عاد الوفد الأمريكي إلى قصر الضيافة وتمّت استضافة كيسنجر في الجناح نفسه الذي أقام به عبد الناصر الذي توسّط في حلّ النزاع عام 1970 بين الملك حسين والفلسطينيين قبل ساعات من وفاته بنوبة قلبية مفاجئة. بقي كيسنجر مستيقظاً تلك الليلة، ولم يكن شبح ناصر هو السبب، بل كان نداء المؤذن الحادّ المنبعث من المسجد داعياً المسلمين إلى صلاة الفجر؛ إذ لم تمضِ ثلاثون دقيقة على نوم كيسنجر حتى رفع المؤذنون عبارة «الله أكبر» التي تصاعدت في سماء شوارع دمشق الفارغة، وأشعل الناس أضواء منازلهم،

وارتدوا ملابسهم وتوجّهوا إلى الصلاة. واستيقظت المدينة في غضون دقائق محطّمةً قدرة وزير الخارجية الأمريكي على النوم؛ الأمر الذي لم يتمكن كيسنجرمن التعامل معه. لقد كانت هذه الزيارة إلى سورية مضطربة منذ البداية؛ إذ اضطرّ كيسنجر ـ من بين الناس جميعاً ـ إلى انتظار نيكولاي تشاوشيسكو، ومن ثمّ الاستماع مجدداً إلى محاضرة عن التاريخ السوري من حافظ الأسد. بالطبع، لا بأس في كلّ ذلك لو كان الأسد متعاوناً، إلا أنّ الزعيم السوري رفض أن يتزحزح عن أيّ من نقاطه الأساسية، تاركاً كيسنجر ذا الـ 51 عاماً مستيقظاً طوال الليل بسبب المحادثات المطوّلة أولاً، والآن بسبب إمام المسجد المجاور. استدعى كيسنجر معاونيه بغضب وقال بعنف: «قولوا له أن يتوقّف فوراً.»[29] لا بدّ أنّ كيسنجر اعتقد أنّ هذا شكل من أشكال الحرب النفسية التي يمارسها السوريون عليه؛ فمن المؤكّد أنّها لم تكن المرة الأولى في حياته التي يسمع فيها نداءً للصلاة إذ إنه زار مدناً مثل الرياض والقاهرة، ولكنه كان متوتراً جداً هذه المرة.

في صباح اليوم التالي، وبعد أن استعاد كيسنجر هدوءه ـ وكياسته ـ سيطر على غضبه، وابتسم ابتسامةً عريضةً لدى مصافحته الأسد قائلاً: «لديكم ترانيم جميلة في دمشق، يا سيادة الرئيس، أتشوّق إلى سماعها مجدّداً!.»[30]

تفاؤل حذر

قبل مغادرة كيسنجر دمشق وتوجهه إلى تل أبيب، أوضح له الأسد أنّه إذا كان العرض الإسرائيلي هو التراجع إلى خطّ السادس من تشرين الأول فقط ـ خطّ ما قبل الحرب، فإنه سيرفضه على نحو قاطع، وأن على كيسنجر العودة إلى واشنطن دون أن يضيع المزيد من وقته في الشرق الأوسط. وأضاف الأسد أنّ القيادة السورية إذا قبلتْ التفاوض مع إسرائيل على أساس خطّ السادس من تشرين الأول، فلن يتفاجأ إذا أشعل شعب سورية وجيشها ثورةً في البلاد. وقال

الأسد إنه لو كان هو نفسه طالباً جامعياً أو ضابطاً في الجيش لَـ «قام بثورة ضدّ نظام كهذا!»[31] وأضاف أنه إذا وافقت القيادة السورية على خطّ ما قبل الحرب، فمعنى ذلك أنّ حرب تشرين الأول لم تكنْ سوى مؤامرة حيكت لصالح إسرائيل. لم يتخيّل الأسد أن يفاوض على أراضٍ خسرها في حرب كان من المفترض أن تتمّ فيها استعادة الأراضي المحتلة جميعها. حاول كيسنجر تهدئته طالباً منه الانتظار لرؤية ماذا يمكن أن ينتزعه الأمريكيون من إسرائيل، وأضاف أنّ على الأسد الانتظار لأنه إن أخفقت المحادثات فسينجم عن ذلك تجدد القتال. أجاب الأسد بعنف «فليكن ذلك إذاً. . إنّ الشعب السوري يفضّل خوض الحرب على تحقيق السلام على أساس خطّ السادس من تشرين الأول!» عرف الأسد أنّ إسرائيل تريد إحكام قبضتها على مرتفعات الجولان وضمّها في النهاية، في حين تخدع العالم بالتظاهر أنها تريد تحقيق السلام عن طريق الدخول في هذه المحادثات. لكن سورية لن تقبل بمثل ذلك المخطط. وطلب كيسنجر مرةً أخرى المزيد من الوقت لتطوير العملية، والسبب هو، كالعادة، النفوذ الذي يملكه اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة الأمريكية، قائلاً: «مع كلّ الاحترام لك سيدي، أنت لا تتحكم بمئة نائب في الكونغرس الأمريكي، وبالصحافة، وبالأجهزة الإعلامية، إلا أنّ إسرائيل تفعل!»[32]

وبعد أن هدأت الأعصاب، تقرّر أن يسافر كيسنجر إلى إسرائيل، وأن يعلن أسماء أسرى الحرب الإسرائيليين من تل أبيب في اليوم التالي (في 28 من شهر شباط)، على أن تسمح دمشق لِلَّجنة الدولية للصليب الأحمر بزيارة أسرى الحرب الإسرائيليين في السجون السورية. اقترح كيسنجر أيضاً السماح لوليام ج. سكوتس، كبير موظفي مكتب المصالح الأمريكية في دمشق، بمرافقة طاقم الصليب الأحمر. قاطعه الأسد بحزم قائلاً: «لا تقلق بشأن أسراهم؛ فهم يلقون معاملة جيدة، وبطريقة أفضل كثيراً من تلك التي يتمّ التعامل بها مع جنودنا في إسرائيل. لم يُقتلْ أيّ سجين إسرائيلي في الأسر، وأستطيع تأكيد ذلك لك،

وليست لدينا أيّ مصلحة في قتلهم.»[33] واصل كيسنجر حديثه متجاوزاً المطلب المرتجل، وبيّن أنه فور الانتهاء من الزيارات، يجب على الحكومة الإسرائيلية تسليمه مقترحاً حول فصل القوات في مرتفعات الجولان، على أن يكون هذا المقترح، الذي سيعود به إلى دمشق، مجرد مقترح استهلالي. أما الخطوة الثانية فهي أن ترسل كل من سورية وإسرائيل ضباطاً رفيعي المستوى إلى واشنطن ـ دون تزامن ـ من أجل تبادل الأفكار مع كيسنجر فيما يتعلق بفصل القوات على الجبهة السورية. لقد أسقط وزير الخارجية الأمريكي المقترح الذي قدّمه قبل بضع ساعات حول إجراء محادثات أولية بين سورية وإسرائيل في جنيف قبل الشروع في وساطته. وأخيراً، اتفق كلّ من كيسنجر والأسد على ألاّ يجري إعلام السوفييت عندما يتعلّق الأمر بتفاصيل هذه العملية، ولكن لا يمكن لأحد أن يجزم بمدى التزام أيّ منهما بهذا العهد.

رحّب الأسد بحذر بالخطة طالباً من كيسنجر أن يبذل قصارى جهده. كان يعلم أنه لا يمكن تحقيق اتفاق فصل القوات مع إسرائيل هذا الأسبوع، ولكن عليه أن ينتظر ويرى ماذا يُعدّ له الإسرائيليون قبل أن يقرّر خطوته التالية.

وبينما كان كيسنجر واقفاً عند باب مكتب الأسد، قال له مُمازحاً إنّه لمن الصعوبة بمكان إجراء محادثات مع حافظ الأسد وغولدا مائير في اليوم نفسه. وأضاف أنّ أيّ شخص يشرع في مثل تلك المهمة لا بدّ أن يفقد شيئاً من اتزانه العقلي. لم يبتعد كيسنجر عن الموضوع؛ فقد اتّسمت لقاءاته بالأسد بأنها استنزافية جداً، وحافلة بالصدامات السياسية، وغالباً ما تتجاوز الوقت المحدد بساعات. استمرّ الاجتماع، هذه المرة، مدّة طويلة لدرجةٍ لم يتمكّن كيسنجر فيها من القيام بالجولة المقرّرة في دمشق القديمة قبل أن يغادر إلى وجهته التالية. يدّعي كيسنجر في مذكراته أنه في ذلك اليوم، في 27 من شهر شباط عام 1974، اكتشفت قوات الأمن السورية ألغاماً زرعها «إرهابيون» فلسطينيون بقصد استهداف موكبه أثناء توجّهه إلى مسجد بني أميّة الكبير في دمشق القديمة.[34]

ونقلت وكالة أسوشيتد برس الإخبارية تلك الرواية بعد أسبوع واحد، ولكن تجدر الإشارة إلى أنّ محضر الاجتماع التالي بين الأسد وكيسنجر، الذي عُقد بعد يومين في 1 آذار، لا يأتي إطلاقاً على ذكر مثل تلك الحادثة. ولو أن قوات الأمن السورية كشفت مثل تلك المكيدة، لاستحقّ الموضوع مؤكداً حيّزاً كبيراً من النقاش، ولكنّ الأمر لم يكن كذلك.

إسرائيل لا تقدّم شيئاً

بحلول شهر شباط عام 1974، ترأست غولدا مائير حكومة ائتلافية ضعيفة بين حزبها (حزب العمل)، والحزب القومي الديني. وهدّد اليمينيون المتطرّفون بالخروج من الائتلاف إنْ قدّمت مائير أيّ تنازلات إضافية على الجبهة السورية بُعيد الانسحاب من الضفة الشرقية لقناة السويس. ولذلك أخبر وزير الدفاع الإسرائيلي، موشيه دايان، كيسنجر فور وصوله إلى تل أبيب أنّ الوضع ليس شبيهاً بما كان عليه في سيناء؛ إذ إنّ إسرائيل لم تكسب شيئاً من فصل القوات على الجبهة السورية، حيث مازالت تحتلّ جيباً من الأرض أمام خط السادس من تشرين الأول. اقترح كبار قادة إسرائيل خطةً لفصل القوات تقوم على السماح لإسرائيل بالحفاظ على كلّ مواقعها المنتشرة على خطّ ما قبل الحرب، إضافة إلى جزء من الجيب في حين يتحوّل الجزء المتبقي من الجيب المحتلّ إلى منطقة منزوعة السلاح.[35] كان ذلك عرضاً أخرق يهدّد بنسف عملية المفاوضات من بدايتها. كما لم يكن كيسنجر قادراً على الحصول على عرض أفضل من الإسرائيليين. لكنه أخبرهم أنهم إذا أرادوا التوصّل إلى اتفاق لفصل القوات مع السوريين، وجب عليهم إعادة مدينة القنيطرة والتراجع مسافة 2 إلى 4 كيلومترات خلف خط السادس من تشرين الأول، وإلا فإنّ الحرب مع سورية سوف تطول، لا سيّما وأنّ مزاج الأسد لم يكن ميالاً إلى وقف حرب الاستنزاف.

قرّر كيسنجر أن لا يخبر الأسد بما سمعه من الإسرائيليين، وبدلاً من ذلك

أبقى التفاصيل مبهمةً، في حين أصرّ على المضيّ قُدماً في الخطة الإجرائية لدعوة المسؤولين السوريين والإسرائيليين إلى واشنطن بغية تبادل الأفكار حول فصل القوات.[36] لكن، وقبل العودة إلى دمشق، قام كيسنجر بجسّ النبض في القاهرة طالباً العون والنصح من السادات؛ إذ طلب من الرئيس المصري التحدث إلى الأسد لإقناعه بالالتزام بعملية المفاوضات، بصرف النظر عمّا إذا تمّ التوصّل إلى عرضٍ واضح من إسرائيل أم لا. تصرّف السادات بسرعة؛ وأوفد إلى دمشق اللواء الجمسي من الجيش المصري، الذي تعامل على نطاق واسع مع الإسرائيليين خلال فصل القوات في سيناء، للقاء الرئيس الأسد قبل عودة كيسنجر في الأول من شهر آذار. وبرغم ذلك، كان السادات متيقناً أنه لا بدّ من إعطاء الأسد شيئاً ما خلف خطّ السادس من تشرين الأول حتى يوافق السوريون على أيّ اتفاق بشأن فصل القوات. يشير هذا إلى أنّ السادات لم يكنْ متعاطفاً بأيّ حال من الأحوال مع المعضلات التي يواجهها الأسد داخلياً وإقليمياً؛ وقد أراد تحقيق فكّ ارتباطٍ سوريّ أساساً لأنّ هذا من شأنه، في المقام الأوّل، أن يحول نهائياً دون «قدرة سورية على إلحاق أيّ أذى» بالعالم العربي، وأن يقضي أيضاً على خطر حربٍ يبدأ بها السوريون ويمكن أن تُجرّ مصر إليها.[37] ومن ناحية أخرى، أعطى السادات «ضماناً قطعياً» بأنه لن يخوض الحرب بعد مرحلة معينة إن فعلت سورية ذلك. نقل كيسنجر هذه الضمانات إلى إسرائيل، وقال لغولدا مائير متوسلاً: «أستحلفك بالله، يجب أن تبقى [هذه الضمانات] سراً تماماً.»[38]

العودة إلى دمشق

في الأول من شهر آذار عام 1974، عاد هنري كيسنجر إلى دمشق حسب وعده، ولم يكن في جعبته أيّ جديد لإخبار الأسد به؛ إذ إنّ غولدا مائير لم تُعطهِ شيئاً على الإطلاق. وقبل أن يكشف كيسنجر أنه عاد من دون إحراز أي

نتائج، سأل إن كان السوريون قد تلقّوا أيّ شيء من أنور السادات. أشار الأسد بإيماءةٍ من رأسه، وقال إنه استقبل توّاً اللواء الجمسي، الذي حمل رسالةً من الرئيس المصري تقول إنه لا يمكن ضمان سوى خط السادس من تشرين الأول في المفاوضات الجارية، وإنّ كيسنجر وعد بتطوير العملية إلى حدّ أبعد.[39] كان الأسد ساخطاً؛ فهذا هو ما توقّعه وما كان قد رفضه رفضاً باتاً. قال كيسنجر متشكياً إنه اجتمع مع مجلس الوزراء الإسرائيلي مرتين ستّ ساعات، وعشر ساعات، غير أنهم لم يتوصّلوا إلى أيّ اتفاق على التراجع إلى خطّ ما قبل الحرب. طلب كيسنجر المزيد من الوقت، مؤكداً للرئيس السوري أنه إذا تمكّن من الضغط على اليهود فقد يستطيع الحصول على شيء أفضل من الإسرائيليين.[40] وادّعى أنّ الضغوط باتت أشدّ في هذه المرحلة؛ إذ شرح كيف تحدّث وزير المالية الإسرائيلي معه جانباً أثناء اجتماعه بحكومة مائير، واشتكى إليه عن التأخير الحاصل في دفع القروض الأمريكية لإسرائيل.[41]

لم يكترث الأسد، وكان مزاجه كئيباً. أشار إلى أنّ الشعب السوري يشعر أنّه قد كسب المعركة، بغض النظر عن أيّ شيء، مضيفاً أنه لا يحمل أيّ ضغينة لأحد ولا حتى لمصر. لقد عرف الشعب السوري أنّ جيشه حارب بشرف، وأنّ القتال انتهى بسبب ظروف خارجية. أما الآن فقد أصبحت المعركة سياسية، وإذا تراجع الإسرائيليون إلى خطّ ما قبل الحرب فقط، فسيبدأ الشعب السوري بالتفكير في الحكمة من خوض الحرب بالدرجة الأولى؛ تلك الحرب التي خلّفت آلاف القتلى والجرحى من الشباب. كان الأسد قلقاً أيضاً بشأن الآلاف من السوريين المهجّرين الذين يريدون العودة إلى قراهم بأقصى سرعة ممكنة. وعموماً، ما لم يخرج فصل القوات بنتائج إيجابية للسوريين جميعاً، فإنّهم سيعجزون عن فهم «المعنى الحقيقي للسلام.»[42]

واعتماداً على تجربة كيسنجر في إسرائيل، تبيّن أنه لم يكن قادراً على إعطاء الأسد شيئاً ملموساً، بل كان جلّ وعده هو أن يبذل قصارى جهده في

الضغط على الإسرائيليين للتراجع إلى خلف خطّ ما قبل الحرب. تكمن المشكلة الأساسية في أنّ الإسرائيليين يعتقدون أنّ احتلال الجيب يمثّل إنجازاً عسكرياً مهماً، أفضل كثيراً مما كان عليه الأمر قبل حرب تشرين الأول.[43] لقد اعتقدوا أنّ أيّ تراجع من طرفهم هو خسارة، وإذا مارس كيسنجر ضغطاً كبيراً، فهذا من شأنه أن يحمل اللوبي الصهيوني على شنّ حملة إعلامية ضدّه، واتهامه بـأن العرب قد «استمالوه إلى صفّهم» وهم الذين حملوه على الضغط على إسرائيل للتراجع دون أيّ ضمانات.[44] ومن جهة أخرى، إذا وافق كيسنجر على تقديم الضمانات لمائير وحكومتها، فلن يقبلوا بشيء أقلّ من ضمان أمريكي بالتوقف عن ممارسة المزيد من الضغط من أجل الانسحابات الإسرائيلية سنتين على الأقل، إضافة إلى مئات ملايين الدولارات التي سيطلبونها كمساعدات عسكرية.[45] لكن كيسنجر لم يُصبْ باليأس؛ وكان من الصعوبة بمكان على الإسرائيليين استيعاب انسحابهم من سيناء؛ غير أنهم تمكنوا من تجاوز العائق النفسي بعد الانسحاب. وأدّى هذا إلى تحوّل كبير في الموقف الإسرائيلي تجاه مصر، وسهّل الأمر للولايات المتحدة للحديث عن «تسوية نهائية» بين مصر وإسرائيل.[46]

أما من وجهة النظر السورية، فلم تكنْ القضية محصورة في دفع الإسرائيليين أيّ مسافة وراء خطّ ما قبل الحرب. لقد رفض الأسد تراجعاً رمزياً، حتى وإن عنى ذلك عودة مدينة القنيطرة إلى الإدارة السورية. وبيّن أنه إذا بقيت التلال المطلّة على المدينة رازحة تحت سيطرة إسرائيل، فإنّ أهالي القنيطرة لن يتمكنوا من العودة الآمنة إلى منازلهم. وفضلاً عن ذلك، إنّ اتفاق فصل القوات لن يكون في مصلحة سورية إن لم يوفّر ضماناً بعودة أكبر عدد ممكن من المواطنين السوريين النازحين.[47] قاطعه كيسنجر قائلاً إنّ إسرائيل اتهمت السوريين بأنهم تصرّفوا بالطريقة ذاتها عندما سيطروا على التلال المطلة على المستوطنات الإسرائيلية في سهل الحولة. أجاب الأسد بغضب متهماً الدعاية

الإسرائيلية القوية بالترويج لمثل تلك الادعاءات؛ وأشار إلى أنّ القواعد السورية والإسرائيلية كانت في مواقع متقابلة في الجليل. ومع ذلك كان الاسرائيليون يمتلكون أراضي أعلى، وكانوا يستهدفون القرى السورية بالمدفعية والمقاتلات الجوية. وصل الرئيس السوري إلى نقطته الحاسمة. لقد شعر بالخطر لأنه وَثِقَ بمحاوِرِه الأمريكي ولأنه وافق على الشروع بالعملية قبل يومين، فقال: «ما كنت لأقول ما قلته لو خطر ببالي أن ذلك سيلحق الأذى بي. لقد تحدثت بصراحة ووافقت على إعطاء قائمة أسرى الحرب معتمداً على الثقة بيننا»[48] لم يبْقَ أمام كيسنجر شيء يفعله سوى أن يحزم أمتعته ويغادر قبل أن يحجم السوريون تماماً عن الاهتمام بعملية المفاوضات.

خاتمة

لقد أخفقت جولة هنري كيسنجر المكوكية الأولى إلى سورية إخفاقاً تاماً في إحراز أيّ تقدّم بخصوص اتفاق فصل القوات. وتمّ تقديم بيانات اسميّة بالأسرى الإسرائيليين، لكن أمر الإفراج عنهم لم يكن مضموناً. وخسر السادات كلّ تأثير له في حافظ الأسد الذي لم يستمع إلى الرئيس المصري أو إلى أيّ من مبعوثيه. أمّا كيسنجر فقد أقلقته النتائج الضئيلة جداً، وكان بوسعه إنقاذ شيء من سمعة مائير السياسية عن طريق تسليمها قائمة أسماء أسرى الحرب، وبذلك يترك للإسرائيليين حصة مهمة في عملية المفاوضات مع سورية. وحصل كيسنجر أيضاً على تأكيد حاسم من السادات بأنّ مصر لن تهبّ لنجدة سورية إذا اندلع الصراع مجدداً، ساحباً البساط من تحت قدمي الأسد. وعلى العموم، لقد نجح كيسنجر في جعل قضية فصل القوات على الجبهة السورية موضع النقاش، لكن رحلة طويلة كانت تنتظره هو والرئيس السوري قبل التوقيع على الاتفاق نهائياً.



لقاء الرئيس الأسد مع هنري كيسنجر في قصر الروضة، 1 آذار 1974.
توقف الرئيس عن التدخين عند توليه منصبه، لكنه كان دائماً يبقي علب من السجائر على الطاولة في حال كان أحد ضيوفه مدخناً.



لقاء بين الرئيس الأسد وهنري كيسنجر في دمشق، 26 شباط 1974.

مراجع الفصل الرابع

(1) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 23, p. 115.

(2) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 23, p. 116.

(3) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 26 شباط 1974، ص4.

(4) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 26 شباط 1974، ص5.

(5) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 26 شباط 1974، ص6.

(6) المصدر نفسه.

(7) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 26 شباط 1974، ص7.

(8) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 26 شباط 1974، ص8.

(9) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 26 شباط 1974، ص10.

(10) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 26 شباط 1974، ص11 .

(11) المصدر نفسه.

(12) المصدر نفسه.

(13) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p.956.

(14) المصدر نفسه.

(15) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p 940.

(16) المصدر نفسه.

(17) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 26 شباط 1974، ص19.

(18) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 26 شباط 1974، ص18.

(19) المصدر نفسه.

(20) Richard N. Lebow, *We all lost the Cold War* (New Jersey, 1994), p. 174.

(21) المصدر نفسه.

(22) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 26 شباط 1974، ص17.

(23) المصدر نفسه.

(24) William B. Quandt, *Decade of Decisions: American policy toward the Arab-Israeli conflict, 1967-1976* (Berkeley, 1977), p. 237.

(25) باتريك سيل، أسد سورية : الصراع من أجل الشرق الأوسط (لندن، 1988)، ص242.

(26) باتريك سيل، أسد سورية: الصراع من أجل الشرق الأوسط (لندن، 1988)، ص159.
(27) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 26 شباط 1974، ص25.
(28) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 957.
(29) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 957-958.
(30) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 شباط 1974، ص1 .
(31) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 شباط 1974، ص12 .
(32) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 شباط 1974، ص16.
(33) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 شباط 1974، ص18.
(34) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 958.
(35) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 965.
(36) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 966.
(37) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab - Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 28, p. 128.
(38) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab- Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 28, p. 131.
(39) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 1 آذار 1974، ص9 .
(40) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 1 آذار 1974، ص10.
(41) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 1 آذار 1974، ص11 .
(42) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 1 آذار 1974، ص14.
(43) المصدر نفسه.
(44) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 1 آذار 1974، ص15.
(45) المصدر نفسه.
(46) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 1 آذار 1974، ص16.
(47) المصدر نفسه.
(48) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 1 آذار 1974، ص18.

الفصل الخامس

بداية الرحلة الطويلة

في أواخر عام 1973، وبعد سبع سنوات لم يجلس فيها مسؤولون سوريون وأمريكيون إلى طاولة مفاوضات وجهاً لوجه حصل اللقاء الأول بينهم، ولكن ما إن مرت أربعة أشهر فقط على هذا اللقاء، حتى توجه العميد حكمت الشهابي قائد الاستخبارات العسكرية السورية القويّ إلى العاصمة الأمريكية. كان الشهابي ضابطاً بعثياً ذكياً من مدينة الباب الواقعة في ريف حلب، وعلى علاقة متينة بالرئيس حافظ الأسد الذي وثق به ثقة كاملة؛ إذ سبق لهما أن عملا معاً في حربي 1967 و1973. كان الشهابي صلباً وجديراً بالاعتماد عليه، ومع ذلك لم يكن الرئيس السوري يُحبّذ فكرة إرسال المسؤولين إلى واشنطن، وخصوصاً الضباط منهم. لقد حفظ الأسد تماماً تاريخ بلاده الحديث، ولم يكن يثق بالضباط الأقوياء حين يجلسون مع ممثلي القوى العظمى، فمعظمهم اعتاد وضع نفسه في خدمة واشنطن أو موسكو، بدءاً من حسني الزعيم عام 1949 وحتى صلاح جديد في الستينيات. ولم يَغِبْ أبداً تاريخ التجسس والانقلابات عن ذاكرة الأسد، ولذلك ظهر ذهاب الشهابي إلى واشطن دليلاً على المدى الذي بدا الأسد مستعداً للذهاب إليه في سبيل إنجاح المفاوضات مع كيسنجر. كُلّف العميد الشهابي مهمة متابعة المسار الإجرائي الذي اتفق عليه الأسد وكيسنجر في

دمشق، ومضت عشرون سنة أرسل الأسد بعدها الشهابي إلى الولايات المتحدة مجدداً لإجراء مباحثات مع الإسرائيليين في واشنطن خلال عهد الرئيس بيل كلينتون.

قبل أن تحط الطائرة التي تقل العميد الشهابي في واشنطن، بذل كيسنجر قصارى جهده لإبقاء مبادرته في قيد الحياة. وكانت أكثر الأخطار إلحاحاً هي تبادل النيران المستمر بين القوات السورية والإسرائيلية على طول خط الجبهة المضطربة. وفي الأسابيع التي تبعت رحلة كيسنجر المكوكية الأولى في أواخر شباط، وقبل بدء المفاوضات المطولة لتحقيق فصل القوات في شهر أيار من عام 1974، أرسل كيسنجر إلى الأسد خمساً وعشرين رسالة (وهذا يشكّل خُمس الرسائل المتبادلة بين الرجلين في المدّة بين عامي 1973 و1976). حثّ كيسنجر الرئيس السوري على تجنّب تصعيد الموقف في الجولان، حيث كانت القوات السورية تخوض حرب استنزاف مريرة ضد القوات الإسرائيلية المحتلة، وبالمقابل وعد كيسنجر بضبط تحركات الإسرائيليين العسكرية وتصريحاتهم الإعلامية.[1]

وتمثّل التهديد الثاني لمبادرة كيسنجر في الاستياء السوفييتي من المقاربة الأمريكية أحادية الجانب لعملية السلام في الشرق الأوسط. لقد ظهرت سورية ومنذ نهاية الخمسينيات جزءاً من دائرة النفوذ السوفييتي في الحرب الباردة، ولذا لم تُعجب الروسَ رؤيةُ حلفائهم يسيرون على السجاد الأحمر في البيت الأبيض. وبينما دأبَ وزير الخارجية السوفييتي أندريه غروميكو على محاولة فرض نفسه على المحادثات السورية الأمريكية في شباط، كان كل من الأسد وكيسنجر قد راوغ وتفادى طلباته؛ إذ شعر كيسنجر أن عليه منع الروس كلياً من التدخل في عملية السلام، وعلى الأقل قبل بدء جولته المكوكية المقبلة، لضمان نجاح المحادثات. وتوجه كيسنجر إلى موسكو في شهر آذار من عام 1974، حيث أصدر بياناً مشتركاً مع غروميكو يؤكد فيه على الدور السوفييتي في مؤتمر جنيف

للسلام، بيدَ أنه حافظ على حرية الحركة الأمريكية لمتابعة المسار التفاوضي المتفق عليه في زيارته الأخيرة لدمشق.[2]

في 29 آذار من عام 1974، زار وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه دايان الولايات المتحدة قبل أيام قليلة من إعلان غولدا مائير تشكيلتها الحكومية الجديدة، ووصول العميد الشهابي إلى واشنطن. لم يعرض دايان على الأمريكيين أي جديد، ولكن شعر الإسرائيليون، كالسوفييت، بالخوف من رؤية ضابط سوري رفيع في زيارة للعاصمة الأمريكية. وعبّر دايان عن قبول تل أبيب بوجود منطقة عازلة بين القوتين المتحاربتين تديرها الأمم المتحدة، تليها مناطق تخفيف للقوات على جانبي خط الفصل.[3] وأبلغ كيسنجر الأسد أن هذا العرض، على الرغم من كونه خطوة جيدة إلى الأمام، يبقى ناقصاً حين يتعلّق الأمر بخطّ الفصل، ولذا طلب هو من المسؤولين الإسرائيليين إدخال تعديل على العرض المقدم.[4] وأصرّ كيسنجر على دايان أنه إن لم تُعَدْ «قطعة» من الجولان للسوريين إضافةً إلى مدينة القنيطرة، فلن تقبل دمشق بأي اتفاق لفصل القوات.[5] وأرسلت غولدا مائير في 9 نيسان من عام 1974، رسالة إلى كيسنجر مفادها أن ما سمعه من دايان لا يزال هو العرض الإسرائيلي القائم.[6] وفي صبيحة اليوم التالي استقالت مائير من منصبها وهي تحمل مسؤولية الأخطاء التي ارتكبتها الحكومة الإسرائيلية قبل حرب تشرين الأول، ولا سيما المفاجأة التي شكلها الهجوم العربي. أُنهكت إسرائيل مجدداً في معركة تشكيل حكومة جديدة، وهذا أمر سيستغله كيسنجر ورقةً تفاوضية في دمشق لتبرير التعنت الإسرائيلي. وعندما وصل العميد الشهابي إلى واشنطن بعد ثلاثة أيام من استقالة مائير، لم يكن هو أو كيسنجر يعرف هل سيجهض المفاوضات، فباشرا بالمحادثات وكأن شيئاً لم يحدث.[7]

وعد الأسد كيسنجر بأن يأتي الشهابي إلى واشنطن بمزاج راغب في التعاون.[8] وفي الواقع تصرّف الشهابي هكذا فعلاً، إذ بدا مبتسماً وهادئاً ومرناً.

وأعاد كيسنجر شرح العرض الذي قدمه دايان، مذكّراً الشهابي بالخلافات الحالية في إسرائيل، والضغوط التي يمارسها اللوبي اليهودي في واشنطن.[9] ثم قام الشهابي بشرح الموقف الرسمي السوري، مضيفاً أن بلاده مستعدة لقبول منطقة عازلة تديرها الأمم المتحدة على طرفي الخط الفاصل، ومناطق محدودة السلاح متساوية في المساحة على كلا طرفي خط الفصل، مع بقاء حدود التخفيف مفتوحة للتفاوض.[10] كان هذا الموقف هو الأقل تصادمية والذي يمكن أن يقدّمه الرئيس السوري للأمريكيين. وقد قدّر كيسنجر هذه الحقيقة، فأرسل رسالة للأسد، والشهابي في طريق عودته إلى دمشق، يقول فيها إن «مبادئ اتفاق محتمل قد بدأت بالتبلور».[11] وأخيراً اتفقت سورية وإسرائيل على فصل قواتهما، ولم يبق على كيسنجر سوى أن يحرك خط الفصل إلى ما وراء خط السادس من تشرين؛ الأمر الذي يزعج الإسرائيليين كثيراً. لم تكن هذه المهمة سهلة، إذ تنبأ كيسنجر متشائماً بأن التفاوض على خط الفصل سيكون «كالقول بأن سويسرا ستصبح بلداً مسطحاً لو أن أحدهم حرّك جبال الألب.»[12]

طريق المفاوضات الطويل

في مطلع شهر أيار من عام 1974 عاد كيسنجر إلى الشرق الأوسط حيث توقف في إسرائيل أولاً. وفي تل أبيب واجه تعنتاً إسرائيلياً؛ إذ رفض المفاوضون الإسرائيليون العودة إلى ما وراء خط السادس من تشرين. وقامت غولدا مائير ومعاونوها بتذكير كيسنجر بأن سورية في رأيهم هُزمت في الميدان، برغم التبجّح في دمشق والقاهرة، ولا تجوز مكافأتها بإعادة أكثر من الجيب الذي احتُل خلال حرب تشرين الأول 1973.[13] ولم يجادل كيسنجر في عدد الكيلومترات المربعة الواجب الانسحاب منها، بل ذكّر السياسيين الإسرائيليين بتداعيات إخفاق مهمته، بقوله: «أعتقد أنّ من الضروري فهم الأخطار التي ستنجم عن إخفاق المفاوضات، وخصوصاً ما سيحصل على الصعيدين

الدبلوماسي والعسكري، وما سيحصل في الولايات المتحدة.[14] ولم يُصغِ الإسرائيليون. ورفضوا إعادة أكثر من ثُلث القنيطرة إلى السوريين، مع علمهم أن الأسد سيرفض هذا العرض قطعاً. ويقول كيسنجر في مذكراته إنّ الإسرائيليين، ورغم ما أصابهم من إحباط، تجاوزوا عائقاً نفسياً بموافقتهم على التراجع إلى ما قبل خطّ السادس من تشرين الأول.[15]

في الثالث من أيار عام 1974، وصل وزير الخارجية الأمريكي كيسنجر إلى دمشق، وأوصلته سيارة ليموزين مصفّحة من مطار دمشق الدولي إلى قصر الروضة الرئاسي من طريق لا شكّ أنه حفظه. وقبل أن يجلس، وخلال مصافحته الأسد، قام متعمّداً بتخفيض سقف التوقعات قائلاً إنّ الوضع في إسرائيل «معقد جداً».[16] كما سارع بإلقاء اللوم على الرئيس السوري بقوله: «أنتم المسؤولون عن الخطأ . . أنتم البادئون»[17] وتابع كيسنجر شارحاً أنّ سورية أطلقت حرباً هزّت إسرائيل في الصميم، وهزّ الهجوم السوري المصري المفاجئ ثقة الإسرائيليين بقدراتهم العسكرية، كما صَعُبَ على المسؤولين الإسرائيليين هضم التقارب الدبلوماسي الأمريكي السريع مع مصر وسورية. فهم بحاجة إلى بعض الوقت كي يعتادوا العالم المتغير حولهم. وكانت غولدا مائير على وشك إنهاء حياتها السياسية بهزيمة يعود الفضل الأكبر فيها لحافظ الأسد، ولا يزال خليفتها المنتظر إسحق رابين أضعف من أن يتخذ قراراً حاسماً في عملية السلام. وأضاف كيسنجر أنّ على السوريين إذن انتظار تشكل حكومة جديدة في إسرائيل، حيث من المتوقع أن يأتي رابين بسياسيين شبّانٍ لا يشاطرون من سبقهم المخاوف الأمنية ذاتها. لقد ولد الفريق الجديد في الشرق الأوسط، وأعضاؤه أكثر استرخاء في التعامل مع محيطهم العربي من غولدا مائير وجيلها من اليهود الأوربيين. وأشار كيسنجر إلى أنه التقى ثلث أعضاء وزارة مائير، وهم أولئك الذين وصفهم بالجزء «الذكي»[18] من الوزارة، وسيتحدث إلى الباقين عند عودته إلى إسرائيل بعد يومين. ابتسم الأسد، وببديهته السريعة المشهورة

أجاب «هذا يعني أنّ ثلثي أعضاء الوزارة أغبياء! إذن لا عجب أن يكون الطريق إلى بلوغ السلام معهم صعباً جداً!»[19]

توقفت المحادثات الماراثونية مع انقطاع مفاجئ للتيار الكهربائي، مذكراً بالضرر الذي ألحقته الحرب بالبنية التحتية السورية. فأُضيئت أنوار أخف سطوعاً وعاودت المحادثات مجراها. طلب كيسنجر وقفاً لإطلاق النار خلال جولته في المنطقة، إلا أن الأسد لم يكن ليتخلى عن حرب الاستنزاف بهذه السهولة، لأن وقف إطلاق النار في نظره يجب أن «يدخل في صميم الاتفاق النهائي»،[20] فالسوريون لن يقبلوا أي وقف للقتال ما دامت أرضهم محتلة. ذكّر الأسد كيسنجر أن الشعب السوري لا يهوى الحروب، وتعهد ألاّ يصعّد العمل العسكري على الجبهة، رغم أنّ إسرائيل أقدمت في صباح اليوم نفسه على قصف قرىً سورية؛ مما أدى إلى استشهاد عشرات المدنيين من بينهم أطفال.[21]

انتقل الرجلان بعد ذلك إلى الحديث عن نتائج زيارة العميد الشهابي إلى الولايات المتحدة، واقتراح المنطقة العازلة بإدارة الأمم المتحدة. أصرّ الأسد على وجود مراقبين من الأمم المتحدة فقط، وليس «قوات حفظ سلام»؛ لأنّ هذه القوات لن تمنع اندلاع الحرب، حتى وإن بلغ عدد أفرادها سبعة آلاف أو ثمانية آلاف. ويضاف إلى ذلك أنّ الجولان السوري، وعلى نقيض شبه جزيرة سيناء، مكتظّ بالسكان الذين سيتضايقون من وجود أعداد كبيرة من الجنود الدوليين، وسينظرون إليهم على أنهم أحد أشكال الاحتلال الأجنبي. وبغض النظر عن التسميات ـ أكانت قوات مراقبة أم حفظ سلام ـ أكّد كيسنجر أنّ أيّ قوة دولية يجب أن تكون خالية من العناصر السوفييت، لأن إسرائيل لن تقبل بهم أبداً. واقترح تسليح أفراد هذه الوحدات الأممية بسلاح خفيف لحماية أنفسهم فحسب؛ الأمر الذي قبل به الأسد على مضض. فالرئيس السوري لم يرغب في مناقشة التفاصيل التقنية قبل التوصل إلى اتفاق شامل لفصل القوات، ويرى أنّ مناقشتها من اختصاص اللجنة العسكرية المنبثقة عن مؤتمر جنيف للسلام.

إنّ الشيء الوحيد الذي استطاع كيسنجر عرضه على سورية في تلك الخطة هو عودة المدنيين السوريين إلى القرى التي ستنسحب إسرائيل منها، بما في ذلك المنطقة العازلة؛ كما عرض مساعدة أمريكية لإعادة بناء ما دُمِّر من تلك القرى.[22] وفي المقابل، طلب كيسنجر من السوريين إطلاق سراح الأسرى الإسرائيليين الجرحى كبادرة حسن نية تجاه تل أبيب. عبس الأسد إذ لم يعجبه هذا الطلب، ولم يظهر كيسنجر مهتماً إلا بمصير أسرى الحرب الإسرائيليين، ولم يبالِ بسكان القرى السورية المهجّرين، ولا بعائلات ضحايا الحرب، ولا بأية مأساة حصلت على الجانب السوري. وكرّر الأسد موقفه الثابت، في أنه لن يُطلق سراح أي أسير إسرائيلي، ولن تعاد جثة أي جندي إسرائيلي إلا في إطار الاتفاق النهائي. وإن تم إطلاق سراح أي أسير قبل ذلك، فإن الشعب السوري سيرى ذلك تنازلاً مذلاً وليس بادرة حُسْن نية.

طلب كيسنجر من مساعديه قبيل مغادرة القصر الرئاسي عرض خريطة كان قد أحضرها من إسرائيل، وقال للأسد: «أخشى إن رأيتم ما عرضه الإسرائيليون، أن تقوموا الليلة بإطلاق ثمانية آلاف طلقة على مواقع إسرائيلية بدلاً من أربعة آلاف». وتوقفت الضحكات سريعاً حينما نظر الأسد إلى الخريطة ولم يرَ فعلياً أي اختلاف عما كان قد عرضه موشيه دايان من قبل. التفت الرئيس السوري إلى كيسنجر قائلاً: «من الآن فصاعداً، أنا لن أقبل بمتر واحد أقل من الخط الذي قمت بتحديده، ولا أوجه هذه الكلمات لك، بل هي رأيي بكلّ صراحة. لن أقبل بمتر واحد دون الخط الذي حددته، ولن نسمح للإسرائيليين بالاستمرار في الاستهانة بنا على هذا النحو، ويبدو أننا أخطأنا فهمهم مرة أخرى. الحقيقة هي أنهم قوة عدوانية توسعية في المنطقة وهذه طبيعتهم، ويرفضون تعلّم دروسٍ يستفيدون منها، وفي رأيي ليس هذا غريباً عليك

دكتور كيسنجر، وأنا أخبرتك بذلك في أول لقاء بيننا حين قلت لك إننا لن نتنازل عن حقّنا في بوصة واحدة من أرضنا ولو وجب علينا أن نخوض 200 حرب.»[23]

التفت الأسد فجأة إلى لوحة معلقة على الحائط تمثّل معركة حطين، ويظهر فيها جنود القائد العربي صلاح الدين وهم يقاتلون الصليبيين. في تلك المعركة التي دارت رحاها في شهر تموز من عام 1187، خرج العرب منتصرين إذ استعادوا القدس وغيرها من المدن التي احتلها الصليبيون، وقال الأسد:

«هذه معركة حطين التي انتصر فيها صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين واسترجع فيها القدس. إسرائيل لولا أمريكا، لما تجرأت على إرسال خريطة كهذه، وهذه الخريطة تقول إن عليكم التسليم بذلك! فعلاً نحن نخطئ إن اعتقدنا أن الإسرائيليين يرغبون العيش بسلام في المنطقة يوماً ما».[24] سارع وزير الخارجية الأمريكية للدفاع عن موقفه مؤكداً أن الولايات المتحدة، ورغم دعمها لإسرائيل، لا توافق على سياساتها التوسعية. وأجاب الأسد: «لكن كلمة «إسرائيل» في حدّ ذاتها تعني التوسع»، مذكراً كيسنجر أن طموحات القادة الإسرائيليين تتعدى فلسطين.[25] ولم تكنْ هناك فائدة من التعمق في القضايا الخلافية في بداية هذه الجولة المكوكية. وبعد ستّ ساعات ثقيلة أنهى كيسنجر بلطف أول لقاء من أصل أربعة عشر لقاء مع الأسد في شهر أيار المشؤوم ذاك.

عرض القنيطرة

توجه كيسنجر إلى القاهرة عقب مغادرته دمشق، وخلال محادثاته مع السادات، وصلت إلى وزير الخارجية الأمريكي رسالة من دمشق تعبّر عن

«رفض» سورية الموافقة على فكرة مناطق تخفيف السلاح.[26] طلب كيسنجر مساعدة السادات، لكن الرئيس المصري أجاب باستحالة فعل أي شيء إن لم تستعد سورية بعضاً من الأراضي الواقعة خلف خط السادس من تشرين. وسمع كيسنجر كلاماً مماثلاً من مسؤولي السعودية والجزائر.[27] وفي الأيام التي تلت، زار كيسنجر تل أبيب ثلاث مرات، وتوقف خلال جولاته هذه في كل من عمّان وقبرص (حيث التقى غروميكو).[28] وتمكن كيسنجر بعد محادثات مطوّلة مع رئيسة الوزراء المستقيلة غولدا مائير ورئيس الأركان الجديد موردخاي غور، من انتزاع عرض إسرائيلي جديد للأسد. ويقضي هذا العرض بانتقال الخط الدفاعي الإسرائيلي إلى غرب القنيطرة. وبينما يُعاد نصف المدينة إلى السيطرة السورية، يبقى النصف الثاني تحت إشراف مشترك بين إسرائيل والأمم المتحدة، كي يتمكن المستوطنون الإسرائيليون من الوصول إلى الأراضي الزراعية غرب المدينة. وقد أبدى الإسرائيليون حينذاك استعدادهم للانسحاب من بعض المواقع في جبل الشيخ، وفي قرية الرفيد جنوب القنيطرة، بالإضافة إلى ثلاث نقاط محصنة قرب خط السادس من تشرين. كما وافقوا على توسيع المنطقة العازلة حول بعض القرى كي يتمكن أكبر عدد من المدنيين السوريين من العودة.

عاد كيسنجر إلى دمشق وعَرْضُ القنيطرة في يده، في حين أبقى كلاً من العرضين الإسرائيليين عن جبل الشيخ والرفيد في حقيبته لاستخدامهما لاحقاً.[29] بدأ كيسنجر حديثه بتأكيد أهمية عودة القنيطرة إلى السيطرة السورية، ودفع الإسرائيليين باتجاه الانسحاب من أراضٍ جديدة لاحقاً. ولم يفعلوا هذا على الجبهة المصرية، إذ اكتفوا بانسحابهم من بعض الجيوب على الضفة الغربية للقناة خلف الجيش الثالث المحاصر. وشرح كيسنجر مدى تعنّت غولدا مائير والحرس الإسرائيلي القديم، وكيف أنهم لم ولن يفهموا الواقع الجديد أو يتخذوا خيارات صعبة. أضاف كيسنجر: «إننا (نيكسون وكيسنجر) نحاول أن

نغيّر التفكير السياسي على الجانب الإسرائيلي من التركيز على الحرب إلى التركيز على السلام، ونقله من تصور عسكري إلى تصور سياسي.»[30] ويشمل جزء من هذا التغيير، في رأي وزير الخارجية، سحب بعض الدعم الأعمى الذي تقدمه الولايات المتحدة لإسرائيل منذ عام 1948[31]، إنّ هذا الدعم غير المشروط لا يُبقي للإسرائيليين أي سبب للانسحاب من الأراضي المحتلة، وقد بدأ التوجه الجديد للسياسة الأمريكية، من وجهة نظر كيسنجر، بإعطاء النتائج المرجوّة، إضافة إلى أن «الشجاعة» السورية في حرب تشرين الأول أجبرت الإسرائيليين على قبول حقيقة أن إسرائيل لا يمكنها البقاء دون تحقيق السلام مع سورية.[32] إن هذه المقدمة الطويلة لوزير الخارجية، وحديثه المطول عما واجهه من صعوبات في إسرائيل سبق تقديمه العرض الذي جاء به من تل أبيب.

كان العميد الشهابي، الذي يتحدث الإنكليزية بطلاقة، حاضراً في غرفة الاجتماع؛ فاستدار كيسنجر نحوه قائلاً: «الجنرال الشهابي يعرف أمريكا جيداً، ويستطيع أن يؤكد لفخامتك ما قلته».[33] لم يُجب الشهابي، إذ لم يشأ أن يساعد الأمريكيين على إقناع قائده. قاطع الأسد الحديث قائلاً بهزء وصلابة: «معنى ذلك أن ليس هنالك ما يسُرّ!».[34] أخرج كيسنجر من حقيبته خريطة جديدة ووضعها على الطاولة أمام المفاوضين السوريين، وبدأ بشرح الخطوط الجديدة، مضيفاً: «سأحاول أخذ المزيد منهم. لقد وافقوا على التراجع إلى ما وراء الخط الذي كانوا عليه في السادس من تشرين، ووافقوا على إعادة منطقة القنيطرة كلها. وإنني بصدد طلب مزيد من التراجع أيضاً».[35]

رد الأسد بالنقاط التالية:

1. هم لم يتراجعوا خلف خط السادس من تشرين الأول.

2. لا توجد خطوط فصل متوازية، وسيؤدي المخطط الحالي إلى مزيد من تداخل القوات، لا إلى فصلها.

3. يحافظون على نقاط قاموا باحتلالها بعد وقف إطلاق النار في 22 تشرين الأول، ولم يكن لهم قبل ذلك التاريخ أي وجود على جبل الشيخ. إن المرصد الوحيد الذي كان بحوزتهم هو على خط السادس من تشرين، وقد استولت سورية عليه، واسترجعه الإسرائيليون بعد 22 تشرين الأول.

4. تكمن أهمية القنيطرة في عودة سكانها إليها، وإن لم يحصل ذلك فالأفضل من ناحية عسكرية ألا تستعيد سورية هذه المدينة.

5. أرى أن تراجعهم عديم القيمة والجدوى.

استدعت ما سميت بالتنازلات الإسرائيلية تدخلاً مباشراً من الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون، غير أن الأسد رفضها رفضاً قاطعاً. لم يكن كيسنجر مستعداً لقبول الرفض بعد، وشرح كيف أن الولايات المتحدة مهتمة جداً بعودة المدنيين إلى القنيطرة المدمّرة وإعادة إعمار المدينة، إضافة إلى جعلها محمية في المستقبل لدرء أي عدوان عسكري عن مدنييها.[36] لكن كيسنجر لم يستطع تغيير رأي الأسد. لقد جاء قراره نهائياً، وكان العرض مرفوضاً رفضاً قاطعاً. ولفت الأسد النظر بغضب إلى أن المدنيين لا يمكن أن يعودوا إلى القنيطرة ليصبحوا تحت رحمة الجيش الإسرائيلي المتمركز على قمم التلال المجاورة. وبعد حوالي أسبوعين من بداية المفاوضات، طفح كيل دمشق نتيجة النزعة التوسعية الإسرائيلية وتكتيكات كيسنجر التفاوضية.

لاحقاً وفي تلك الليلة، وعلى أحد مدارج مطار دمشق الدولي، همس العميد الشهابي في أذن كيسنجر محذراً أن استعادة القنيطرة دون رجوع أهلها هي بلا معنى للأسد، ولن تكون مقبولة إطلاقاً من الشعب السوري أيضاً.[37]

الخلاف حول التلال

زار كيسنجر قبل عودته إلى تلّ أبيب كلاً من القاهرة والرياض، حيث سمع الكلام نفسه: من دون إعادة التلال حول القنيطرة والانسحاب بمقدار مساحة معينة خلف خط السادس من تشرين، يستحيل عقد اتفاق مع حافظ الأسد. وفي العاشر من أيار عام 1974، وصل كيسنجر إلى تل أبيب ليكتشف أن الصحف الإسرائيلية نشرت تفاصيل التنازلات الإسرائيلية «السرية» في جبل الشيخ والرفيد. وبدا الأمر وكأن كيسنجر قد تآمر مع السادات وفيصل على «إقناع الأسد بصفقة رديئة».[38] وعلى ضوء هذا التطور قرر كيسنجر العودة إلى دمشق دون أدنى فكرة عن كيف سيظهر ردّ الأسد.

بدا الجو في دمشق مشحوناً للغاية، لكن هذا لم يمنع الأسد من الخوض في درس مطوّل حول تاريخ سورية الحديث أمام ضيفه الأمريكي. سأل كيسنجر الأسد إن سبق ووجد أي قائد سوري قال «نعم» خلال الألفي سنة الماضية من مجابهة القوى الأجنبية. أجاب الأسد بأن لا وجود لحالة عداء دائمة بين الدول، مشيراً إلى الستة والعشرين عاماً من الاحتلال الفرنسي لبلاده. لقد آذت فرنسا كثيراً من السوريين خلال سنوات الانتداب، حتى إنّ جنودها أطلقوا النار على والد الأسد، علي سليمان، أحد الوجهاء المحليين الذين عملوا مع الشيخ صالح العلي الذي قاد ثورة مسلحة ضد الاحتلال الفرنسي عام 1919.[39] ولكن عندما اتخذ رئيس فرنسا شارل ديغول ـ الذي رفض إنهاء نظام الانتداب حينما كان قائداً لقوات فرنسا الحرة ـ موقفاً معقولاً من القضية العربية، تمكن السوريون من تجاوز آلام الماضي. وأكد الأسد مراراً أن «الشعب السوري متعلق بأرضه، لكنه يرغب في الوقت نفسه أن يكون بلده عضواً مفيداً في الأسرة الدولية».[40]

استدعى الرئيس السوري إلى غرفة الاجتماعات كلاً من وزير الدفاع مصطفى طلاس، وقائد القوى الجوية ناجي جميل. وهنا مازح كيسنجر الحضور قائلاً بأنه لو علم الإسرائيليون باجتماعه بوزير الدفاع السوري لأحجموا عن

استقباله في تل أبيب. وطلب الوزير الأمريكي زيارة مرتفعات الجولان، ولم يتردد الأسد في الموافقة على ذلك، سامحاً له بأخذ صحفيّين معه إن أراد. أجاب كيسنجر فوراً: «إن أعطيتكم أسميْ صحفيَّيْن مُعيَّنَيْن، فهل تضمنون لي أن آخذهما إلى أقرب ما يمكن من خط النار؟».[41] وتابع الوزير التذمر من الصحافة عموماً، والصحف الإسرائيلية خصوصاً، التي أصبحت تطلق عليه لقب «محمد إيفانوفيتش كيسنجر».[42]

انتقل النقاش سريعاً إلى خريطة مصورة للقنيطرة، تمّ وضعها على طاولة المفاوضات، وأشار كيسنجر إلى أن الصور أُخذت من طائرة تجسس أمريكية، (غالباً الـ SR ـ 71). إنّ الأسد يتذكّر تلك الطائرات جيداً، فهي التي تجسست على القوات السورية التي دخلت الأردن عام 1970. وقام الجانب الأمريكي بشرح كيف تقلع هذه الطائرات من قواعدها في الولايات المتحدة لتنفيذ مهامها، وتكلّف الطلعة الواحدة منها نصف مليون دولار. أثارت التكاليف الباهظة استغراب السوريين، وعلّق الأسد بتهكم قائلاً: «أعطونا هذا المال ونحن نعطيكم المعلومات!»[43]

عادت الأجواء جادّة، ونظر الأسد إلى الخريطة الممتدة على الطاولة قائلاً: «هم (الإسرائيليون) باقون في المرصد على جبل الشيخ وهنا على التلال. هناك تعديلات على الخريطة السابقة، ولكن في الحقيقة لا وجود لأيّ تبديل ذي أهمية، لا يوجد شيء ذو قيمة، والمواطنون السوريون سيقولون فوراً لا يوجد شيء يستحق الذكر! أولاً، من سيعود إلى هذا الجيب هنا؟ لا أحد! ثانياً، هذه المساحات كلها هي لا شيء، فماذا نستفيد منها؟ لا شيء».[44] بدا من الواضح أن الإسرائيليين لن يتخلوا عن التلال غرب القنيطرة، مما دفع الأسد إلى تأكيد وجوب عودة التلال المحيطة بالقنيطرة إلى سورية وإلا «فالقنيطرة لا تساوي شيئاً».[45] وإذا كان هذا هو العرض الأفضل الذي يستطيع كيسنجر الحصول عليه، فما عاد الأسد يرى أيّ جدوى من متابعة المحادثات. رفض الرئيس

السوري المنطق الإسرائيلي الذي يعدّ التلال مهمةً للدفاع، لأنها كانت مفيدة للاستطلاع فحسب. وعندما تقدم الجيش السوري في حرب تشرين الأول، تم تحييد التلال بسرعة، ولم تحتج سورية إلى أكثر من مروحيتين وسبعة عشر جندياً للسيطرة على مرصد جبل الشيخ الذي كان يراه الإسرائيليون عصياً على الاختراق.

استفز كلام كيسنجر الرئيس السوري الذي قال: «إن كان الإسرائيليون يعتقدون أنهم يحرجوننا أمام أشقائنا العرب، فنحن سنقوم بإيصال هذه الخرائط إلى الملك فيصل والسادات، وسيتولى عسكريون سوريون شرح الموضوع؛ وأنا واثق أنهم سيرفضون هذه الخرائط مثلي تماماً».[46] ونظر الأسد إلى كل من طلاس وجميل، اللذَين سارعا بدورهما إلى توكيد كلامه بالإيماء.

أيقن الأسد أن الإسرائيليين غير معنيين بالتسوية، وليست لديهم أية نية لإعادة مرتفعات الجولان. والتفت إلى نائب كيسنجر جوزيف سيسكو وسأله: «هل رأيت التلال البارحة؟» (كان سيسكو قد قام بزيارة إلى الجولان في اليوم السابق) «يستطيع الإسرائيليون إطلاق الرصاص من هذه التلال على الناس بالمسدس وهم في شوارع القنيطرة. كيف يمكن أن نقبل بهذا؟»[47] ونظر الأسد إلى الخريطة مجدداً، متسائلاً إن كان هذا هو كل ما تستطيع الولايات المتحدة، مع كل قوتها ونفوذها، تحصيله من الإسرائيليين. حاول كيسنجر تهدئته، قائلاً إن مجرد اقتناع الإسرائيليين بفكرة الانسحاب هو إنجاز أمريكي مهمّ. وردّ الأسد بحدّة: «ولكن بهذا الوجه لا يكون الإسرائيليون قد انسحبوا من أية نقطة في الجولان!»[48] والتفت القائد السوري إلى ضباطه مجدداً وقال: «هذا هو ما أرسلوه إلينا، لا جديد!» ثم استدار نحو كيسنجر وقال بغضب: «لن نتابع النقاش أكثر من ذلك»[49]

لم يكن كيسنجر مستعداً للاستسلام قبل أن يحاول إيصال نقطة أخيرة. لذا قام بالرد على الأسد بهدوء مؤكداً أنه يستطيع تعليق المفاوضات، أو أن يقبل

الرئيس السوري العرض المطروح مبدئياً، ثم يستمر هو بطلب المزيد من التنازلات الإسرائيلية. إن وافق الأسد على الخيار الثاني، فسيشكّل هذا خرقاً هاماً في العلاقات السورية ـ الإسرائيلية، لأنه سيكون أول انسحاب إسرائيلي من أراضٍ عربيةٍ محتلة، وذلك بالطرق الدبلوماسية عوضاً عن الحرب. وأضاف كيسنجر أن اتفاقاً كهذا، أو أيّ خط فصل، لن يكون نهائياً، بل الخطوة الأولى فحسب. وبدأ يطرح ورقة جديدة بقوله:

> «على الرغم من المشكلات التي قد تسببها هذه التسوية لكم، فإنّ استمرار الخط الحالي سيؤدي إلى زيادة التوتر، وسينجم عنه تدخّل سوفييتي، وكما شرحتُ فخامةَ الرئيس، هذا يمكّن الصهيونيين من وضع ثقلهم في الدعاية بأن سورية والاتحاد السوفييتي عدوّان لأمريكا. وفي الحقيقة لا يوجد أي أمريكي مهتم بهذه الرقعة التي إسمها مرتفعات الجولان ما دامت مشكلة محلية، ولكن إذا أصبحت مرتفعات الجولان مشكلة سوفييتية-أمريكية، فإن كل الأمريكيين سيهتمون بها».[50]

وحذّر الوزير الأمريكي من أن الإخفاق في التوصل إلى اتفاق سيؤدي إلى زيادة في النشاط الاستيطاني الإسرائيلي في مرتفعات الجولان. ومع أنّ الأسد كان حريصاً على ألاّ يغلق الباب في وجه عملية السلام، فقد أراد عرضاً عادلاً ومستداماً يحترم المنطق وسلامة الأراضي السورية. لم يَيْئَس كيسنجر، وألقى بمزيد من المغريات على طاولة التفاوض. فإذا فشلت المفاوضات سوف يتسلّم المتشددون زمام الأمور في إسرائيل وسيقولون بأن الاعتدال والمفاوضات مع العرب لم تؤدِّ إلى نتيجة. ومن جهة أخرى، إنّ نجاح المفاوضات سيفضي إلى تحسّن كبير في العلاقات السورية ـ الأمريكية. لكن الأسد لم يقتنع إذ قال: «كلما أرسلوا خريطة جديدة، ازداد كرهي لهم؛ وإنّ الاستجابة لطلباتهم في مناطق تخفيف القوات تعدّ استسلاماً سورياً يجعل دمشق معرّضة للخطر.»[51]

وهكذا وصلت المحادثات مرة أخرى إلى طريق مسدود، وأيقن كيسنجر المعضلة التي كانت تواجهه؛ ففي نظر الإسرائيليين، أصبح أمنهم مرتبطاً بسلسلة التلال المجاورة للقنيطرة، غير أن إجراء تعديلات على خط الفصل ليس مستحيلاً. وفي الوقت ذاته بدت الاقتراحات الإسرائيلية لخطوط الفصل حول القنيطرة «إذلالاً للعرب، وليس إنجازاً لهم.»[52]

المفاوضات تتعثر

عندما التقى كيسنجر غولدا مائير في 13 أيار من عام 1974، ثارت رئيسة الوزراء المستقيلة قائلة: «لا يستحق الأسد أن يحصل على كل ما يريد!».[53] ولم تقبل مائير أكثر من إجراء تعديلات بسيطة على العرض الإسرائيلي لفصل القوات؛ إذ لم يوافق الإسرائيليون على سيطرةٍ سوريةٍ كاملة على القنيطرة، كما لم يقبلوا برفع الحصار الإسرائيلي المفروض على المدينة من ثلاث جهات، وذلك بحجة حماية المستوطنين الإسرائيليين العاملين في المزارع المحيطة. وقَبِلت إسرائيل إعادة قرية الحميدية للسوريين، إضافة إلى مرتفع صغير شمال القنيطرة على أن يوضع تحت سيطرة الأمم المتحدة، في حين رفضت التخلي عن التلال الثلاثة الكبيرة غرب المدينة.[54]

عاد كيسنجر إلى دمشق في 14 أيار ليقدم الخريطة الجديدة للأسد، مضيفاً إليها عرضاً أمريكياً بإعادة إعمار القنيطرة، وحتى بضمانة خطية من الرئيس نيكسون.[55] ولمّا كان الأسد قد شعر بأنّ محاوريه بدأوا يليّنون الموقف، لم يردّ على العرض الأمريكي، بل شرع بالسؤال عن مصير قريتي مَسْعدَة ومجدل شمس المأهولتين في الجولان المحتل. وأجاب كيسنجر بأن الإسرائيليين يرفضون التفاوض في أمر هاتين القريتين. وانتقل الأسد بعد ذلك للسؤال عن سبب تمسك الإسرائيليين بمرصد جبل الشيخ الذي كانت القوات السورية قد سيطرت عليه في الساعات الأولى للحرب. نقل الوزير الأمريكي الرد الإسرائيلي

حول هذه القضية بحرفيته؛ فهم ليسوا مستعدين لإعادة المرصد احتراماً للقرار 338، رغم أنهم سيطروا عليه بعد ساعات من سريان قرار وقف إطلاق النار في 22 تشرين الأول، لأن سورية ـ بحسب زعمهم ـ لم تقبل وقف إطلاق النار إلا بعد مضي 48 ساعة على صدوره. ورفض الأسد هذا العذر كلّياً؛ لأنّ الرسالة التي قبلت سورية بموجبها وقف إطلاق النار لم تحدد تاريخاً معيناً لبدء سريانه، ولم يتمّ إعلانها إلا في 24 تشرين الأول. أما فيما يتعلّق بالقرى الواقعة جنوب القنيطرة، والتي لا تجاورها أية مستوطنات إسرائيلية، فقد نقل كيسنجر رداً إسرائيلياً يرفض التخلي عنها أو تحريك الخطّ الدفاعي.[56]

وصلت المباحثات مجدداً إلى طريق مسدود، وبدا الغضب على محيّا الأسد، الذي بدأ يشرح لكيسنجر أنه، ومع هذه الشروط، لن يتمكن أهل القنيطرة من العودة إليها، لأنّ الإسرائيليين يطلبون من السوريين العودة إلى مدينة محرومة من وسيلة عيشها الأساسية، أي الأراضي الزراعية المجاورة. ولكي تكون القنيطرة مدينة قابلة للحياة، يجب أن تقع خلف خط فصل مستقيم، لا خلف خطٍ ملتوٍ يحوّلها إلى جيب محاصر من ثلاث جهات، ويحول سكانها الأربعين ألفاً إلى أسرى حرب قبل حصول أي اشتباك. إن العامل السكاني هو العامل الفارق بين الجبهتين السورية والمصرية؛ فسيناء شبه مأهولة بعدد قليل من السكان، أما في الجولان فكان على القيادة السورية التفكير في عشرات الآلاف من سكان عشرات القرى والبلدات. قاد هذا الأمر كيسنجر إلى التعليق قائلاً: «لحسن الطالع ليس هناك خمسون مليون سوري (عدد سكان مصر) يقودهم الرئيس حافظ الأسد!».[57]

في ظل التعقيدات الحاصلة، أبدى الرئيس السوري استعداده للتخلي عن المسار السياسي، مقترحاً انتقال المباحثات إلى اللجنة العسكرية المصرية-الإسرائيلية في جنيف. ومن وجهة نظره، لا يجوز لرجل الدولة إضاعة وقته في مناقشة الجغرافيا الضيقة من تلة إلى أخرى، ومن شجرة إلى ثانية.[58] وبدا

كيسنجر مضطرباً وهو يؤكّد أن هذا الخط هو كلّ ما يمكن الحصول عليه في تلك اللحظة.[59] وهنا تدخل نائبه جوزيف سيسكو مجدداً ليقول: «لو تساءل الناس عن ماذا تمّ إنجازه، فستردّ عليهم [يا فخامة الرئيس] بأنّ الإسرائيليين انسحبوا من هذا الجيب ومن مواقعهم على جبل الشيخ. ستقول إنهم انسحبوا إلى ما وراء خطّ السادس من تشرين، وهذا مهمّ جداً من حيث المبدأ، كما أعدنا المدنيين إلى قراهم، رغم أنهم لن يعودوا في أحسن الظروف.»[60] وأردف الوزير باقتراح أخير بأنه إذا قبل السوريون بخط الفصل المقترح، والذي يحرم القنيطرة من مزارعها، فإن الولايات المتحدة ستقوم بإنشاء مدينة صناعية تشغّل سكان المدينة.[61]

رفض الأسد كل المساومات، وقام بدوره بتقديم عرض سورية النهائي.[62] أولاً وقبل كل شيء لا يمكن أن تكون القنيطرة جيباً محاصراً، ولن تقبل سورية أن يتحوّل أربعون ألفاً من مواطنيها إلى رهائن بيد إسرائيل. ومن الواجب أن يمر خط الفصل عبر التلال غرب القنيطرة، حيث سيتمركز مراقبون دوليون على قممها، فسورية لا تريد هذه التلال ولكن ليس من المقبول أن تبقى تحت سيطرة إسرائيل. وينطبق الحل نفسه على التلال الواقعة جنوب القنيطرة، إضافة إلى وجوب إعادة مرصد جبل الشيخ إلى سورية لأنه احتُل بعد 22 تشرين الأول.

في تلك اللحظة بدت العملية التفاوضية وكأنها على وشك الانهيار برمتها، وانتهى اللقاء بين كيسنجر والأسد كما يلي:

> كيسنجر: «إن لم أستطع أن أصلَ إلى نتيجة ناجحة، كيف يمكن أن أستمر برحلتي هذه؟ هل نعلّق الجهود والمباحثات بضعة أسابيع بغية إعطاء فرصة للطرفين للنظر بتعمق في هذه النقاط؟»
>
> الأسد: «نعم.»



اللقاء الأول بين الرئيس الأسد وهنري كيسنجر ضمن مفاوضات فصل القوات، 3 أيار 1974 .

مراجع الفصل الخامس

(1) الأرشيف الرئاسي السوري، برقية من كيسنجر إلى الأسد، 21 آذار 1974.

(2) الأرشيف الرئاسي السوري، برقية من كيسنجر إلى الأسد، 23 آذار 1974.

(3) الأرشيف الرئاسي السوري، برقية من كيسنجر إلى الأسد، 31 آذار 1974.

(4) المصدر نفسه.

(5) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 32, p. 173.

(6) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1044.

(7) المصدر نفسه.

(8) المصدر نفسه.

(9) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 35, p.188.

(10) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 35, p.192.

(11) الأرشيف الرئاسي السوري، برقية من كيسنجر إلى الأسد، 14 نيسان 1974.

(12) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1045.

(13) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1054.

(14) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1056.

(15) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1057.

(16) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 3 أيار 1974، ص1.

(17) المصدر نفسه.

(18) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 3 أيار 1974، ص5.

(19) المصدر نفسه.

(20) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 3 أيار 1974، ص13.

(21) المصدر نفسه.

(22) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 3 أيار 1974، ص22.

(23) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 3 أيار 1974، ص23.

(24) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 3 أيار 1974، ص24.

(25) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 3 أيار 1974، ص25.

(26) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1060.

(27) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1061.

(28) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1064.

(29) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1066.

(30) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 8 أيار 1974، ص12.

(31) المصدر نفسه.

(32) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 8 أيار 1974، ص13.

(33) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 8 أيار 1974، ص15.

(34) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 8 أيار 1974، ص17.

(35) المصدر نفسه.

(36) المصدر نفسه.

(37) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1068.

(38) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1071.

(39) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 12 أيار 1974، ص18.

(40) المصدر نفسه.

(41) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 12 أيار 1974، ص37.

(42) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 12 أيار 1974، ص38.

(43) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 12 أيار 1974، ص40.

(44) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 12 أيار 1974، ص50 ـ 51.

(45) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 12 أيار 1974، ص53.

(46) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 12 أيار 1974، ص55.

(47) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 12 أيار 1974، ص57.

(48) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 12 أيار 1974، ص58.

(49) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 12 أيار 1974، ص60.

(50) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 12 أيار 1974، ص63.

(51) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 12 أيار 1974، ص82.

(52) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1074.

(53) المصدر نفسه.

(54) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Documents 55, 56, 57, pp. 276-278.

(55) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 14 أيار 1974، ص21.
(56) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 14 أيار 1974، ص29.
(57) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 14 أيار 1974، ص39.
(58) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 14 أيار 1974، ص44 ـ 45.
(59) المصدر نفسه.
(60) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 14 أيار 1974، ص52.
(61) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 14 أيار 1974، ص53.
(62) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 14 أيار 1974، ص77 ـ 78.

الفصل السادس

رسـم الخطوط

في الخامس عشر من شهر أيار عام 1974 هاجمت مجموعة من الفدائيين الفلسطينيين مدرسة في مستوطنة معالوت شمال فلسطين المحتلة، واحتجز أفرادها تسعين طفلاً وأربعة مدرسين رهائن. حصدت المجابهة أرواح 25 إسرائيلياً محدثةً صدمة في كيان العدو وفي العالم. وردّت إسرائيل بقصف أهداف في جنوب لبنان، وذهب ضحية هذا القصف عشرات المدنيين الفلسطينيين واللبنانيين. كان وقع الحدث على هنري كيسنجر مريعاً؛ إذ قد تقضي دوامة العنف الجديدة على جهوده الدبلوماسية في الشرق الأوسط. فإذا لم تتم تهدئة الموقف سريعاً، ستذهب عملية السلام في المنطقة أدراج الرياح، وستنهار المخططات الأمريكية التي بدأ تطبيقها بعد حرب تشرين الأول. شكّل الأسد طوق النجاة الأول لكيسنجر، حين أبرق كيسنجر للرئيس السوري طالباً إليه إبعاد نفسه عن الحادثة بأكملها[1]، قام أسعد إلياس، أحد مساعدي الرئيس الأسد بالردّ على الوزير الأمريكي بأن سورية لم تكن على علم مسبق بعملية معالوت، ولا ترى أي سبب قد يدفع إلى إلغاء محادثات فصل القوات؛ إلا أنه دان في الوقت نفسه الهجوم الإسرائيلي على جنوب لبنان.[2] وبهذا تم إنقاذ المبادرة مؤقتاً، لكنها بقيت تترنح؛ مما دفع كيسنجر إلى إعطاء المحادثات دفعة

إلى الأمام بتقديم عرض أخير حول خط الفصل، وبدأ بتسويقه على أنه «عرض أمريكي.»[3]

تضمن الاقتراح الجديد تحريك خط الفصل حول القنيطرة مسافة 200 متر إلى الغرب، مع تحويل المنطقة الممتدة بين الخط والتلال الغربية، والتي يبلغ طولها 1500 متر، إلى منطقة منزوعة السلاح. أما التلال فستبقى تحت السيطرة الإسرائيلية، مع تحديد دقيق للأسلحة الموجودة فيها بضمانة أمريكية ثنائية لسورية، وسيجري أيضاً تحريك الخط غرباً مسافة كيلو متر واحد فقط شمال مدينة القنيطرة وجنوبها كي لا تقع ضمن جيب. وحطّ كيسنجر رحاله في دمشق في السادس عشر من أيار لتقديم العرض الجديد للرئيس السوري.

خيّمت أحداث معالوت وجنوب لبنان على أجواء الاجتماع حيث جلس الأسد وكيسنجر للتباحث حول العرض الأمريكي. حاول كيسنجر أن يفصل بين نفسه ودولته وبين الانتقام الإسرائيلي العنيف بعد معالوت عن طريق تقديم عرض مطول آخر عن الوضع السياسي في إسرائيل، وأهمية فصل القوات كخطوة أولى نحو تسوية نهائية، والسياسة المحتملة للوزارة الإسرائيلية القادمة. أثار الرد الإسرائيلي عقب معالوت قلق الأسد؛ إذ رأى فيه أصدق تعبير عن العقلية الإسرائيلية. لقد أخذ الفلسطينيون الرهائن الإسرائيليين كي يجبروا مائير على إطلاق سراح عشرين من رفاقهم المحتجزين في السجون الإسرائيلية، وكان بالإمكان حل القضية بالمفاوضات دون سفك الدماء. وأكد الأسد أن استمرار إسرائيل بسياسة الرد الجنوني ضد الفلسطينيين واللبنانيين سيؤدي إلى تفاقم «الثورة الفلسطينية» التي هي اليوم في عامها التاسع.[4] ولكن الإسرائيليين أخبروا كيسنجر رواية مختلفة حين زعموا أن الفلسطينيين رفضوا وساطة دبلوماسي فرنسي. وجاء ردّ الأسد نافياً صحة هذا الادعاء ومذكراً كيسنجر بأن السفير الفرنسي ذاته في تل أبيب نسب إلى الإسرائيليين تهمة إجهاض وساطته وليس

العكس. وفي الواقع طلب الفلسطينيون المغادرة على متن طائرة للصليب الأحمر إلى دمشق، ووافق الأسد على استقبالهم حقناً للدماء، إلا أن هذا الأمر لم يتم.[5] شرح كيسنجر كيف أن الفلسطينيين (بحسب الادعاء الإسرائيلي) انتظروا «كلمة سر» من السفير الفرنسي أو السفير الروماني في دمشق لبدء التفاوض، غير أنّ الكلمة لم تأتِ. امتعض الأسد من هذا الادعاء قائلاً: «أنا لم أسمع بكلمة السر هذه إلا من الإعلام بعد أن اقتحم الإسرائيليون المبنى!»[6]

خط الفصل

لم يَطُلْ كلام الأسد وكيسنجر عن تفاصيل معالوت، إذ لم يُرِدْ كلا الرجلين أن تؤثر هذه الحادثة في مسار مفاوضات فصل القوات. أخرج كيسنجر من حقيبته مجموعة من التعليمات كان قد تلقاها من نيكسون، راجياً الأسد أن لا يخبر أحداً بأنه شاهدها، قائلاً له: «إنني أخرق عدداً كبيراً من قواعد الأمن القومي من خلال إطلاعك على هذه الأوراق.»[7] ابتسم الأسد وأصغى إلى ضيفه باهتمام وكان من ضمن ما قاله الرئيس الأمريكي لوزير خارجيته هو أن عليه طمأنة سورية بأن فصل القوات سيؤلف خطوة أولى باتجاه «سلام عادل ودائم.»[8] وبدت هذه العبارة بالغة الأهمية للرئيس السوري، فطلب إلى مترجمه أسعد إلياس تكرارها، «سلام عادل ودائم». لقد كان نيكسون يعيد الجملة التي أطلقها الأسد في اجتماعه الأول مع كيسنجر في شهر كانون الأول من عام 1973.

انتقل كيسنجر بعد ذلك لعرض مجموعة العوامل التي ربما تعوق التوصل إلى تسوية في المنطقة. وفي رأيه، إن السوفييت على استعداد لقبول نجاح مهمته أو فشلها، واستغلال ذلك. واتفق الأسد ووزير خارجيته معاً على هذ التقدير. أما فيما يخصّ الفلسطينيين، فمن الصعب على الولايات المتحدة أن تبدأ أي حوار جادّ معهم قبل إتمام اتفاق فصل القوات مع سورية. ومع هذا كانت إدارة نيكسون أول إدارة أمريكية تخوض في محادثات مع الفلسطينيين منذ عام 1948،

على الرغم من المخاطر السياسية الجمّة الناجمة عن ذلك. وطلب كيسنجر من الأسد مجدداً أن يسديه النصيحة حول أيٍّ من الفصائل الفلسطينية يجب على الولايات المتحدة أن تتحدث معها، فردّ الأسد: «يبدو أن المحادثات التي أجريتموها (مع عرفات) لم تأتِ بنتيجة.»[9] هز كيسنجر رأسه موافقاً، وحلّ العراق ثالثاً على لائحة كيسنجر، فقال: «نحن لا نفهم العراق جيداً، وربما لا يفهم العراقيون أنفسهم ولا يفهم بعضهم بعضاً.»[10] وعلى الرغم من الحرب الشعواء مع البعث العراقي، والعداء الذي يكنه رئيس العراق أحمد حسن البكر ونائبه صدام حسين للأسد، لم ينتقد الرئيس السوري إخوته العراقيين أمام الوزير الأمريكي، بل ردّ بهدوء: «هم (العراقيون) ضد محادثاتنا، ولديهم رأي مختلف.»[11] لقد رفض التلفّظ بأي كلام يسيء إلى الرئيس العراقي أحمد حسن البكر، أو إلى نائبه صدام حسين، مع أنّ الثاني لم يكن لديه شيء سوى الإساءة إلى الأسد. أما العامل الأخير، والأشد تعقيداً للمباحثات من وجهة نظر كيسنجر فهو الشعور العميق والمتبادل بفقدان الثقة بين كل الأطراف في المنطقة، لكن هذه العقبة يمكن تخطيها اعتماداً على تأكيد أهمية القيام بخطوة أولى تجاه السلام؛ والبديل الوحيد هو المواجهة.

اختتم الأسد العرض الذي قدمه كيسنجر بالموافقة على ما ورد فيه من تحليل،[12] لقد أراد أن يسمع ما أتى الوزير لقوله حول موضوع فصل القوات. ومضى كيسنجر يشرح تفاصيل العرض الأمريكي على الخريطة. فلاحظ الأسد على الفور أن خط الفصل ليس مستقيماً على النحو المطلوب، حتى في المناطق التي ليس فيها مستوطنات أو تحصينات إسرائيلية. ووجد أيضاً أن المواقع الإسرائيلية لم تتغير على جبل الشيخ، ورأى أن فكرة جعل المزارع الواقعة غرب القنيطرة منطقة منزوعة السلاح كي يستمر المستوطنون الإسرائيليون باستغلالها، هي فكرة لا منطقية وغير مقبولة. لم يصدّق الأسد أن الإسرائيليين ما زالوا مستمرين بالتشبث بأمتار قليلة قائلاً: «إذا كانوا يتصرفون هكذا في المرحلة

الأولى، فكيف سيتصرفون عندما سنحاول التوصل إلى السلام أو إلى حل القضية الفلسطينية؟ من المستحيل التعامل معهم!»[13] مضيفاً أنّ الشعب السوري وحكومته لا يقبلون هذا العرض، فلا يكفي اتخاذ «الخطوة الأولى» بغض النظر عن شكلها، بل يجب وجود ضمانة لما سيتبعها.

تم استدعاء كلٍ من وزير الدفاع مصطفى طلاس ورئيس الأركان يوسف شكور إلى غرفة الاجتماعات، كما تم استعراض الخرائط ونصوص قرارات مجلس الأمن ذات الصلة (242، 338، 339، 340). وتلا ذلك مباحثات مطولة ومتشعبة حول خطوط الفصل والنصوص القانونية والتفاصيل التاريخية، حتى طفح كيل كيسنجر فقال: «حسناً، في هذه الحالة نعلّق المفاوضات بضعة أسابيع حتى يتم تشكيل الحكومة الإسرائيلية الجديدة، وعندئذ يمكنك إرسال العميد الشهابي إلى واشنطن لمواصلة النقاش، قبل أن أعود مجدداً إلى المنطقة.»[14] غضب الأسد من هذا الطرح وكان ردّه: «ما الذي سيحققه الشهابي في واشنطن إن لم نتوصل نحن هنا إلى أي اتفاق؟»[15]

كان الأسد يعلم أن «العرض الأمريكي» منحاز للإسرائيليين لأنه نتاج مفاوضات كيسنجر معهم، بيد أنه كان متيقناً أيضاً أنه ليس من المستحيل على الإسرائيليين أن يتراجعوا مسافة معينة خلف خط السادس من تشرين، حيث يمكن لخط الفصل أن يتعرج حول مستوطناتهم. أما فيما يخص التلال غرب القنيطرة، فيمكن لخط الفصل أن يمر عبر قممها، حيث سيتخذ مراقبون من الأمم المتحدة مواقعهم على السفح الشرقي المواجه للقنيطرة، في حين تبقى القوات الإسرائيلية على السفح الغربي. وقد أراد الأسد تضمين هذه الاعتبارات في الخطة وتقديمها للإسرائيليين جزءاً من العرض الأمريكي.[16] صُعِق كيسنجر من هذا الاقتراح، وأعاد مجدداً التذمّر من صعوبة ممارسة الضغوط على إسرائيل بسبب قوة اللوبي اليهودي في واشنطن؛ مما دفع الأسد إلى القول متهكماً: «إذاً مائير تريد الأرض والسلام معاً؟»[17]

عادت مشكلة التلال غرب القنيطرة لتمثّل العائق الأساسي في وجه أي اتفاق، وكانت كلمات العميد الشهابي التي همسها قبل أيام في مطار دمشق لا تزال تدور في ذهن كيسنجر حينما حاول هذا تقديم عرض أخير حول التلال. يمكن للإسرائيليين في هذا العرض الانسحاب من السفوح الشرقية، ووضع قوات محدودة على القمم؛ على حين تضمن الولايات المتحدة منع شن أي اعتداء على القنيطرة وسكانها من أعالي التلال.[18] أما جبل الشيخ، فلا يمكن تحريك الإسرائيليين منه. ولم يفقد الأسد الأمل؛ إذ تبع هذا العرض جولة أخرى من المناقشات المضنية أوصلت الأسد إلى نقطة لم يرغب الوصول إليها، فقال لكيسنجر: «لست مرتاحاً لهذا النقاش، إنه يحوّلك إلى خصم، وأنت لست خصماً، أنت وسيط، وهذا ما يدفعني إلى الامتناع عن قول أشياء كثيرة.»[19] استسلم كيسنجر أخيراً، وهو يقول: «في السنة الماضية لم أكن أعلم أن هناك مدينة اسمها القنيطرة! لا أعلم ما الذي دفعني إلى الاعتقاد بإمكان وجود حلول بين السوريين والإسرائيليين، ولن يأتيني من هذا الأمر سوى تدمير سمعتي.»[20] وبعيداً عن الرغبة الصادقة، وعدَ كيسنجر الرئيس السوري بالعودة إلى تل أبيب لمناقشة موضوع التلال، ومن ثمّ إلى دمشق بجواب خلال 48 ساعة.

استمر الاجتماع بين كيسنجر والأسد مدة ثماني ساعات مرهقة، ولكن دوّى قرب انتهائه صوت طلقات نارية خرقت هدوء دمشق، وأصابت كيسنجر بالرعب. سارع الأسد لشرح ما حصل: «لدينا لجان شعبية تقوم بدوريات ليلية، وتطلق أحياناً رصاصات تحذيرية في الهواء، ولكن لا أحد يجرؤ على إطلاق النار باتجاه هذا المكان.»[21] ذكّر صوت إطلاق النار كيسنجر والأسد أن المنطقة العربية على فوهة بركان من التعقيدات السياسية. كان الوضع دقيقاً ومعقداً؛ إذ لم يفصل خط الفصل الرفيع بين القنيطرة ومزارعها الخصبة فقط، بل بين الحرب والسلم في الشرق الأوسط.

تغيير قواعد اللعبة

ومثلما توقع كيسنجر، رفض الإسرائيليون التخلي عن التلال، التي هي موضع الخلاف، لطرف ثالث. وبدلاً من ذلك تعهدوا بأن لا يضعوا أيّ أسلحة على القمم يمكنها إطلاق النار على القنيطرة مباشرة.[22] أيقن كيسنجر دون أدنى شك أن الأسد سيرفض هذا المقترح مما سيؤدي إلى توقف المفاوضات[23]، وعندما جلس مع الرئيس السوري في 18 أيار، افتتحا الحديث بمناقشة حرب فيتنام والمفاوضات التي أنهتها، علّ هذه الافتتاحية تتيح فرصة استلهام أفكار تساعد في الموضوعات العالقة. وعدَّ الأسد العرض الإسرائيلي الجديد سخيفاً ووقحاً؛ إذ لم يوافق الإسرائيليون على التخلي عن الأراضي الزراعية بين القنيطرة والتلال المجاورة، ثم إنهم رفضوا وضعها تحت سلطة الأمم المتحدة. واعتقد كيسنجر أن مهمته فشلت، غير أن الأسد اتخذ قراراً شجاعاً وحاسماً: «إذا كان موضوع التلال خطوة تساعد في قضية السلام، فيمكننا أن نتجاوزه، مع أننا لسنا متفائلين جداً بتصرفات إسرائيل على المدى البعيد.»[24]

ابتهج كيسنجر كثيراً بموقف الأسد، لا بل كانت دهشته بالغة فقال: «أؤكد لكم فخامة الرئيس أننا إذا نجحنا الآن في هذه المرحلة فلا بدّ أن تلتزم الولايات المتحدة بأن يكون هذا الإنجاز مجرّد خطوة أولى.»[25] وتابع الأسد حديثه: «طالما شعرنا أنّ الولايات المتحدة وأنك أنت دكتور كيسنجر تبذلون جهوداً جادة، ومع معرفتنا بأن هناك رغبات كثيرة في ألا تنجح هذه الجهود، فنحن نريد أن نكون أكثر إيجابية، ونريد أيضاً أن يعرفوا من هو الذي يقف عثرة في طريق السلام، وعلى هذا الأساس سنتجاوز موضوع التلال. إنّ هذا القرار الذي اتخذتُه سيفاجئ العديد من القادة السوريين، ولا أحد من زملائي يعرفه لأنني لم أقلْه بعدُ للآخرين. لكن المهم هو أن هناك ثقة تتحسن يوماً بعد يوم بين سورية والولايات المتحدة، وخاصة لوجود موقف أمريكي جديد. نحن نستطيع محاربة

إسرائيل عشر سنوات أخرى، ولكن لدينا رغبة في اقتناص فرصة إقامة سلام عادل. وطبعاً يجب أن نوضح جيداً أن السلام العادل لنا يعني انسحاباً إسرائيلياً كاملاً من الأرض التي تمّ احتلالها عام 1967، وكذلك استرداد حقوق الشعب الفلسطيني.»[26]

رد كيسنجر دون أن يتمكن من إخفاء سعادته: «سيادة الرئيس! اسمحوا لي أن أقول لكم إنني أجريت مفاوضات عديدة مع زعماء كثيرين في العالم، وما قلتموه فخامتكم الآن هو أكثر بيان حكمة وشجاعة سمعته منذ أن توليت هذا المنصب الذي أشغله. وأنا أدرك تماماً ماذا يعني هذا الأمر لرجل معروف بوطنيته. ونحن لن نعدّ هذا الإنجاز إلا خطوة أولى من بين عدة خطوات تجاه السلام في الشرق الأوسط؛ الأمر الذي نحن ملتزمون به.»[27]

أما فيما يخصّ الفصل، فقد سمح الأسد لكيسنجر بمتابعة التفاصيل المتبقية مع المفاوضين الإسرائيليين بعد أن جرى حلّ المعضلة الأساسية. وسأل الوزير الأمريكي إن كان بإمكانه العودة إلى واشنطن بعد رسم الخط النهائي مع الإسرائيليين، ثم الرجوع إلى الشرق الأوسط خلال أسبوع. ولم يرَ الأسد أن هذه الفكرة سديدة، وأنّ من الأفضل أن يستثمر كيسنجر الانفراج الذي حصل والبقاء في المنطقة حتى التوصل إلى اتفاق نهائي. ووافق كيسنجر الأسد، وأضاف: «أنت على حق، لئن ألغيت لقائي مع وزير خارجية اليابان فبوسعي استعادة تلك العلاقة لاحقاً، أما الفرصة التاريخية السانحة الآن هنا فلن تتكرر!»[28] وفعلاً، كان على كيسنجر إنهاء المفاوضات قبل موعد تشكيل الحكومة الجديدة في إسرائيل في 24 أيار. وعليه توجّه مباشرة إلى تل أبيب للقاء أعضاء الحكومة المغادرة ووضع خط الفصل النهائي قبل مناقشة مناطق تخفيف السلاح. وبعد مضي 21 يوماً على جولاته المكوكية، اقترب كيسنجر كثيراً من الاتفاق المرجو؛ مما دفعه إلى طلب أمر خاص من الرئيس السوري: «كل ما أطلبه إذا نجحنا هو أن أزور مدينة تدمر.»[29]

مزيدٌ من التعقيدات

في الصباح الذي تلا الانفراج الحاصل في دمشق، أبرق كيسنجر إلى نيكسون قائلاً: «لقد أصبحت الأرضية جاهزة لمجهود حاسم في الأيام القادمة، وقد يؤدي هذا إلى النجاح في التوصل إلى اتفاق فصل قوات سوري- إسرائيلي.»[30] القضية الأساسية الآن هي وضع تعريف للمنطقة منزوعة السلاح (المنطقة العازلة) ولمناطق تخفيف السلاح على جانبي الخط. وعند ذلك أصبح الخط الذي سينسحب إليه الإسرائيليون معروفاً بـ «الخط الأزرق»، على حين عرف الخط الذي وقف عنده السوريون بـ «الخط الأحمر»، وغدت المنطقة بينهما منطقة عازلة منزوعة السلاح. إلا أن مسألة المناطق المخفّضة السلاح ستُعرض في الأيام القادمة وسيتبيّن أنها أعقد من مسألة خط الفصل. ففي الـ 21 يوماً الأولى من الجولة المكوكية زار كيسنجر دمشق ست مرات للتفاوض على خط الفصل، أما في الأيام الثمانية الأخيرة من جولته فقد تنقل الوزير الأمريكي بين دمشق وتل أبيب يومياً عاقداً لقاءات في كلتا المدينتين. ويصف كيسنجر جولاته هذه في مذكراته فيكتب: «في الأيام الأخيرة، تم تطوير جدول منتظم. كنت ألتقي الفريق التفاوضي الإسرائيلي صباحاً في القدس، وفي ساعات بعد الظهر أصل إلى دمشق. وبعد لقاء الأسد ـ واللقاءات معه تستمر ساعات عادة ـ أعود إلى إسرائيل حيث ألتقي هناك الفريق التفاوضي مجدداً. بين (20 ـ 25) أيار، أمضيت عشرين ساعة في المحادثات مع الإسرائيليين، ونحو ثلاثين ساعة في المحادثات مع السوريين.»[31]

أراد الأسد أن يكون خط السادس من تشرين نفسه هو الخط الأحمر، أما الخط الأزرق فسيكون الخط الذي سينسحب إليه الإسرائيليون حول القنيطرة والرفيد، في حين تغدو المنطقة الواقعة بينهما منطقة عازلة. وعندما زار العميد الشهابي واشنطن اقترح إقامة منطقة عازلة بعرض 1,5 كم، مع خط فصل أعمق من خط الفصل الذي تم التوصل إليه بالمفاوضات. ولكن لمّا كانت الخطوط قد

تغيّرت؛ لم يبقَ هناك داعٍ لمنطقة عازلة شاسعة قد تتطلب انسحاباً للقوات السورية من بعض النقاط،[32] كما تعني المنطقة العازلة عند السوريين شمولها نزع سلاح الدبابات ومدافع الميدان وليس الجنود. وقَبِل الأسد أن تقع القنيطرة ضمن المنطقة العازلة، شريطة أن تنشر سورية هناك سريّة دبابات لرفع معنويات السكان. أبدى كيسنجر شكوكاً جادّة في إمكان قبول الإسرائيليين هذه الطلبات، بيد أنه وعد بنقلها إلى المفاوضين الإسرائيليين والعودة بجواب خلال 24 ساعة. مازح الأسد ضيفه الأمريكي في محاولة منه لتشجيعه قائلاً: «تعهد عبد الحليم (خدام) أن يقوم بالإضراب عن الطعام مثل غاندي إن لم يكن نص الاتفاق جيداً.» أجاب كيسنجر: «لا أعتقد أن السيد خدام قديس مثل غاندي. لهذا لا أحب غاندي فأنا لا أطيق القديسين.»[33]

في الاجتماع التالي، وحينما كان الطرفان يراجعان نص اتفاق فصل القوات، أثار مصطلح «القوات شبه العسكرية» قضية الفدائيين الفلسطينيين. احتج الأسد بشدة: «نحن مسؤولون فقط عن الجيش السوري، ولا يمكن تضمين الفلسطينيين في الاتفاق. إذا هاجموا إسرائيل انطلاقاً من أراضٍ سورية فليوقفهم الإسرائيليون، ولكن هل تتوقع منا أن ندافع عن إسرائيل أو أن نقف في وجه الفلسطينيين؟ أرفض أن يكون الفلسطينيون في الاتفاق، كما أرفض الوقوف حارساً لإسرائيل!»[34] أصرّ الأسد على أنه لا وجود لحاكم عربي يمكنه منع الفدائيين من القيام بعمليات ضد إسرائيل، مضيفاً: «في لبنان، كلما ضربت الدولة الفدائيين، ازداد الدعم الشعبي لهم.»[35] وذكّر الأسد كيسنجر أن سورية على مرمى حجر من فلسطين، ويسكن فيها أكثر من مليون لاجئ فلسطيني. لا يستطيع الأسد أن يلتزم بما التزم به السادات؛ فصحراء سيناء تمثّل حاجزاً عمقه 300 كم بين فلسطين ومصر، ثم إنه لا يوجد عدد كبير من الفلسطينيين في مصر.

وإضافة إلى ما سبق، أراد الأسد بإصرار أن يتضمّن أي اتفاق بنداً خاصاً

حول الأسرى الفلسطينيين والعرب في السجون الإسرائيلية؛ إذ إنه أراد تحرير كل من قاتل على الجبهة السورية في تشرين الأول، إضافة إلى من تطوّع مع الفدائيين بعد عام 1967، في عملية تبادل الأسرى التي ستأتي بعد الاتفاق. كما طالب بإطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين من عرب 48 القابعين في السجون الإسرائيلية. وقد وعد كيسنجر أن ينقل هذه المطالب إلى الإسرائيليين، وطلب مقابل مساعدة الأسد على إطلاق سراح طيارين إسرائيليين محتجزين في لبنان، ووعده الرئيس السوري بالمحاولة.

مناطق تخفيف السلاح

رفض الإسرائيليون التعديلات التي أرادها الأسد على خط الفصل، ولهذا قام كيسنجر ـ وعلى ضوء هذا الرفض ـ بنقل النقاش إلى تفاصيل المناطق المخفّضة السلاح، في محاولة منه لتفادي إخفاق المفاوضات. اقترحت إسرائيل منطقة تخفيف بعمق 25 كم على جانبي المنطقة العازلة (الخطوط الحمراء والزرقاء)، على حين يجري تموضع وحدات الدفاع الجوي والمدفعية بعيدة المدى وراء منطقة التخفيف (أي خلف دمشق في بعض المواضع). كان وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه دايان ـ والذي كان قد وضع هذا الخط ـ قد أبلغ كيسنجر في الأسابيع التي سبقت المفاوضات أن صواريخ الدفاع الجوي السورية (سوفييتية الصنع) قد تفوقت على العتاد الأمريكي، وغدت تمثّل تهديداً حقيقياً للتفوق الجوي الإسرائيلي.[36] ورأى كيسنجر ذاته أن فكرة 25 كم غير مقبولة، فقرّر اقتراح أن يكون عمق منطقة التخفيف 10كم على كلّ جانب، وفيها 3000 جندي و50 دبابة و36 قطعة مدفعية قصيرة المدى. أما الأسد فلم يرَ حاجة إلى هذه المسافات الشاسعة نظراً لضيق مساحة الجولان، فاقترح منطقة تخفيف بعمق 5كم على جانبي الخط، تضم 9000 جندي، و100 دبابة و56 قطعة مدفعية متوسطة المدى. أما ما يخصّ صواريخ الدفاع الجوي، فقد اقترح السوريون أن

تتموضع بحيث يصل مداها الأقصى إلى حافة الخط الأزرق فقط (أي الجانب الإسرائيلي من المنطقة العازلة). وعلّق كيسنجر مازحاً: «إسرائيل تحب أن ترى الـ 2000 دبابة التي تملكها سورية متمركزة في حلب.»[37] ولكن حينما وجّه الأسد للوزير سؤالاً جادّاً عن السبب الذي يدفع إسرائيل إلى طلب التخفيف على مساحات واسعة، أجاب كيسنجر بأنهم يريدون تفادي «الحوادث» بواسطة دفع القوات السورية ما أمكن إلى الخلف.[38] لم ينطلِ هذا العذر الواهي على السوريين، فهم يعرفون السبب الحقيقي، ولكن ربما أراد الأسد اختبار مدى موضوعية كيسنجر.

يعلم الضباط السوريون وقائدهم العام أن إسرائيل تريد بالتأكيد دفع السوريين ما أمكن إلى الوراء كي يتاح لها الوقت الكافي لحشد الاحتياط في حال اندلاع حرب جديدة. فخلال حرب تشرين الأول، اخترقت القوات السورية الدفاعات الإسرائيلية وصولاً إلى عمق مرتفعات الجولان، قبل أن تستطيع إسرائيل حشد الاحتياط (العمود الفقري لجيشها)، محطمة بذلك العقيدة الأمنية الإسرائيلية. ولذا فإن محاولة دفع السوريين إلى الخلف، مع التمسك بجبل الشيخ، هو الضمانة الإسرائيلية الوحيدة ضد حصول هجوم سوري مباغت جديد، إضافة إلى إعطاء إسرائيل مدة تتراوح بين يوم كامل ويومين لحشد الاحتياط في حال اندلاع حرب جديدة مع سورية.

ألقت الخلافات العميقة حول المنطقة العازلة ومناطق تخفيف السلاح بظلالها على الاختراق الذي حصل في موضوع التلال؛ إذ لم يتم الاتفاق على عديد قوة الأمم المتحدة المقترحة، ومهامّها، ومسار الخط الأحمر (الجانب السوري من خط الفصل)، والمواقع على جبل الشيخ، وتفاصيل مناطق التخفيف. تذمّر كيسنجر كثيراً نتيجة بقائه بعيداً عن واشنطن مدّة طويلة، مستهلكاً جلّ وقته في الشرق الأوسط. وعلى نقيضه، أدرك الرئيس السوري المثل القائل «في العجلة الندامة»؛ إذ لم يكن يريد الموافقة على صفقة سيئة

بذريعة الحرص على وقت كيسنجر. وبغضّ النظر عن التقارب الشخصي بين الرجلين، قال الأسد للوزير الأمريكي بكل صراحة: «يجب أن تعود إلى بلدك إذا لم نتوصل إلى اتفاق بحلوليوم الخميس 23 أيار.»[39]

تعثُّر المفاوضات مجدداً

في الثاني والعشرين من شهر أيار عام 1974، وصل كيسنجر إلى دمشق قبيل عشاء رسمي بين الأسد ورئيس اليمن الجنوبي الذي سبق أن حاول التواصل مع كيسنجر بواسطة عضو الكونجرس (بول فيندلاي). تبجّح الوزير أمام الأسد بقوله: «إنه (فيندلاي) من أغبى أعضاء الكونجرس.» وهمس سيسكو إلى رئيسه قائلاً: «لقد كان هنا أيضاً.» نسي كيسنجر لحظة أن الأسد يتحدث الإنكليزية، ورد على سيسكو: «لا يزال غبياً.»[40] امتنع كل من أسعد إلياس مترجم الرئيس السوري، وعيسى الصباغ مترجم كيسنجر، عن ترجمة العبارة الأخيرة، إلا أن الأسد فاجأ ضيفه ومازحه بالإنكليزية: «لا ريب في أن الغبي يبقى غبياً.»[41] لم تدم الضحكات طويلاً، لأن كيسنجر أتى بأخبار سيئة من تل أبيب. لقد رفضت غولدا مائير ووزراؤها كل المقترحات السورية، وأصروا على وجود 3000 مراقب على الأقل من الأمم المتحدة، وعلى رفض التخلي عن أيّ موقع في جبل الشيخ إلا للأمم المتحدة. وقد تشبثوا بأن يكون عمق منطقة تخفيف السلاح 25 كم مع تقسيمها إلى مستويين: المستوى الأول بعمق 10 كم، ويحتوي على كتيبتي دبابات، وكتيبتي مشاة، و36 قطعة مدفعية. أما المستوى الثاني فسيكون بعمق 15 كم، ويحتوي على أربع كتائب مشاة (10000 جندي)، وأربع كتائب دبابات، و200 ناقلة جند مصفحة، و12 قطعة مدفعية فقط. وقد أصرّ الإسرائيليون على إبقاء صواريخ الدفاع الجوي السوري خلف منطقة تخفيف السلاح نهائياً.

أتبع كيسنجر الشروط الإسرائيلية بإنذار نهائي خاص به؛ فهو لن يبقى في

المنقطة بعد الخامس والعشرين من أيار على الرغم مما صرح به البيت الأبيض(*). لم يتزحزح الأسد عن موقفه، ورفض كل ما أتى به كيسنجر حينما أعلن: «يريدون أن تكون مستوطناتهم خارج مدى مدفعيتنا، لكننا نريد ضربها ليس لأنهم يعيشون فيها، بل لأنها أرضنا المحتلة... لن أقوم بتغيير تشكيلاتنا العسكرية كي يشعر الإسرائيليون بالراحة.»[42] ثم إنه رفض مناقشة أي شيء ما عدا المنطقة العازلة، والتصور السوري للخط الأحمر، ومنطقة تخفيف سلاح بعمق 10 كم فقط. وأضاف الأسد أنه إمّا أن يُخلي الطرفان جبل الشيخ بالكامل، أو تُعاد المواقع السورية التي كانت قبل الحرب إلى السيطرة العسكرية السورية.

حاول كيسنجر تفادي غضب الأسد بقراءة نص الرسالة التي يعتزم نيكسون إرسالها بعد إتمام اتفاق فصل القوات، ويضمن من خلالها استمرار العملية السلمية في المنطقة بعد مرحلة فصل القوات. ولكن نص الرسالة كان قد أدى إلى خلاف أكبر؛ فقد التقط الأسد خطأً فادحاً في الصياغة. لقد نصّت الرسالة على «انسحاب من أراضٍ احتُلت عام 1967» وليس «من كل الأراضي التي احتُلت عام 1967.»[43] استشعر الأسد تكرار مأساة القرار (242)، حين أدى التلاعب بالكلمات إلى غياب (الـ) التعريف عن كلمة «أراضي» في القرار الأممي الذي أنهى حرب الأيام الستة، والذي نص أيضاً على الانسحاب إلى «حدود آمنة»؛ وهما الأمران اللذان أعطيا إسرائيل غطاءً «قانونياً» للاستمرار في احتلال الأراضي العربية.

تفجّر الخلاف واستمرت النقاشات الحادة ساعات حول عملية السلام،

(*) في 18 أيار 1974، أعلن المكتب الصحفي في البيت الأبيض أن نيكسون طلب من كيسنجر البقاء في المنطقة طالما تطلب الأمر ذلك. إلا أن كيسنجر أراد التلويح بعودته إلى واشنطن للضغط على السوريين والإسرائيليين. في 21 أيار1974 أعاد مساعدو نيكسون تكرار تصريح 18 أيار، رغم أن كيسنجر كان قد أنذر السوريين والإسرائيليين أن المفاوضات يجب أن تنتهي بحلول 24 أيار من عام 1974.

أو، بالأحرى غياب هذه العملية منذ عام 1967، وخصوصاً بعد حرب تشرين الأول. حاول الأسد انتزاع التزام أمريكي من كيسنجر بأن السلام يعني عودة كل الأراضي المحتلة. ولكن كيسنجر تهرّب من الجواب وطرح كل ما لديه من «مغريات»، مشيراً إلى أن فصل القوات ليس سوى خطوة أولى، وأنّ النجاح فيه سيؤدي إلى تحسّن كبير في العلاقات السورية ـ الأمريكية، وسيعزز مصداقية كيسنجر ومكانته وخطه السياسي في الولايات المتحدة. بيد أن الأسد لم يقتنع ولم يهادن: «أنا سأقول لشعبي ما جرى تماماً، سأقول لقد اقترحوا علينا أن نعود بالمدافع مسافة 25كم، وسأقول للجماهير: أنا على يقين من أنني لو وافقت على ذلك لكنتم الآن تقومون بمظاهرات ضدي في الشوارع.»[44] لم يُفاجَأ كيسنجر بكلام الأسد، بل كان يتوقع مثل هذا الجواب بحرفتيه في برقية أرسلها كيسنجر إلى نيكسون قبل وصوله إلى دمشق في ذلك اليوم: «يصرّ الإسرائيليون على تحريك كل المدافع وصواريخ الدفاع الجوي إلى مسافة 25 كم لتصبح خارج مدى المواقع الإسرائيلية المتقدمة. يتطلب هذا الأمر إعادة انتشار ضخمة للقوات السورية، ولو قام الأسد بذلك، فإنه لن يصمد سياسياً. وفي تقديري إن الإسرائيليين يطلبون من السوريين حماية المستوطنات المقامة على هضبة الجولان والتي تخرق كل قرارات الأمم المتحدة، والتي لم تعترف الولايات المتحدة بشرعيّتها يوماً، ولن يقبل أي رئيس سوري بهذا.»[45]

لم يجد كيسنجر ومساعدوه مخرجاً آخر سوى تعليق المباحثات، وجرى نقاش صيغة إعلان هذا التوقف مع الأسد. إلا أن الاستعصاء الحاصل في المفاوضات كان أهون مشكلات كيسنجر في ذلك اليوم، لأن حياته الخاصة كانت على وشك أن تشهد صداماً من نوع آخر؛ إذ شرح للأسد موقفه وهو يهمّ بمغادرة قاعة الاجتماعات بقوله: «لقد اصطحبت معي زوجتي في هذه الجولة، واليوم وصلت زوجتي السابقة إلى القدس؛ فإن كان هناك أحد يحتاج إلى فصل قوات في هذه الغرفة، فهو أنا!»[46]

مراجع الفصل السادس

(1) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 58, p. 279.

(2) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1078.

(3) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 62, p. 285.

(4) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 16 أيار 1974، ص7.

(5) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 16 أيار 1974، ص30.

(6) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 16 أيار 1974، ص31.

(7) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 16 أيار 1974، ص35.

(8) المصدر نفسه.

(9) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 16 أيار 1974، ص46.

(10) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 16 أيار 1974، ص48.

(11) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 16 أيار 1974، ص52.

(12) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 16 أيار 1974، ص55.

(13) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 16 أيار 1974، ص65.

(14) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 16 أيار 1974، ص79.

(15) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 16 أيار 1974، ص89.

(16) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 16 أيار 1974، ص82.

(17) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 16 أيار 1974، ص86.

(18) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 16 أيار 1974، ص101.

(19) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 16 أيار 1974، ص120.

(20) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 16 أيار 1974، ص134.

(21) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 16 أيار 1974، ص142.

(22) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 63, p. 286.

(23) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-

Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 63, p. 287.

(24) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 18 أيار 1974، ص26.

(25) المصدر نفسه.

(26) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 18 أيار 1974، ص27 ـ 28.

(27) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 18 أيار 1974، ص29.

(28) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 18 أيار 1974، ص34.

(29) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 18 أيار 1974، ص43.

(30) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 65, p. 288.

(31) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1093.

(32) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 20 أيار 1974، ص56.

(33) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 20 أيار 1974، ص107.

(34) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 21 أيار 1974، ص23–24.

(35) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 21 أيار 1974، ص28.

(36) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 32, p. 178.

(37) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 21 أيار 1974، ص82.

(38) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 21 أيار 1974، ص101.

(39) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 21 أيار 1974، ص75.

(40) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 22 أيار 1974، ص6.

(41) المصدر نفسه.

(42) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 22 أيار 1974، ص21 ـ 22.

(43) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 22 أيار 1974، ص36.

(44) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 22 أيار 1974، ص63.

(45) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 68, p. 293.

(46) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 22 أيار 1974، ص99.

الفصل السابع

أداء مـذهــل

في الثالث والعشرين من شهر أيار عام 1974 وصل هنري كيسنجر إلى دمشق وبحوزته عدة تنازلات إسرائيلية مهمّة. وبدت بصمات ريتشارد نيكسون جليّة، إذ ضغط على غولدا مائير كثيراً، طالباً منها إظهار المرونة كي لا تنهار المحادثات حول الجبهة السورية. وبعد محادثات تقنية طويلة، قابل الأسد حسن النية الأمريكي بالإيجاب، ووافق على أن تتضمن منطقة تخفيض السلاح الأولى (أي العشرة كيلومترات الأولى بعد خط الفصل) 6000 جندي، و75 دبابة، و36 قطعة مدفعية قصيرة المدى. رغم هذه الجهود والضغوط، أثار الإسرائيليون لغطاً حول نوع المدفعية الموجودة في الجيش السوري، والتي ستتموضع في منطقة التخفيف. فمن المعلوم في حينه أن أقصر مدفع من ناحية المدى هو مدفع الهاوتزر من عيار 122 مم الذي لا يتعدى مداه العشرين كيلو متراً. إلا أن المخابرات الإسرائيلية علمت أن سورية حصلت مؤخراً على مدافع 122 مم مطوّرة من الاتحاد السوفييتي يتعدى مداها الـ 20 كم. وخشي الإسرائيليون من أن ينقل السوريون هذا السلاح الحديث إلى خط الجبهة؛ مما يعطيهم القدرة على الضرب خلف خطوط الدفاع الإسرائيلية، وممّا سيخلّ بمعادلة الردع الدقيقة التي ستحددها خطوط الفصل ومناطق التخفيف.

أدى هذا «الاكتشاف» الإسرائيلي إلى تفجّر خلاف كبير حول منطقة التخفيف الثانية (بين 10 و20 كم من خط الفصل). وقد وافق الأسد مبدئياً على نقل صواريخ الدفاع الجوي والمدفعية طويلة المدى من عيار 130 مم إلى ما بعد 25 كم من خط الفصل بعد أن وافق الإسرائيليون ـ بضغط من نيكسون ـ على مطلب الأسد بوضع 162 مدفعاً في منطقة التخفيف الثانية، بعد أن رفضوا تمركز أكثر من 12 مدفعاً في بادئ الأمر. لكن الأسد رفض قطعياً الطلب الإسرائيلي بإخراج مدافع الـ 122 مم المُطوّرة من مناطق التخفيف، وأصر على إبقاء الـ 162 مدفعاً بهدف الحفاظ على ترتيب القطع العسكرية الذي تنص عليه العقيدة العسكرية للجيش العربي السوري. وقبل أن يتمكن كيسنجر من الخوض في نقاش حول نوع المدفعية السورية، أعاد الأسد الكرة إلى الملعب الأمريكي من خلال تذكيره بأن سورية قبلت بمناطق تخفيف سلاح بعمق عشرين كيلومتراً شريطة أن يكون الخط الأحمر (الجانب السوري من خط الفصل) مطابقاً لخط السادس من تشرين، فيما يحدد الخط الأزرق النقاط التي ينسحب إليها الإسرائيليون حول القنيطرة والرفيد. فإن وافق الأسد على الخريطة التي جاء بها كيسنجر من تل أبيب، فإن مناطق التخفيف المقترحة ستصل أطراف دمشق، كما أنها ستضع بعضاً من القرى التي تمركز فيها الجيش السوري قبل الحرب ضمن المنطقة منزوعة السلاح، أي ستجعلها خالية من أي وجود عسكري سوري. وإضافةً إلى ذلك، احتجّ الأسد على وضع جبل الشيخ، إذ لم يوافق بعد على أن يتسلّم المراقبون الأمميون المواقع التي سيخليها الجيش الإسرائيلي في الجبل.

لم يستطع كيسنجر تقديم أية أجوبة قبل التشاور مع غولدا مائير، فقام بإقفال الملفات الشائكة، واعداً الأسد ببذل جهودٍ لإقناع الإسرائيليين بإعادة رسم بعض نقاط خط الفصل الخلافية. وانتقل الوزير الأمريكي بعد ذلك إلى مناقشة عدد المراقبين الأمميين الذين سيتم نشرهم ضمن المنطقة العازلة

(المنزوعة السلاح)، إذ خفضت إسرائيل العدد الذي تطالب به من 7000 جندي حفظ سلام إلى 2000 مراقب مزودين بأسلحة خفيفة. رفض الأسد مجدداً السماح بنشر أكثر من 1000 مراقب، معبّراً عن حيرته بسبب الإصرار الإسرائيلي على نشر هذا العدد الكبير من المراقبين في منطقة لا يتجاوز عمقها كيلو متراً واحداً. أتى جواب كيسنجر عن هذا التساؤل صادماً للأسد: «إن الانسحاب منهج مؤلم لهم، والانتقال من السيطرة العسكرية إلى التفاهم أو التصالح السياسي سيكون مؤلماً. إن نظرتهم للعرب تشبه النظرة التي كانت لدى الأمريكيين تجاه الهنود الحمر في أوائل عهد الاستيطان في أمريكا. كانوا يرون أرضاً غير مستصلحة واجبٌ عليهم استصلاحها، ويرون غابات عليهم استيطانها. يحمل الإسرائيليون هذا النوع من التفكير ولديهم هذه العقلية، وإن اعتمادهم الكلي هو على القوة العسكرية كما كانت عند الأمريكيين الأوائل».[1]
خانت الكلمات الأسد في حين ترجاه كيسنجر بقبول المراقبين الأمميين لتهدئة مخاوف الإسرائيليين تجاه العرب، مقترحاً تخفيف عددهم إلى 1500 مراقب لضمان أمن المنطقة العازلة. إلا أن الأسد لم يعط جواباً حاسماً، فقد أراد أن يسمع ما ستقوله غولدا مائير حول الخط الأحمر. فانطلق كيسنجر إلى تل أبيب مجدداً، معتقداً أن بضعة أمتار من الأرض ستفصل بينه وبين الاتفاق النهائي.

اللعب على الكلمات

قبل توجّه كيسنجر لعقد اللقاء الحادي عشر مع الأسد في أقل من أربعة أسابيع، أبرق إلى نيكسون شارحاً مفترق الطرق الذي وصلت إليه المفاوضات:

> «إن هذه المفاوضات قد تتجه نحو الفشل أو النجاح خلال الأربع والعشرين ساعة المقبلة. كنت سأشعر بثقة أكبر لو لم أكن مضطراً إلى مواجهة مجلس الوزراء الإسرائيلي المستقيل في اليوم الأخير من ولايته، ولو لم أكن مضطراً إلى مواجهة الأسد، الذي رغم

حدّة ذكائه، يفاوض بعناد شديد حول كل نقطة كما لو أنه يسجل كل شيء للتاريخ، على عكس السادات الذي لم يكنْ يبالي بكثيرٍ من النقاط الهامشية». [2]

عندما دخل الوزير الأمريكي إلى قاعة الاجتماع، لاحظ الأسد على الفور مدى التعب الظاهر على محيّا ضيفه: «أنا أعرف أن المفاوضات ألقت بظلالها على كل شيء، لكننا سنتجاوز هذه المرحلة إن شاء الله». [3] قّدر كيسنجر صدق تمنيات الأسد وانتقل ليشرح ضرورة إنهاء اتفاق فصل القوات خلال وجود مجلس الوزراء الإسرائيلي الحالي في السلطة، لأن يوم الثلاثاء الواقع في الثامن والعشرين من أيار من عام 1974 هو اليوم الأخير لغولدا مائير في منصبها، أي لم يتبقَّ لديهم سوى ثلاثة أيام. أراد كيسنجر إنهاء الاتفاق مع غولدا مائير، ثم متابعة النقاش حول مرحلة ما بعد فصل القوات على الجبهة السورية مع الوزارة الجديدة. [4] غير أن الأسد بقي ثابتاً على موقفه ورفض الخط الأحمر بشكله الحالي تماماً، فالإسرائيليون يكذبون على كيسنجر إذ يدّعون السيطرة على نقاط هي بالأصل خارج سيطرتهم كي يجلبوا إليها المراقبين الأمميين عوضاً عن الجيش السوري. [5] ثم إن الخط الأحمر يضع عدة قرىً سورية وفيها آلاف المدنيين داخل المنطقة العازلة، أي بين الجيشين المتحاربين. [6] حاول كيسنجر التهرب عن طريق شرح صعوبة الوضع السياسي في إسرائيل، غير أن الأسد قاطعه، مؤكداً أن الوضع السياسي في سورية سيكون مقلقاً إنْ أُهملت هذه القرى ولم يُحدَّد مصيرها. [7]

لم يكن الأسد على وشك إغلاق كل أبواب التفاوض، فقد قبل مؤقتاً بأن لا توضع في منطقة التخفيف الثانية سوى مدافع الـ 122 مم غير المعدلة (أي المدافع التي لا يتجاوز مداها 20 كم) شريطة أن يصاغ الاتفاق بطريقة معينة. وقد اقترح أن ينص الاتفاق على أن لا يتجاوز مدى قطع المدفعية الـ 162 التي ستتمركز في المنطقة أكثر من 20 كم، ومن ثمَّ يتم تفادي تحديد نوع المدافع

وعياراتها في نص الاتفاق، ويذكر مداها فقط. ولكن النقطة الأهم كانت حول نص الاتفاق فيما يتعلق بتحريك صواريخ الدفاع الجوي والمدفعية طويلة المدى إلى ما بعد 25 كم من خط الفصلح إذ وافق الإسرائيليون على استثناء (قطاع دمشق) من هذا الأمر. بيد أن الأسد طالب بحذف هذه الجملة، فهو لم يُرد أن تذكر عاصمة البلاد في نص الاتفاق النهائي، كما رفض الأسد أن يكون هناك سقف لعدد الجنود والدبابات في منطقة التخفيف الثانية. وأصرّ مجدداً وبشدة على تعديل الخط الأحمر لمنع وقوع أكبر عدد ممكن من القرى في المنطقة العازلة.[8]

خرج كيسنجر من اللقاء وهو راضٍ عما دار فيه، وقد أضحت بين يديه معطيات يمكن العمل عليها، فاعتذر عن تناول العشاء في دمشق، وانطلق مباشرة إلى تل أبيب مصطحباً معه وديعة تفاوضية من الأسد.[9] ولكنّ أفراداً من فريق كيسنجر بقوا في دمشق للعمل على تفاصيل الاتفاق مع الدبلوماسيين السوريين. وقبيل مغادرة كيسنجر قصر الروضة بدمشق، طلب من الأسد إخراج الجنود الأجانب من مناطق تخفيف السلاح، وكان مهتماً بوجه خاص بوضع العسكريين الكوبيين المتمركزين على جبهة الجولان.[10] غير أن الأسد أكّد أن سورية ستنشر ما تراه مناسباً من الجنود، مع العلم بأنه لا يوجد على الخطوط الأمامية من الجبهة سوى جنود سوريين، وهذا الوضع سيبقى كذلك. أخطأ كيسنجر تقدير مرونة الأسد وقال مازحاً: «أفضّل مواجهة وحدة كويتية على مواجهة وحدة سورية.»[11] أصاب كيسنجر أكثر الموضوعات حساسية لدى الأسد، فالأخير قومي عربي حتى الصميم. أجابه الرئيس السوري قبل رفع جلسة التفاوض: «بالنسبة إلي لا يوجد فرق بين جندي سوري وسعودي وكويتي وأردني. لدينا ضباط عراقيون وأردنيون وفلسطينيون يخدمون هنا من قبل الحرب. لدينا طلاب من موريتانيا إلى بغداد في كلياتنا العسكرية أتى بعضهم بنفسه إلى هنا ولم ترسلهم دولهم.»[12]

الخط المستحيل

كان من المقرر أن يصل وزير الخارجية السوفييتي أندريه غروميكو إلى دمشق مساء يوم الاثنين الواقع في السابع والعشرين من شهر أيار عام 1974. لم يكن كيسنجر مرتاحاً لهذه الزيارة؛ إذ رأى أن الوزير السوفييتي اختار المجيء في نهاية جولته المكوكية للاستفادة سواء من نجاح المفاوضات أو من فشلها.[13] أخبر كيسنجر الأسد أن وجود غروميكو في دمشق قبيل مغادرة الوفد الأمريكي سيزعج الإسرائيليين، لا سيما وأنهم في طور توقيع اتفاق مع دمشق التي تزودها موسكو بشتى أنواع السلاح.[14] جارى الأسد ضيفه الأمريكي وطلب من وزير الخارجية عبد الحليم خدام أن يقوم بتأجيل زيارة غروميكو حتى صباح الثلاثاء أي بعد مغادرة كيسنجر[15]؛ إذ لم يشأ الرئيس السوري إعطاء إسرائيل حجة أخرى لتعطيل المفاوضات.

حان وقت مناقشة العرض الأخير من تل أبيب، ووافقت إسرائيل على كل المطالب السورية المرتبطة بمناطق التخفيف، بما في ذلك تلك المنطقة المتعلقة بدمشق ومدافع الـ 122 مم،[16] وكانت هذه خطوة هامة إلى الأمام. كما وافقت إسرائيل على وضع 1250 مراقب أممي في المنطقة العازلة، بعد أن كانت قد طالبت بـ 7000 جندي حفظ سلام في بادئ الأمر.[17] رحّب الأسد بهذه التنازلات بحذر دون أن تبدو ملامح الارتياح على وجهه، رغم أن ما قُدّم من تنازلات يشهد على مهاراته التفاوضية.

ولمّا حان وقت مناقشة الخط الأحمر، قام الأسد باستدعاء كبار ضباطه إلى غرفة الاجتماعات، بمن فيهم وزير الدفاع مصطفى طلاس، وقائد المخابرات العسكرية حكمت الشهابي، وقائد القوى الجوية ناجي جميل. شاهد الضباط كيسنجر وهو يقدّم شرحاً للتعديلات التي تمت على الخط. إلا أن النظرة التي اعترت وجه الأسد وشَت بعدم ارتياحه لما سَمِع. وتبع عرض

كيسنجر ساعات من التفاوض المرير حول أمتار قليلة من الأرض من دون التوصل إلى أيّ اتفاق. خارت قوى كيسنجر وجلس على الكرسي مرهقاً من أساليب الأسد وكلماته وقدرته الهائلة على التحمّل.

عيد ميلاد حزين لكيسنجر

مع انتصاف ليل السادس والعشرين من شهر أيار عام 1974، عاد كيسنجر إلى مكتب الأسد في قصر الروضة. ومع دخول يوم السابع والعشرين دخل كيسنجر عامه الحادي والخمسين، لكنه اضطر إلى قضاء الساعات الأولى من عامه الجديد وهو يخوض مفاوضات سياسية صعبة مع الرئيس السوري، بحضور مساعده بيتر رودمان ومترجمه عيسى الصباغ. في ذلك المكتب أيضاً، كانت هناك آلة تسجيل سورية تسجّل ما يدور من حوار لحفظه في الأرشيف للتاريخ.

في تلك الجلسة لم يكن في بال الأسد سوى «رسالة نيكسون» التي سيبثها البيت الأبيض عند إتمام اتفاق فصل القوات، ويؤكد من خلالها التزام الولايات المتحدة بالمرحلة التالية من عملية السلام، وخاصة تطبيق قرار مجلس الأمن 338. إنّ إحدى المشكلات التي برزت في نص الرسالة هي الحديث عن «المصالح المشروعة» للشعب الفلسطيني، إذ أشار الأسد إلى ذلك المقطع طالباً وضع كلمة «حقوق» عوضاً عن كلمة «مصالح». وقال الأسد لكيسنجر بصراحة تامة: «حينما أقدِّر قيمة عملنا الذي نؤدّيه (أي: فصل القوات)، لا أرى أنه يحقق بالضرورة أفضل مصلحة للعرب. ولذلك أنا لا أستطيع أن آخذ منه فقط دليلاً على توجّه جديد للولايات المتحدة.»[18] وأخبر القائد السوري ضيفه الأمريكي أنّ المفاوضات المضنية حول أمتار من الأرض لم تكنْ إلاّ من أجل أهمّ مصالح شعبه، وخصوصاً مصالح أولئك الذين يعيشون قرب خطّ الجبهة. أما فيما يتعلق بالمصلحة العربية، فكان الأسد يتعامل مع الواقع المرير الذي تخرج به مصر بصفة أحادية وسريعة من معادلة الصراع، ومع التململ السعودي من معاكسة الرغبة الأمريكية بفرض الحظر النفطي. والأهم من ذلك أنّ الأسد

لم يكنْ يثق تماماً بالدور الأمريكي في عملية السلام الناشئة، ولا بقدرة الولايات المتحدة على الضغط على إسرائيل وكبح جماحها. لم يكن الرئيس السوري متفائلاً ولا متشائماً حيال المرحلة القادمة: «إن فصل القوات يبقى أمراً غير كاف. وعلى هذا الأساس، ولأنني المسؤول عن قيادة هذا البلد، لا أستطيع على ضوء مباحثاتنا إلا أن أستمر في الاستعداد العسكري والسياسي للحرب، وفي البحث عن أصدقاء يساعدونني في العمل من أجل استرداد الأرض المحتلّة.»[19]

عمّقت محادثات فصل القوات اقتناع الأسد بأن إسرائيل لا تريد السلام، وهي لم تُرده يوماً ولن تريده أبداً. وفضلاً عن ذلك، أظهرت هذه المحادثات له مدى قوة اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة. ولكن بغض النظر عمّن يحمي إسرائيل، سواء كانت الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتي أو كلاهما، فإن الأسد مؤمنٌ أن لا مستقبل لها في المنطقة؛ إذ توجه إلى كيسنجر قائلاً: «العرب ليسوا هنوداً حمراً، العرب أمةٌ ذات حضارة عريقة»[20] اتفق الوزير الأمريكي مع ما طرحه الأسد، فهو نفسه لم يفتأ يحذّر من قوة اللوبي الإسرائيلي في واشنطن خلال زياراته السابقة لدمشق. ومع ذلك وعد بتحقيق مزيد من التقدم في المرحلة القادمة من عملية السلام. غير أن كيسنجر -ورغم إصرار الأسد ـ رفض إعطاء التزام أمريكي بانسحاب إسرائيلي شامل وتام من كل الأراضي العربية المحتلة حتى حدود الرابع من حزيران عام 1967.

كانت الهوة غير قابلة للرّدم؛ فمن وجهة نظر الأسد هي قضية مبدأ، أما في نظر كيسنجر فالضرورات السياسية أهم من أي اعتبار آخر. وحصلت محاولة أخيرة بين الرجلين للاتفاق على الخط الأحمر ولكن دون جدوى. عاد كيسنجر لينضمّ إلى فريقه في قصر الضيافة قبيل مطلع الفجر. كان الجو في مقر إقامة الوفد الأمريكي كئيباً؛ إذ توصل الموجودون هناك جميعهم إلى النتيجة ذاتها: لقد فشلت المفاوضات على الجبهة السورية.[21]

اليوم الأطول

صبيحة اليوم التالي، استفاق كيسنجر ليرى أن فريقه قد أعدّ له حفلة عيد ميلادٍ مفاجئة في قصر الضيافة. كانت تلك اللحظات أسعد أوقات كيسنجر في ذلك اليوم، فتناول قطعة من الحلوى قبل التوجه إلى قصر الروضة، الذي لا يستغرق الوصول إليه بالسيارة أكثر من خمس دقائق، لعقد ما ظن أنه الاجتماع الأخير مع الرئيس الأسد. جرى اللقاء بين الرجلين كما كان متوقعاً، واحتجّ الأسد على مطالب إسرائيل المستحيلة. لم تبقَ لدى كيسنجر أي قدرة على المقاومة: «راجعت نفسي وأنا أفكر البارحة ليلاً وانتهيت إلى استنتاج أن لا وجود لحل. إن الظروف غير مؤاتية للتوصّل إلى اتفاق على بعض النقاط.»[22] وافق الأسد كيسنجر على هذا التحليل، وانتقل الرجلان إلى مناقشة كيفية نقل الخبر السيّئ عن فشل المفاوضات إلى عشرات الصحفيين المحتشدين خارج قصر الروضة. إن قنبلة سياسية كهذه تعني أن الرئيس نيكسون لن يستطيع زيارة الشرق الأوسط، وخاصة بعد الإخفاق الذريع للسياسة المكوكية لوزير خارجيته. ولكن الرئيس الأسد أشار إلى أنّ دمشق ترحّب بزيارته إنْ تمّ التوصل إلى اتفاق أم لم يتمّ.[23] ومع ذلك رفض عرض كيسنجر بإرسال موفدين سوريين إلى واشنطن لمواصلة المباحثات؛ إذ أكد الأسد أنه لا يمكن لموظفين في واشنطن أن ينجحوا في التوصل إلى اتفاق بعد أن فشل القادة المجتمعون في دمشق في التوصل إليه. وستكون لأيّ مبعوث سوري إلى واشنطن في المستقبل مهمّة وحيدة هي بحث تطوير العلاقات السورية ـ الأمريكية الثنائية، ولا شيء غير ذلك.

مع وصول النقاش إلى طريق مسدود، همّ الرجلان بالنهوض ليودّع كل منهما الآخر، حينما قال الأسد فجأة:

> «في الحقيقة، النقطة الوحيدة التي أفكر فيها بعد توطيد هذه الصلة الشخصية، ومن قبيل الوفاء، ومن أجل مصالح شعوبنا، أودّ فعلياً

أن لا تكون هناك متاعب أمامك تؤذيك. دعنا نتحدث بصراحة!
إلى أين يمكننا في رأيك تحريك الخطّ الأحمر؟»[24]

يصف كيسنجر تفاصيل هذه اللحظة التاريخية في مذكراته بقوله:

«كان أداءً مذهلاً. لقد ذهب الأسد حتى الميليمتر الأخير، ثم فتح المجال أمام مجهود آخر حاسم لتحقيق الاتفاق. لقد قلت له في كانون الأول إنّه يذكّرني بشخص يفاوض على حافة هاوية، ولكي يعزّز موقفه التفاوضي قام بالقفز إلى المجهول آملاً أن شيئاً ما في طريقه إلى الأسفل سيخفف من وقع سقوطه. ذاك «الشيء» في تلك اللحظة هو الآن «أنا».»[25]

لم يستطع كيسنجر إخفاء ابتسامته وأجاب أنه أمضى الليل بطوله يفكر في كيفية تعديل الخط الأحمر. وقدّم للأسد خارطة جديدة ينحرف فيها الخط متعرجاً حول عدد من القرى السورية مع تقريبه مسافة كيلو متر واحد إلى الأمام، وبذلك لن تقع هذه القرى ضمن المنطقة العازلة، غير أنه لم يستطع ضمان موافقة إسرائيل على هذه التعديلات.[26] إنّ هذا الادعاء من جانب كيسنجر هو كذبة، لأنه كان قد حصل على موافقة الوزارة الإسرائيلية على هذه التغييرات عينها في اليوم السابق، ولكنه قام بإخفائها عن الأسد في الجلسة التفاوضية مساء ذلك اليوم.[27] لقد قطع هنري كيسنجر المسافة وذهب إلى حافة الهاوية أيضاً. سأل الوزير الأمريكي إن كان بوسع الولايات المتحدة الأمريكية إصدار بيان تؤكد فيه تفسيرها وقف إطلاق النار في مرتفعات الجولان على أنه يشمل نشاطات الفدائيين الفلسطينيين، وأن لإسرائيل حق الدفاع عن نفسها ضدّ هجماتهم.[28] لم يعترض الأسد لأن هذا كان رأياً أمريكياً وليس اتفاقاً ملزماً يفرض على سورية أية التزامات.[29]

سارع الفريق الأمريكي بالعودة إلى قصر الضيافة للتشاور. وعند الرجوع

مجدداً إلى قصر الروضة، أضاف كيسنجر شرطاً مهماً إلى الاتفاق ينصّ على أنّه مع تحريك الخط الأحمر وخروج تلال سورية من المنطقة العازلة، فإن الولايات المتحدة سترسل إلى إسرائيل رسالة تضمن فيها أن سورية لن تضع أسلحة على قمم تلك التلال التي تقع الآن خلف الخطّ المعدّل، ويمكن منها إطلاق النار مباشرة باتجاه المواقع الإسرائيلية. وهذا يماثل الضمانة التي تلقتها سورية بخصوص التلال المُسيطر عليها إسرائيلياً غرب القنيطرة.[30] وهنا أيضاً، لم يكن لدى الأسد أي اعتراضات.

كان كيسنجر مرتاحاً لدرجة قفز فيها عدة خطوات إلى الأمام وبدأ بمناقشة مستقبل العلاقات السورية ـ الأمريكية، وقال للأسد: «هذا ليس سؤالاً عادياً، ولكنني أحب أن أستأنس برأي السيد الرئيس بنوع الشخص الذي يجب أن يكون سفيرنا في دمشق.»[31] إنّ الصفة الوحيدة للسفير الجديد والتي يعدّها الأسد ضرورية هي موضوعيته وابتعاده عن التحيّز في مقاربة الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وعدا ذلك فإن الأسماء والألقاب لا تهم. واتفق الرجلان على وجوب كون سفراء المستقبل في دمشق وواشنطن أشخاصاً موثوقين، إذ سيكون هناك «الكثير من الأمور الحساسة جداً» سيتم تداولها.[32]

في تمام الساعة الثانية وعشرين دقيقة من بعد ظهر ذلك اليوم، عقدت جلسة ثالثة من المباحثات حضرها كل من الأسد وكيسنجر ووزير الخارجية عبد الحليم خدام وكبار ضباط الجيش السوري. تبجّح الوزير الأمريكي بقوله: «لقد اتفقنا على كل شيء، لن يكون هناك مزيد من المفاوضات.»[33] ومع ذلك أدرك فيما بعد أنّ الطلب من سوري ألاّ «يساوم» شبيه بـ «أمر سمكة ألاّ تسبح».»[34] غير أنه، ومن خلال البحث في أرشيف رئاسة الجمهورية العربية السورية، تبيّن أن هذا الوصف غير عادل؛ فالطرف السوري لم «يساوم»، بل إن كلّ ما فعله المفاوضون السوريون هو تدقيق نصوص الاتفاق كلمة كلمة، وفاصلة فاصلة. ولم يفعلوا ذلك لمجرّد التبجّح اللغوي، بل لأنهم عانوا مشكلات سابقة في هذا

المجال. إنّ ذكرى قرار مجلس الأمن 242، والتلاعب الذي حصل في صياغته والذي أعطى إسرائيل مخرجاً لتشريع استمرار احتلالها للأراضي العربية كانت حاضرة في أذهانهم. ولهذا تمت مراجعة نصوص اتفاق فصل القوات بدقة، كما تم في بعض الأحيان إعادة صياغة مقاطع معينة صياغة جديدة، وفي أحيان أخرى تم حذف مقاطع كاملة بناء على طلب الأسد. وأدّى المترجمان أسعد كامل إلياس، وعيسى الصباغ دوراً حاسماً في هذا المسعى.

تمحورت إحدى نقاط الخلاف حول صلاحيات المراقبين الأمميين الذين سيتمركزون في المنطقة العازلة المحددة بالخطين الأزرق والأحمر. ثم إنّ اسم قوة المراقبة التي ستنشأ هو في حدّ ذاته اختراع أملته التناقضات السورية ـ الإسرائيلية: «قوة مراقبي الفصل التابعة للأمم المتحدة ـ أندوف UNDOF.» عندما قرأ كيسنجر الاسم قال مازحاً: «بهذا نكون قد أنجزنا إنجازاً تاريخياً. فخلال ستة آلاف سنة من تاريخ الحضارة البشرية لم يكن هناك شيء أو منظمة اسمها أندوف.»[35] ورفض الأسد على نحو قاطع السماح للأندوف بتفتيش القرى السورية الواقعة في المنطقة العازلة.[36] فهذه المنطقة خاضعة للإدارة المدنية والقوانين السورية، وحتى الشرطة السورية لا يمكنها تفتيش منازل المواطنين من دون مذكرة قانونية، فكيف لجنود أجانب أن يقوموا بذلك؟ وحتى لو التزم المراقبون بالقوانين النافذة في سورية، فإن السماح لهم بالتفتيش هو خرق للسيادة السورية. قام كيسنجر وبدافع استعجاله لإتمام الاتفاق بحذف هذا البند من النص، واتُفق على أن تتفاوض سورية والأمم المتحدة حول انتشار الأندوف وطريقة عملها بعد توقيع الاتفاق.

أما فيما يتعلق بمناطق تخفيف السلاح البالغة عشرين كيلومتراً، فستشرف الأندوف على التحقق من التزام الطرفين في العشرة كيلومترات الأولى، على حين تتحقق الولايات المتحدة من هذا الالتزام السوري والإسرائيلي في العشرة كيلومترات الثانية بواسطة الاستطلاع الجوي. وسيتم تقديم كلّ التزامات مناطق

التخفيف إلى كل من سورية وإسرائيل للموافقة عليها عن طريق «عرض أمريكي».

يدّعي كيسنجر في مذكراته أنه حصل على تعهد شفهي من الأسد بأن لا تنشر سورية أكثر من تسعة ألوية عسكرية في منطقة التخفيف الثانية (بين 10 ـ 20 كم)، رغم أن الاتفاق لم يتضمن أية بنود حول عدد الجنود والدبابات المسموح به في تلك المنطقة.[37] وليس هناك أي دليل في الوثائق الأرشيفية لجلسات التفاوض، وخصوصاً جلسة 27 أيار لعام 1974، يُثبت صحة هذا الادّعاء.

كان كيسنجر قد خطط للقاء مجلس الوزراء الإسرائيلي في الساعة السابعة مساءً بتوقيت دمشق (السادسة مساءً بتوقيت تل أبيب) للمصادقة على النصوص النهائية، غير أنّ السابعة مساءً حلّت ورحلت، والوزير الأمريكي لا يزال في غرفة الاجتماعات مع الأسد. وصلت الفرق التفاوضية إلى البند الأخير في الاتفاق، حيث طالبت إسرائيل كيسنجر أن لا تنشر سورية أكثر من 75 شرطياً في المنطقة العازلة، بما فيها مدينة القنيطرة. رفض الأسد وضباطه هذا الطلب نهائياً؛ فالمنطقة العازلة ضمن السيادة السورية، وتحت الإدارة المدنية السورية، وللحكومة السورية الحق في نشر العدد الذي تراه مناسباً من رجال الشرطة فيها. اشترك أعضاء الوفدين في النقاش لكنهم فشلوا في الاتفاق على حل وسط، فتدخّل الأسد عارضاً قبول حد معين في عدد الشرطة في القنيطرة شرط أن تقبل إسرائيل بالحدّ نفسه من عدد رجال الشرطة في مدينة طبريا الواقعة على المقلب الآخر من مرتفعات الجولان (وتساوي تقريباً مدينة القنيطرة في المساحة وعدد السكان). نظر كيسنجر ـ الذي تفاجأ بهذا الطرح ـ إلى ساعته وقال للأسد بصوت متعب: «سيادة الرئيس، هل أنت جادٌ في هذا؟» أجابه الأسد: «نعم، أنا جاد حقاً.»[38]

ومع حلول الساعة التاسعة مساءً، بدا وكأن الطرفين بعيدان عن التوصّل إلى اتفاق وكما كانا في الليلة الماضية. وبينما كانت طائرة غروميكو على وشك

الهبوط في مطار دمشق. لم يُرِد كيسنجر أن يتزامن وجوده في دمشق أو في مطارها مع وصول الوزير السوفييتي إليها. ولكن الأسد طمأنه أن غروميكو سيأتي إلى القصر في الصباح؛ أما فيما يخص المطار، فإن طائرة السوفييت ستبقى في الجو حتى يصعد الأمريكيون إلى طائرتهم.[39]

بدأ الوقت ينفد واستسلم كيسنجر أخيراً وقد قَبِل بتعديل الاتفاق مرة أخرى. وتم نقل مسألة تحديد عدد رجال الشرطة من نص اتفاق فصل القوات إلى «المقترح الأمريكي» حول مناطق تخفيف السلاح. ففي البلدات والقرى التي ستقع ضمن المنطقة العازلة، ستقوم سورية بنشر قوات شرطة تساوي في عددها تلك المنتشرة في بلدات وقرى سورية ذات مساحة وعدد سكان مماثل. ومن خلال اتفاق شرف، ستقوم الولايات المتحدة بتقدير العدد اللازم من رجال الشرطة الواجب نشره في هذه المنطقة بالتماشي مع تقدم عملية إعادة الإعمار وعودة السكان، وستقوم بإيصال الرقم المقدّر إلى الحكومة السورية التي ستنشر قوات الشرطة وفق هذا العدد.[40]

وحين الانتهاء من صياغة النص النهائي للاتفاق، بدأ كيسنجر بجمع أوراقه، في حين التفت الأسد نحو رفاقه ودار بينهم الحوار التالي:

الرئيس حافظ الأسد: أعتقد أنّ هذا هو كلّ ما يمكن فعله، أصحيح هذا؟

وزير الدفاع مصطفى طلاس: أعتقد أن هذا جيد.

أسعد إلياس: حسناً، نريد أن نبقي لديه بعض القوّة حتى يصارع بها غولدا مائير

الرئيس حافظ الأسد (بابتسام): كان الله في عونه![41]

الساعة الآن هي العاشرة مساءً، وقد خسر كيسنجر في «اختبار الإرادات

الجهنمي» مع الأسد[42]، حيث قال للرئيس السوري: «يا سادة، هل يمكن أن أطلب من جماعتي التحرّك؟ إنني لا أريد البقاء هنا، ووضع نفسي في موقع تاجر مماحك يعرض بساطاً للبيع، لدي كرامة أيضاً.»[43] إلا أن الرئيس السوري حافظ على هدوء أعصابه. أعلن قائد القوى الجوية السورية ناجي جميل أن طائرة غروميكو أصبحت على مدرج مطار دمشق الدولي، فطلب كيسنجر أن تُركن في الطرف الآخر من المطار كي لا يراها الصحفيون الأمريكيون.[44] استجاب الأسد لرغبته وطلب من اللواء جميل القيام بالإجراءات المناسبة. غادر موكب كيسنجر قصر الروضة على وجه السرعة، ماراً بموكب غروميكو على الطريق الواصل إلى مطار دمشق الدولي. كانت لحظة معبّرة جداً؛ ففي ظل قيادة حافظ الأسد، غدت سورية في قلب سياسات القوتين العظميين، وأصبحت قوة إقليمية يحُسب حسابها.

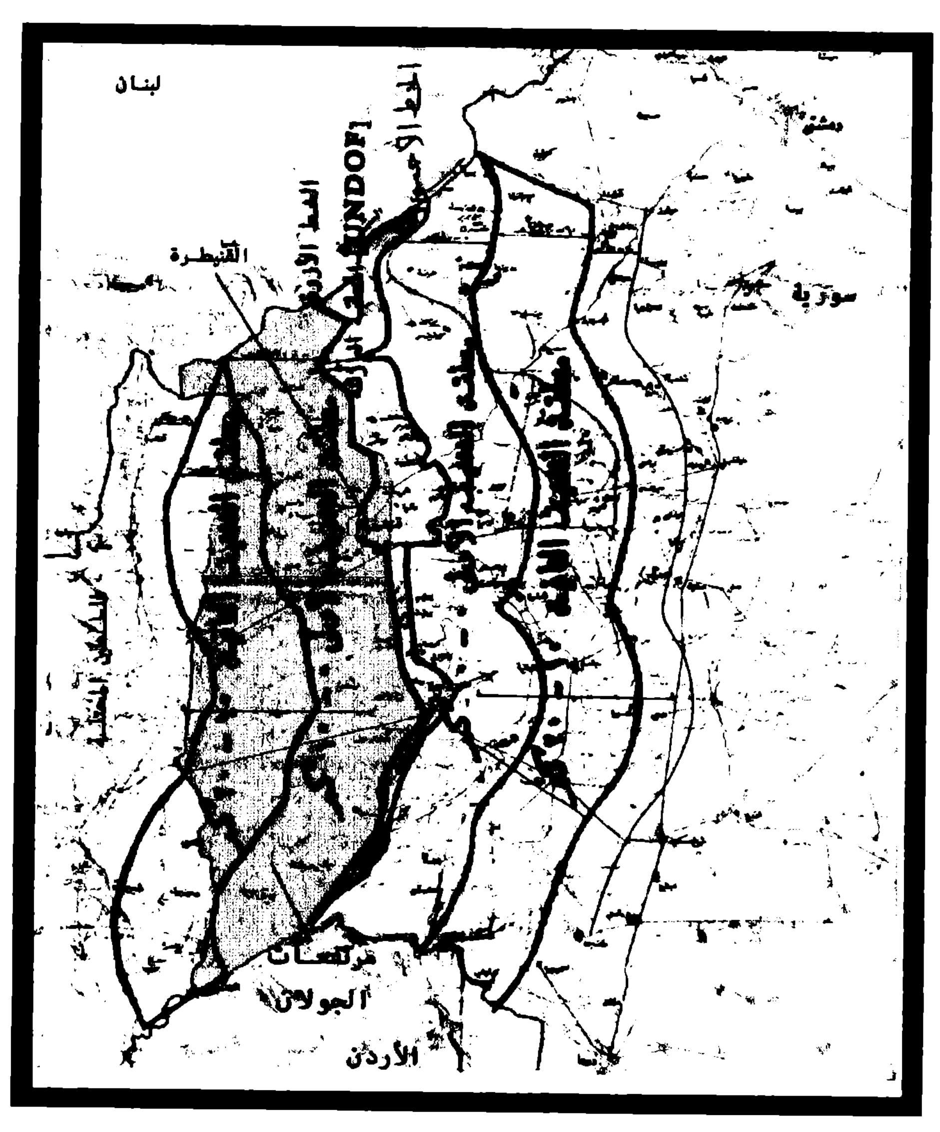
«علينا أن نستمر في الإعداد. . .»

اعتقد كيسنجر أن الاجتماع المضني الذي استمر سبع ساعات ونصف الساعة سيكون الأخير له في دمشق، إلا أنه اضطر إلى العودة في اليوم التالي الواقع في 28 أيار 1974، بعد أن طلبت منه غولدا مائير أن يحاول مرة أخيرة انتزاع ضمانة من الرئيس السوري بمنع نشاط الفدائيين الفلسطينيين العسكري في مرتفعات الجولان. خاض الرجلان نقاشاً طويلاً حول الشعب الفلسطيني ومعاناته وحقوقه ومشاركته في عملية السلام. ولكن وكما توقع كيسنجر، رفض الأسد قطعياً أن يفاوض نيابة عن الفلسطينيين، أو أن يعطي أية ضمانة لإسرائيل سواء في السر أو في العلن. لكنه سمح لكيسنجر أن يرسل للإسرائيليين رسالة يضمن فيها أن الولايات المتحدة الأمريكية ستعدُّ أي هجوم فلسطيني خرقاً لوقف إطلاق النار في مرتفعات الجولان؛ لكن سورية لن تلتزم بأي ضمانة، فالأسد لن يوافق على محتوى الرسالة، وقد رفض الاطلاع على مضمونها.[45]

لم يبقَ للأمريكيين أي أوراق ليلعبوها، ولم يكن لدى مجلس الوزراء الإسرائيلي خيار سوى الموافقة على الاتفاق كما هو. وعليه، وفي الساعة الثامنة مساءً بتوقيت دمشق من يوم الأربعاء الواقع في التاسع والعشرين من شهر أيار عام 1974، أعلن الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون للعالم أجمع، أنه تم التوصل إلى اتفاق لفصل القوات بين سورية وإسرائيل. وبعد يومين وقّع العميد حكمت الشهابي على نص الاتفاقية نيابة عن سورية خلال اجتماع للجنة العمل العسكرية المصرية ـ الإسرائيلية في جنيف. وفي الأيام التي تلت التوقيع، انسحبت قوات الاحتلال الإسرائيلي من مدينة القنيطرة بعد أن دمرتها بالكامل.

في الرابع والعشرين من شهر حزيران عام 1974، قام الرئيس حافظ الأسد، محاطاً بالآلاف من المواطنين السوريين، مرتدياً اللباس العسكري الميداني، لا يميزه عن أي جندي على خط الجبهة سوى رتبة الفريق على كتفيه، برفع العلم السوري في سماء مدينة القنيطرة المحررة، مذكراً أبناء بلده والعالم بأن:

«إرادة الشعب لا يمكن أن تقهر، وأن الوطن فوق كل شيء، وأن علينا أن نستمر في الإعداد لطرد العدو من كل شبر من أرضنا العربية المحتلة، وأنه متفائل بالنصر ومتفائل بالمستقبل، وواثق أنه ما من قوة على وجه الأرض تستطيع أن تمنعنا من استرجاع حقوقنا كاملة.»



خارطة فصل القوات



الرئيس الأسد يرفع العلم السوري في سماء القنيطرة المحررة، 24 حزيران 1974.



اللقاء الأخير ضمن مفاوضات فصل القوات بين الرئيس الأسد وهنري كيسنجر، 28 أيار 1974 . يظهر على يسار الصورة مساعد كيسنجر ومترجمه الخاص عيسى الصباغ .

مراجع الفصل السابع

(1) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 23 أيار 1974، ص90 - 91.

(2) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 73, p. 299.

(3) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 25 أيار 1974، ص7.

(4) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 25 أيار 1974، ص65.

(5) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 25 أيار 1974، ص68.

(6) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 25 أيار 1974، ص70.

(7) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 25 أيار 1974، ص84.

(8) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 25 أيار 1974، ص98.

(9) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 25 أيار 1974، ص106.

(10) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 25 أيار 1974، ص107.

(11) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 25 أيار 1974، ص110.

(12) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 25 أيار 1974، ص111.

(13) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982)، p. 1094.

(14) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 26 أيار 1974، ص13.

(15) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 26 أيار 1974، ص14.

(16) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 26 أيار 1974، ص19.

(17) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 26 أيار 1974، ص21.

(18) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 26 أيار 1974، ص59.

(19) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 26 أيار 1974، ص61.

(20) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 26 أيار 1974، ص62.

(21) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1096.

(22) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 أيار 1974، ص5.

(23) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 أيار 1974، ص16.

(24) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 أيار 1974، ص23.

(25) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1098.

(26) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 أيار 1974، ص24.

(27) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1098.

(28) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 أيار 1974، ص41.

(29) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 أيار 1974، ص 42 ـ 43.
(30) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 أيار 1974، ص51.
(31) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 أيار 1974، ص58.
(32) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 أيار 1974، ص60.
(33) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 أيار 1974، ص67.
(34) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1099.
(35) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 أيار 1974، ص149.
(36) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 أيار 1974، ص121.
(37) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1099.
(38) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 أيار 1974، ص194.
(39) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 أيار 1974، ص 205 ـ 206.
(40) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 أيار 1974، ص207.
(41) المصدر نفسه.
(42) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1099.
(43) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 أيار 1974، ص212.
(44) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 27 أيار 1974، ص213.
(45) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 28 أيار 1974، ص6.

الفصل الثامن

نيكسون في دمشق

هبطت الطائرة الرئاسية الأمريكية (سبيريت اوف 76) في مطار دمشق الدولي بعد ظهر يوم الخامس عشر من حزيران عام 1974. كانت الطائرة تحمل على متنها الرئيس الأمريكي السابع والثلاثين ريتشارد نيكسون وعقيلته السيدة بات راين نيكسون. وكان الرئيس حافظ الأسد وعقيلته السيدة أنيسة مخلوف الأسد بانتظارهما على مدرج المطار. في تمام الساعة 5:04 نزل الضيف الأمريكي سلم الطائرة الذي فُرِشت أرضيته بالسجاد الأحمر، ليصبح بذلك أول رئيس أمريكي يزور العاصمة السورية دمشق. سار الموكب في شوارع دمشق، ولاحظ نيكسون من الشباك كيف ترفرف الأعلام الأمريكية، أول مرة منذ سبع سنوات، في أقدم مدينة مأهولة باستمرار في التاريخ[1]. كانت دمشق لا تزال تنفض عن نفسها غبار الحرب، ولم تكن قد تخلّت بعد عن حالة الاستنفار لمواجهة العدو. وعقب استراحة في قصر الضيافة، توجه ريتشارد وبات نيكسون إلى منزل الرئيس الأسد في زيارة عائلية. وقبيل أخذ الصور التذكارية، همس أحد أبناء الأسد في أذن أبيه: «أليس هذا نيكسون نفسه الذي يعطي السلاح لإسرائيل؟» بدا واضحا أن فتح صفحة جديدة في العلاقات السورية الأمريكية سيكون مهمة شاقة، حتى في بيت الأسد نفسه، وهذا ما سيكتشفه نيكسون

سريعاً. ولكن لم يكن هناك شيء ليعكّر صفو تلك الأمسية؛ إذ توجه الأسد ونيكسون وعقيلتاهما إلى نادي الشرق في قلب دمشق لحضور مأدبة عشاء أقيمت على شرف الضيف الأمريكي والوفد المرافق. وألقى الأسد كلمة رحب فيها بضيوفه وبعودة العلاقات السورية الأمريكية قائلاً:

«فخامة الرئيس، نحيي من خلالكم الشعب الأمريكي، كما نعبّر عن تقديرنا لزيارتكم التي تحمل معاني تاريخية هامة، بالنظر إلى أنكم أول رئيس أمريكي يزور بلادنا. إن زيارتكم يا فخامة الرئيس تحمل معنىً خاصا لأنها تأتي في ظل منعطف مهم في تاريخ منطقتنا المعاصر وبعد فترة طويلة من القطيعة بين بلدينا[2]».

غير أن تلك المشاعر الدافئة ترافقت بتذكيرٍ حادّ من الأسد بما يجب أن يكون عليه الهدف الحقيقي لزيارة نيكسون، فقال:

«إن الزيارة تحمل معنىً خاصاً لأنها تؤلّف جزءاً من جولة أعلنتم أنها تهدف إلى بذل الجهود لإقامة سلام عادل ودائم في المنطقة... ولا يتحقّق سلام عادل ودائم في المنطقة إلا بإنهاء الاحتلال الإسرائيلي وعودة الأراضي إلى أصحابها ورفع المظالم عن الشعب الفلسطيني وضمان حقوقهم الوطنية المشروعة[3].»

ولم تغب هذه القضايا المعقدة عن كلمة نيكسون أيضاً، فأجاب:

«لقد أشرتم إلى حقيقة تمام اتخاذ الخطوة الأولى نحو سلام عادل ومتوازن في هذه المنطقة من العالم. كما أشرتم بكل لباقة وصراحة ودون تحيّز، وكما اعتدتم دائماً، إلى قلقكم إزاء الخطوات التالية التي ربما تتخذ أو يجب اتخاذها لتحقيق سلام عادل ومتوازن؛ إضافة إلى أنكم أشرتم إلى مشاعركم حيال قضايا أخرى كقضية الفلسطينيين مثلاً، والتي نتفهمها بكل تأكيد، ونتفهم ما تحملونه

من هموم قضية حدودكم، وأمور أخرى ستطرح في المفاوضات المستقبلية[4]. »

ولكن تلك الليلة لم تكن لتشهد مفاوضات، بل كانت للاحتفال بلحظة تاريخية مهمة، وخاصة للأسد. فبعد ثلاثة عقود من استقلال سورية، وثلاث سنوات من قيادته لها، أصبحت سورية قوة إقليمية لا يمكن تجاهلها أو تجاوزها، وغدت صديقاً ضرورياً لكلتا القوتين العظميين. ودّع الأسد وعقيلته ضيفيهما اللذين اتجها عائدين إلى مقر إقامتهما في قصر الضيافة؛ إذ احتاج نيكسون إلى أن يرتاح في تلك الليلة، وأن يحضّر مع ساعده الأيمن، وزير خارجيته هنري كيسنجر، كلّ ما يلزم للاجتماع بالأسد في صباح اليوم التالي.

السادات: رجل السلام المنفصل

كان فصل القوات على الجبهتين المصرية والسورية خطوة هامة في المقاربة الأمريكية للشرق الأوسط في مرحلة ما بعد حرب تشرين الأول، وكانت زيارة نيكسون إلى المنطقة تتمحور في الأغلب حول الاحتفال بهذا الإنجاز الدبلوماسي. بيد أن نيكسون وكيسنجر ترقّبا تحديات جسيمة في المرحلة المقبلة من عمليه السلام، تلخّصت بمطالبة العرب بانسحاب إسرائيلي شامل وبحلّ القضية الفلسطينية[5]. أدرك هنري كيسنجر أنّ عملية السلام إذا تباطأت، فقد تندلع الحرب مرة أخرى خلال أقل من ستة أشهر، وخصوصاً على الجبهة السورية[6]. إن عودة النزاع في المنطقة تنطوي على عواقب خطيرة لكل من الولايات المتحدة وأنور السادات، الذي كان يحاول نقل بلاده (الدولة العربية الأكبر) من خط المجابهة ومن التحالف مع الاتحاد السوفييتي، إلى وضعها في الفلك الأمريكي.[7]

أراد كيسنجر من جولة نيكسون الشرق أوسطية تعزيز دور أمريكا الفريد والمحوري في عملية السلام، وإبقاء المبادرة في قيد الحياة منعاً لأي تهديد،

ولكن دون تحقيق أي اختراقات سياسية حقيقية. نصح كيسنجر نيكسون بأن يتجنب المطالب العربية بدعم انسحاب شامل حتى حدود الرابع من حزيران عام 1967 والمطالب الإسرائيلية برفض هذا الانسحاب[8]. أما نيكسون الذي كان يتعرض لحملة تهدف إلى خلعه من منصبه رئيساً للولايات المتحدة في الكونغرس عقب فضيحة ووترغيت، فقد رغب أن تكون زيارته الشرق أوسطية أكثر من مجرد احتفال، كما أراد لها أن تكون ذات بعد تاريخي تخفف عنه عبء الحملة التي يتعرض لها في بلاده سواء من الكونغرس أو الصحافة. ولكن هذه التمنيات كانت بلا جدوى؛ إذ استقال نيكسون من منصبه بعد أسابيع قليلة من زيارة الشرق الأوسط[9].

في الثاني عشر من شهر حزيران عام 1974، وبعد أسبوعين من نهاية المفاوضات على الجبهة السورية، وصل نيكسون إلى مصر حيث استُقبل بحفاوة كبيرة من السادات والشعب المصري. كان الآلاف من المواطنين المصريين مصطفّين على جانبي الطريق الذي مرّ فيه موكبه هاتفين للرئيسين المصري والأمريكي، وقامت الشاحنات بنقل الناس من نهاية الموكب إلى أمامه مجدداً كي لا يفرغ الطريق من المحتفين بالزيارة.[10] أراد السادات أن يثبت للأمريكيين والسوفييت على حد سواء أن توجه مصر الجديد يحوز الدعم الشعبي. أمّا خلف أبواب الاجتماعات المغلقة، فقد فضّل الرئيس المصري تأجيل إعادة عقد مؤتمر جنيف للسلام، الذي رُفعت أعماله في كانون الثاني، بغية إتاحة المجال لدبلوماسية كيسنجر المكوكية. كانت عودة جنيف تعني عودة السوفييت إلى طاولة المفاوضات، وهذا ما أراد السادات تجنّبه بشدة.[11] ولكن تمثّلت ذروة الزيارة في اتفاقيات التعاون التي وقعها نيكسون والسادات بين بلديهما وشملت المجالات العلمية والتقنية والاقتصادية والثقافية.[12] رأى كيسنجر في هذا التعاون الثنائي طريقاً لتعزيز العلاقات بين الولايات المتحدة ومصر وغيرها من الدول العربية، كما رأى أنها تحمّل العرب جزءاً من مسؤولية إبقاء الاقتصاد

الأمريكي سليماً من خلال ربطهم به؛ الأمر الذي سيمنعهم من استعمال سلاح النفط في المستقبل[13] ولكن لم تمضِ زيارة نيكسون لمصر بالسلاسة التي أمل بها كيسنجر، مع أنّ المشكلة التي برزت لم تكن تتعلق بالسادات، بل بحافظ الأسد. ففي المؤتمر الصحفي الذي عقب الاجتماع الأخير بين السادات ونيكسون، قبيل مغادرة الأخير إلى السعودية، صرّح الرئيس الأمريكي أنّ بإمكان بلاده الاستمرار في عملية السلام على أساس كل بلد على حدة، بدءاً بمصر.[14] إنّ هذه الدعوة الصريحة إلى فصل مسارات السلام، التي رحّب بها المصريون في حين رفضها السوريون، أغضبت الأسد غضباً شديداً. ولكنه اضطّر إلى الانتظار يومين آخرين حتى وصول نيكسون من الرياض إلى دمشق كي يوضّح موقف سورية الحاسم من فصل مسارات السلام.

في مكتب الأسد

من «القواعد العامة» في العلاقات الدولية، وخاصة في السياسة الخارجية الأمريكية، أن لا يزور رؤساء الدول عواصم دول أخرى ليست لهم علاقات دبلوماسية بها[15]. لكن نيكسون خرق هذه القاعدة مرتين: الأولى في زيارته العاصمة الصينية بكين عام 1972، والثانية في زيارته دمشق. ففي الساعة العاشرة والنصف من صباح السادس عشر من حزيران عام 1974، عقد الرئيس حافظ الأسد اجتماعاً مع رئيس الولايات المتحدة في مكتبه بقصر الروضة. وكما في الليلة السابقة، جلس هنري كيسنجر إلى يمين الرئيس نيكسون. كان وزير الخارجية الأمريكية قد حفظ جنبات ذلك المكتب بعد أن أمضى فيه ساعات يراقب شخصية الأسد، وثبات عزمه، وأساليبه التفاوضية المضنية. وقد كان كيسنجر يعلم أن الأسد لن يرضى بمجرد إطار عام كما رضي السادات، ولن يكتفي بعلاقة وديّة مع الرئيس الأمريكي، وهي التي اكتفى بها الملك السعودي فيصل.[16]

على الرغم من أن الاجتماع بدأ بنقاش حول تطوير العلاقات السورية الأمريكية، كان كيسنجر متيقناً منذ لحظة دخوله مكتب الأسد أن مجابهةً ما تلوح في الأفق. كانت معضلته تتمحور حول كيف يمرّر وقت الاجتماع دون أن يلتزم نيكسون بأيّ شيء. إلا أنه لم يستطع ضمان ذلك. ومهما تبلغ مهارة الرئيس الأمريكي في تفادي الأسئلة الصعبة، فقد كان الأسد أذكى من أن تغشّه المناورات، وسيتجاوزها لإعادة طرح القضايا الجوهرية.[17]

وحينما جلس الرئيسان لبدء الاجتماع، دخل نيكسون مباشرة في عرضٍ للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط مشابه لما سمعه الأسد مراراً من كيسنجر. وأكد نيكسون أن الولايات المتحدة في موقع فريد لأداء دور محوري في عملية السلام على نحو يُوصل إلى نتائج ملموسة كما حصل في المرحلة الأولى عندما أُنجز اتفاق فصل القوات. وفي إشارة واضحة إلى إسرائيل، قال نيكسون إن الولايات المتحدة، ورغم مقاربتها النشطة، ليست مستعدة للضغط على أحد لقبول أي شيء. وانتقل بعد ذلك للحديث عن الدور السوفييتي في الشرق الأوسط، وأكّد نيكسون للأسد، وكما فعل كيسنجر قبله، أن العلاقات الجيدة بالولايات المتحدة يجب ألاّ تكون بالضرورة على حساب العلاقات السورية السوفييتية. وادعى الرئيس الأمريكي أن الولايات المتحدة ليست مهتمة بإخراج الاتحاد السوفييتي من المنطقة، لكنها في الوقت ذاته ستشعر بالاستفزاز إن تمتَّع السوفييت بـ «علاقات مقصورة» عليهم مع بلد ما، أو قاموا بإيجاد منطقة نفوذ لهم في الشرق الأوسط.[18] وهنا تدخل كيسنجر ليخبر الأسد بمعلومة جديدة تعزز موقف نيكسون بقوله: «الاتحاد السوفييتي يقوم باتصالات بإسرائيل في واشنطن من خلف ظهر سورية[19].» ومهما يكن الأمر، فقد هدفت هذه المقدمة المطولة في الحقيقة إلى استطلاع رأي الرئيس السوري حول الدور السوفييتي في مؤتمر جينيف للسلام، غير أن الأسد لم يعدَّه قضية محورية، والتزم بموقفه الأساسي بأن الحراك الدبلوماسي، لا مؤتمرات السلام، هو الذي

يأتي بنتائج ملموسة.[20] ونجح الأسد مجدداً في تجنّب الوقوع فريسة القوتين العظميين.

انتقل نيكسون بعدها إلى حقل ألغام آخر، سائلا الأسد عن رأيه بالقضية الفلسطينية. من وجهة نظر الرئيس السوري، من المفيد للولايات المتحدة أن تتواصل مع الفلسطينيين لأنه لا يمكن تحقيق سلام عادل ودائم من دون وجودهم[21]، ورأى أن عرفات ومنظمة التحرير يتمتعان بدعم كاف من الشعب الفلسطيني ومصر وسورية[22]. تدخل كيسنجر في الحديث مجددا، متذمراً وقائلاً إنه لا يستطيع لقاء الفلسطينيين شخصياً، كما أن على منظمة التحرير التخلي عن شن أي هجمات على إسرائيل مادامت تخوض حوارا مع الإدارة الأمريكية، وإلاّ قام الإسرائيليون ومؤيدوهم في الولايات المتحدة باتهامه واتهام نيكسون بأنهما يتحدثان إلى «قتلة وإرهابيين»[23]. قاطع نيكسون وزير خارجيته مدلياً بتعليق مثير للاهتمام، لم ينشره الأمريكيون من قبل لكنه حُفظ جيداً في الأرشيف السوري: «الإعلام والتلفزيون عندنا تحت سيطرة اليهود، وهم يصورون كل العرب على أنهم قتلة![24]»

أكد الرئيس الأمريكي، وأيضاً في إعادة لإحدى نقاط حديث كيسنجر المتكرّرة، أنه يسعى إلى تغيير صورة العرب لدى الرأي العام الأمريكي. لقد زار المنطقة في 1957 ـ عندما كان نائباً للرئيس آيزنهاور ـ وشاهد بتأثر بؤس ملايين الفلسطينيين الذين يعيشون مأساة حقيقية. لكنه لم يَلُم إسرائيل على ما حلّ بهم حينذاك، ولم يبدُ عليه أنه سيلومها أمام الأسد[25]. وعلى الرغم من ذلك أكد نيكسون استعداده لتحقيق خرق في الشرق الأوسط على غرار ما فعل مع الصين وفيتنام والاتحاد السوفييتي، غير أن الاعتبارات السياسية تجبره على الإدلاء بتصريحات عامة، لأن اللغة المبهمة تفيد في دفع العملية إلى الأمام. ثم قام الرئيس الأمريكي بشرح

هذه «الاعتبارات» للأسد: «المشكلة تكمن في بعض أصدقائنا، الذين نسميهم اليهود الصهاينة، فهم يفضّلون بقاء الأمور على ما هي عليه. كما يريد لنا بعض السياسيين في الولايات المتحدة أيضاً ألا ننجح[26]». وعاد نيكسون مباشرة إلى مناقشة العلاقات السورية الأمريكية قبل أن يتمكن الأسد من التعليق على ما سمعه. وعبّر الرئيس الأمريكي عن اهتمامه بشغف ابنة الرئيس السوري بشرى بدراسة الطب، واقترح قيام تعاون بين الولايات المتحدة وسورية في المجالات الطبية. لم تُرْضِ الأسد هذه الانعطافة المفاجئة في الحديث بعيداً عن القضايا المهمة، لكنه شعر أن الوقت لم يحن بعد لطرح موقفه الصارم.

اعتقد كيسنجر ونيكسون أنهما تجاوزا المرحلة الأصعب، وعرضا على الأسد قراءة نص البيان المتعلق بالشرق الأوسط الذي يعتزم الرئيس الأمريكي والقائد السوفييتي بريجينيف الإدلاء به عقب قمتهما المزمع عقدها في موسكو بعد أسبوعين[27]. وجد الأسد نفسه مرة أخرى مضطراً إلى مناقشة سياسات القوى العظمى، فقرر أخيراً إيضاح موقفه. كان الأسد راضياً عن سياسة الانفتاح بين القوتين العظميين، لكنه خشي من أن يؤدي انخفاض التوترات المباشرة بينهما إلى تحويل دول عدم الانحياز إلى ساحة صراع بديلة. مدح الرئيس السوري علاقات بلاده بالاتحاد السوفييتي؛ فالروس قدموا لسورية السلاح والدعم الاقتصادي. ومع ذلك فسياسات سورية مبنية على مصالحها القومية العليا. إن إرادتها حرة بالكامل، كما أن سيادتها مقدسة وإيمانها بالقومية العربية مطلق، واشتراكيتها العربية مختلفة عن الشيوعية السوفييتية، وعلاقاتها بكل الدول بما فيها القوى العظمى قائمة على الثقة المتبادلة. وأضاف الأسد: «كما قلت للدكتور كيسنجر من قبل، لا أحد يملي علينا سياستنا، لا الولايات المتحدة ولا الاتحاد السوفييتي.»[28] لذلك حينما شعرت القيادة السورية أن

هنالك توجهاً جديدا للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، لم تتردد في ملاقاة إدارة نيكسون في منتصف الطريق. ولكن المداولات بين سورية والولايات المتحدة ما تزال في بدايتها ولم يكن الطريق نحو الأمام سهلاً. وقد لاقى الشعب السوري صعوبة في تقبّل عودة العلاقات السورية ـ الأمريكية بعد سنوات طويلة من العداء والشك المتبادل. ولإثبات هذه النقطة، أخبر الأسد نيكسون بما حصل في الليلة السابقة: «البارحة عندما قابلتكم، سألني ابني: أليس هذا الرئيس نيكسون ذاته الذي يعطي أسلحة لإسرائيل؟ هذا ما اعتاد سماعه من المذياع. قلت له نعم هذا هو، لكننا الآن أصدقاء.»[29]

إعادة بناء الجسور

في الثامن من شهر أيار عام 2002، بعد انقضاء سنتين على تولي السيد الرئيس بشار الأسد سدة الرئاسة، أعاد سيادته إلى دائرة الأرشيف في الرئاسة السورية ملفاً كان قد بقي على مكتب والده حتى اليوم الذي توفي فيه. واحتوى الملف على محضر اجتماع حافظ الأسد وريتشارد نيكسون. لقد ترك اللقاء الأول مع رئيس أمريكي وما له من أهمية تاريخية أثراً عميقا في نفس الأسد.

وفي عودة إلى حزيران 1974، قطع الرئيسان الأسد ونيكسون ووزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر اجتماعهم المغلق للإدلاء بتصريح تاريخي من أمام قصر الروضة. تحدث الأسد أولاً، مرحباً بعودة العلاقات الدبلوماسية بين سورية والولايات المتحدة بعد قطيعة دامت سبع سنوات:

> «كان استقبال السيد ريتشارد نيكسون رئيس الولايات المتحدة في دمشق فرصة جيدة لتبادل وجهات النظر حول العلاقات الثنائية وقضايا الشرق الأوسط. إن كثيراً من القيم الحضارية والإنسانية تجمع الشعبين الأمريكي والعربي السوري. وإنه لمن الطبيعي أن

يشكّل المواطنون الأمريكيون من أصل سوري أحد جسور التفاهم التي ستعبّد الطريق نحو مرحلة جديدة من العلاقات بين شعبينا، علاقات مبنيّة على المصالح المشتركة والاحترام المتبادل لاستقلال كل طرف وسيادته»[30].

كما دعا الأسد إلى التعاون بين البلدين في كل المجالات، مرحبا بالجهود التي بذلتها الولايات المتحدة لتحقيق فصل القوات في مرتفعات الجولان، وأعاد تأكيد الرؤية السورية لعملية السلام:

«إن اتفاق فصل القوات والتفاهمات بيننا تمثِّل خطوة أولى وجزءاً لا يتجزأ من تسوية عادلة وشاملة للقضية. ولكن لا يمكن التوصل إلى هذه التسوية دون انسحاب إسرائيل من كامل الأراضي العربية المحتلة وتأمين الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني تماشياً مع تفهّمنا لقرار مجلس الأمن 338 الصادر في 22 تشرين الأول 1973، وقد أبلغنا تفهّمنا هذا للأمم المتحدة في الوقت المناسب»[31].

قابل نيكسون دعوة الأسد لتحسين العلاقات الثنائية بالمثل، ولكنه، كما في غرفة الاجتماع، أبقى على الموقف الأمريكي من مستقبل عملية السلام عامّاً ـ وغامضاً ـ قدر المستطاع في قوله:

«ستعمل الولايات المتحدة مع سورية عن قرب لتحقيق سلام عادل ودائم تطبيقاً لقرار مجلس الأمن الدولي 338. وسيحمل هذا السلام حقبة جديدة من النمو والازدهار والتقدم للشرق الأوسط[32].»

ختم نيكسون تصريحه بدعوة الرئيس السوري لزيارة واشنطن، لكن الأسد لم يرد على الدعوة أمام الصحفيين، ولا عندما عاد إلى مكتبه لإكمال الاجتماع

المغلق. وتوجّه الرئيسان وكيسنجر إلى الطابق العلوي لمعاودة المحادثات. وتخبرنا سجلات الاجتماعات أن جوَّ الابتهاج لم ينتقل معهم إلى غرفة الاجتماع، كما أن دعوة نيكسون للأسد لزيارة واشنطن لم تجعل الأسد أكثر مرونة، بل على العكس، إنّ ما تَبع المؤتمر الصحفي كان مجابهة من النوع الذي اعتاد عليه كيسنجر مع الرئيس السوري.

لم يبقِ حافظ الأسد محضر الاجتماع على مكتبه ثلاثة عقود كذكرى متميّزة للحظة مهمة في تاريخ سورية، بل ليذكره أيضاً بخداع أمريكا والطريق الصعب الذي وَجَبَ عليه خوضه نحو سلام بدا دوماً بعيد المنال.

لا ضمانات

خلال المفاوضات المضنية لأجل فصل القوات في مرتفعات الجولان، حاول حافظ الأسد، ولكن دون جدوى، انتزاع ضمانة من الرئيس الأمريكي بوساطة كيسنجر حول الخطوة التالية من عملية السلام. لقد أراد من الولايات المتحدة أن تضمن لسورية أن عملية السلام ستنتهي بانسحابٍ إسرائيلي شامل ومتزامن من مرتفعات الجولان وكامل الأراضي العربية المحتلة. لم يُضيِّع الأسد لحظة واحدة بعد عودته إلى مكتبه لإكمال الاجتماع، وواجه نيكسون بالأسئلة الصعبة: ما مدى سرعة طريقة السلام المعتمدة على التدرج خطوة ـ خطوة فيما يتعلق بقضايا فلسطين والقدس والانسحاب الإسرائيلي الشامل من الأراضي العربية المحتلة؟ ولماذا يتعذّر عقد مؤتمر جنيف للسلام قبل شهر أيلول؟ التزم نيكسون بالصمت وتسلَّم كيسنجر زمام الحديث، وأخذ يكرّر الحجج الأمريكية المعتادة لتأخير عملية السلام. ففي بادئ الأمر، على العرب أن يتفقوا بعضهم مع بعض، كما أن الوزارة الجديدة في إسرائيل لا تملك ما يكفي من الثقة بالنفس، ولا تزال الإدارة الأمريكية بحاجة إلى مزيد من الوقت للتواصل مع الفلسطينيين وهذا لن يحصل قبل شهر آب[33]. وفيما يخصّ كيسنجر، تأتي

قضية الحدود على رأس جدول الأعمال، وتتبعها القضية الفلسطينية، وأخيراً القدس. وهنا تدخل نيكسون ليعد بأن سياسة الخطوة ـ خطوة لن تمتد أكثر من السنتين ونصف المتبقيتين في ولايته؛ إلا أن نيكسون سيستقيل من منصبه الرئاسي بعد أقل من شهرين[34].

بدأ الأسد بالقضية الأهم لبلده، وسأل نيكسون وكيسنجر إن كان نقاش موضوع الحدود ـ أي الانسحاب الإسرائيلي ـ سيحصل في وقت واحد على المسارات السورية والمصرية والأردنية. وبكلّ صراحة، ردّ كيسنجر أنه سيقترح الخوض في مسارات ثنائية منفصلة؛ الأمر الذي فسّره الأسد انسحاباً من جبهة دون أخرى ـ كما حصل عندما وقّعت مصر اتفاق فصل القوات ثنائياً مع إسرائيل وبمعزل عن سورية. التفت كيسنجر نحو نيكسون وقال متبسّماً: «يبدو أن فخامة الرئيس الأسد مقتنع أن هناك فعلا اتفاقية مع مصر.»[35] ثم عاد ونظر إلى الأسد وقدم الوعد الفارغ نفسه بأن الولايات المتحدة لا تسعى إلى جعل العرب ضدّ بعضهم بعضاً، ولا تريد أن يسترجع أي بلد عربي أراضيه قبل الآخر. لم يقتنع الأسد وأخبر ضيوفه الأمريكيين أن السادات أكد له أنه لن يقبل أي انسحابات تدريجية أو منفصلة[36]. ولم تكن تلك المرة الأولى أو الأخيرة التي كذب فيها الرئيس المصري على الأسد. وبرغم ذلك، بقي الانسحاب الشامل والمتوازي هو المطلب العربي الرسمي المعلن حتى ذاك الحين. وعلى هذا الأساس طلب الأسد من نيكسون أن يعده ألاّ يتم التفاوض على أي اتفاقات ثنائية بين دول عربية وإسرائيل، فهي لا تخدم إلا مصالح الأخيرة واستراتيجيتها. لكن نيكسون بقي صامتاً، متيحاً المجال لكيسنجر الذي أكد أن الولايات المتحدة لا تستطيع سوى مناقشة استراتيجية عامة في ذاك الحين. لم يكن لدى نيكسون ما يضيفه سوى الطلب من الأسد أن يثق بوزير خارجيته.

لكن عزيمة الأسد لم تَلِنْ، واستمر بالضغط للحصول على إجابة من

نيكسون حول مسألة الانسحاب الإسرائيلي، وأخيراً أجابه الرئيس الأمريكي، مشبّهاً استراتيجية الخطوة ـ خطوة الأمريكية تجاه الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي العربية وكأنها دفع شخص ما عن حافة هاوية حيث: «لا يمكنك أن تقول له إن الهدف النهائي هو الإلقاء به في الهاوية، لأنه سيتوقف عن السير.»[37] فمن وجهة نظر نيكسون، يجب على سورية والأسد أن يثقا بالولايات المتحدة لمواصلة عملية السلام حتى النهاية. لم يرتح كيسنجر لهذا التشبيه الذي قد يفسره الأسد بأنه ضمانة أمريكية لانسحاب إسرائيلي شامل إلى حدود الرابع من حزيران عام 1967[38]. ولهذا طلب من الأسد ألا يشرك نظراءه العرب في هذا التصريح[39]، ثم قام بتمييع كلمات نيكسون من خلال تأكيده أن الإدارة الأمريكية لن تبدأ بمناقشة الخطوات المقبلة على جبهة الجولان قبيل انتخابات الكونجرس الأمريكي في تشرين الثاني 1974. ولو أجبروا إسرائيل على القيام بانسحاب جديد من الجولان فسيتعرض هو ونيكسون وحزبهما لخسارة في هذه الانتخابات[40].

وصل الأسد إلى حدّ الانفعال الشديد فقال:

«ليس باستطاعتي، ولا باستطاعة أحد أن ينتظر. ليس هذا الأمر بيدي الآن. إذا طالت المدة سنخوض حرباً. أرجو أن يكون واضحاً أنه إذا حدثت خطوة في مصر دون أن تحدث مثيلتها في سورية، فلن أتحرك بعدها خطوة واحدة. لن نذهب إلى مؤتمر جنيف، ولن نوافق على أية اتفاقية سلام، ولن يقوم سلام في الشرق الأوسط، وهذا كلام شرف! وأنا أعتقد أنه إذا كان هناك أي عربي يقبل بحلول منفردة فإن هذا خيانة. السادات أقسم عشرين يميناً أنه لن يفعلها. بصراحة نحن وافقنا فقط على اتفاق فصل قواته بصفة منفردة لأن جيشه كان محاصراً. . .وليس بسبب ما تقوله الصحف (الإسرائيلية)! وعندما تقول إنك لن تتحرك على الجبهة

السورية ـ فهذا يعني وجود إمكانية تحرك منفصل ما على الجبهات الأخرى. . .إن استراتيجيتهم (الإسرائيليين) هي تفتيت العرب، ونحن بصراحة لن نسمح لهم بتنفيذ هذا المخطط. ولو أنهم انسحبوا متراً واحداً من سيناء دون انسحابهم من مرتفعات الجولان في الوقت ذاته، فسنقوم بتعطيل جهود السلام كلها».[41]

حاول نيكسون وكيسنجر تهدئة الرئيس السوري دون إعطاء أي ضمانة ملموسة حول انسحاب إسرائيلي شامل ومتزامن من الأراضي العربية المحتلة كافة، ولكن الأسد كان قد سئم من الوعود الغامضة والفارغة من أي معنى، كما أنه تعب من سماع الحجة القائلة بضرورة المضي ببطء خوفاً على مشاعر الإسرائيليين. وذكّر ضيفيه أنه لولا الدعم الأمريكي لما تمكنت إسرائيل من احتلال أي أرض عربية، وأنه عندما تأمر الولايات المتحدة إسرائيل بالانسحاب إلى حدود 1967 فإنها سترضخ[42].

حاول الرئيس السوري مرة أخيرة مع نظيره الأمريكي قائلاً: «ما فهمته هو أن الرئيس نيكسون ملتزم بالسلام العادل.»[43] وخشي كيسنجر أن يتمكن الأسد من انتزاع التزام ما من نيكسون، فقاطعه حينما حاول الرد على الأسد مذكّراً إياه بأنهما تأخرا عن موعد الطائرة. كان على وزير الخارجية إنهاء اللقاء، فالحجج الأمريكية أصبحت مكرّرة وبلا جدوى، ولم يكن هناك طريقة لصد اندفاع الأسد. كتب محرر المحضر في السطر الأخير في الصفحة الرابعة والخمسين والأخيرة من المحضر: «يصرّ كيسنجر على ضرورة الرحيل. . .ينتهي اللقاء»[44].

ولاحقا في ذلك اليوم، كتب ريتشارد نيكسون في مفكرته هذه الكلمات لوصف مجابهته مع الأسد:

«لقد تجاوز الأسد ما توقعته منه بناء على محادثاتي مع هنري. لقد

كان، كما قال هنري، مفاوضاً صعباً، لكن لديه الكثير من السحر والغموض وقدرة التحمّل الهائلة، يضحك بسهولة، ويمكنني أن أرى أنه سيكون قائداً ديناميكياً لو أبقى على قدرته هذه في الحكم على الأمور. في محادثتنا الأخيرة، اعترض بشدّة على فصل مسارات السلام. لكنه، من جهة ثانية، كان منطقياً تجاه مقارباتنا الإقليمية الأخرى. خلاصة القول، هو رجل ذو معدن أصيل، وفي عمره هذا ـ 44 عاما ـ إن استطاع تفادي إطلاق أحدهم النار عليه أو التعرّض لانقلاب، فسيكون قائداً ذا شأن في هذا الجزء من العالم.»[45]

خاتمة

بعد مضي سبعة عشر عاماً على قمة دمشق التي جمعت حافظ الأسد ونيكسون، عاد الأسد مجدداً ليكون لاعباً محورياً في دبلوماسية السلام الإقليمية والدولية. فبعد أيام من انتهاء حرب الخليج، سارع وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر لزيارة دمشق بغرض التحضير لعقد مؤتمر سلام آخر بين العرب وإسرائيل، وهذه المرة في مدريد. لم يتغير النص كثيراً ولا اللاعبون، إذ قال الأسد لبيكر:

«كان نيكسون جالساً هنا، في مكانك، والدكتور كيسنجر كان جالساً هنا مكان جمال هلال (المترجم). لقد خضنا نقاشات رائعة، وبعد جدال طويل، أقنعنا نيكسون وخرج من الاجتماع مؤيداً للموقف السوري. إنه شخص صادق مع نفسه ويحترم قناعاته. وقد أصدرنا بعد لقائنا تصريحاً يقول إن آراءه متوافقة مع ما قالته الأمم المتحدة حول النزاع العربي ـ الإسرائيلي. ثم عاد إلى الولايات المتحدة وتفجّرت فضيحة ووترغيت، وفجأة اختفى

نيكسون. كانت هنالك حملة سريعة ضده، ونحن نعتقد أن هذا الأمر كان متعلّقاً إلى حدّ بعيد بموقفه تجاه السلام في المنطقة[46].

في العقود التي تلت حرب تشرين الأول لم يلِن الموقف السوري ولم تتراجع سورية عن مطالبها بسلام عادل وشامل يُرجِعُ كلّ الأراضي المحتلة إلى أصحابها، ويعيد الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، ويضمن التطبيق الكامل لقرارَيْ مجلس الأمن الدولي 242 و338. غير أن أنور السادات وهنري كيسنجر والمسؤولين الأمريكيين الذين خلفوه مثّلوا أكبر تحدٍّ للأسد، ولسياسته، وطموحاته. وخرقت سلسلة من الاتفاقات العربية المنفصلة مع إسرائيل، بداية باتفاق سيناء 2، الصف العربي، وتوسّعت الهوة بين تطلعات الرئيس السوري والواقع. ألقى الأسد باللوم حول هذا الشرخ في الصف العربي على رفيق السلاح السابق أنور السادات بوجه أساسي. كما أن ما قاله لجيمس بيكر يشي بأن الأسد ألقى باللوم أيضاً على كيسنجر لإفراغه عملية السلام من مضمونها وتوجيهها لمصلحة إسرائيل.

وبغض النظر عن الصدامات المتكررة مع السياسة الأمريكية في المنطقة، تمكّن الأسد من بناء علاقات شخصية مميّزة مع عدة رؤساء أمريكيين قابلهم، وتوحي كلماته لبيكر بأنه أُعجب بنيكسون ـ ولربما وثق به، إذ رأى في كلماته التزاماً أدى في النهاية إلى سقوطه من سدة الرئاسة. كما نشأت بين الأسد وكل من جيمي كارتر وبيل كلنتون صلات وثيقة. وعندما زار كارتر دمشق عام 1983، بعد سنتين من مغادرته سدة الرئاسة، اعترف للرئيس السوري بأن اتفاقات كامب ديفيد لم تكن «السلام الذي سعى لتحقيقه.» وكذلك وثق الأسد بكلنتون الشاب واستشعر صدقاً في تصميمه على تحقيق السلام في الشرق الأوسط. لكن فريق كلنتون افتقد هذا الإخلاص في السعي لتحقيق سلام عادل، وسعى أفراده عوضاً عن ذلك إلى إنجاز اتفاقات منفصلة تحاكي سيناء 2 وكامب ديفيد.

إن هذه اللقاءات بالرؤساء الأمريكيين علّمت الأسد أن الصدق والالتزام

الشخصي وحدهما لا يكفيان عندما يتعلق الأمر بسياسات القوى الكبرى، وأن المؤسسة السياسية الأمريكية ستبقى ملتزمة بدعم إسرائيل رغم استمرار احتلالها الأراضي العربية. وكذلك أعطت هذه اللقاءات دافعا كبيراً لسعي الأسد نحو تحقيق الوحدة العربية؛ لأن تحقيق أي شيء ذي جدوى في التعامل مع الأمريكيين والإسرائيليين، يتطلّب موقفاً تفاوضياً عربياً موحداً. غير أن هذه الوحدة العربية بقيت سراباً بعيداً طوال العقود التي تلت حرب تشرين الأول، كما بقي مثلها السلامُ العادل والشامل المنشود الذي بحث الأسد طويلاً عنه.



الرئيسان الأسد ونيكسون في قصر الروضة، 16 حزيران 1974.



الرئيسان الأسد ونيكسون وكيسنجر، في نادي الشرق في دمشق، 15 حزيران 1974.



الرئيسان الأسد ونيكسون يعلنان عودة العلاقات الدبلوماسية بين سورية والولايات المتحدة في مؤتمر صحفي أمام قصر الروضة في دمشق، 16 حزيران 1974.



الرئيسان الأسد ونيكسون في قصر الضيافة في دمشق، 15 حزيران 1974 .



استقبال الرئيس نيكسون في مطار دمشق الدولي من قبل شابات منتسبات
إلى اتحاد شبيبة الثورة، 15 حزيران 1974.



الرئيس الأسد وعقيلته السيدة أنيسة مخلوف يستقبلان الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون وعقيلته بات نيكسون في مطار دمشق الدولي.

مراجع الفصل الثامن

(1) Richard M. Nixon, *RN: The Memoirs of Richard Nixon* (New York, 1978), p.

(2) The American Presidency Project, *Remarks of the President and President Hafez al Assad of Syria at a State Dinner in Damascus*, 15 June 1974. http://www.presidency.ucsb.edu/ws/index.php?pid=4255

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

(5) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 91, p. 378.

(6) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 91, p. 377.

(7) المصدر نفسه.

(8) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1127.

(9) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1124.

(10) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1126.

(11) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1127.

(12) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1129.

(13) المصدر نفسه.

(14) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1128.

(15) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1131.

(16) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1133.

(17) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1134.

(18) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ نيكسون، 16 حزيران 1974، ص4.

(19) المصدر نفسه.

(20) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ نيكسون، 16 حزيران 1974، ص3-4.

(21) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ نيكسون، 16 حزيران 1974، ص6.

(22) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ نيكسون، 16 حزيران 1974، ص7.

(23) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ نيكسون، 16 حزيران 1974، ص12.

(24) المصدر نفسه.

(25) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ نيكسون، 16 حزيران 1974، ص16.
(26) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ نيكسون، 16 حزيران 1974، ص17.
(27) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ نيكسون، 16 حزيران 1974، ص20.
(28) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ نيكسون، 16 حزيران 1974، ص23.
(29) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ نيكسون، 16 حزيران 1974، ص25.
(30) The American Presidency Project, *Remarks About Resumption of Diplomatic Relations Between the United States and Syria*, 16 June 1974. http://www.presidency.ucsb.edu/ws/index.php?pid=4256
(31) المصدر نفسه.
(32) المصدر نفسه.
(33) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ نيكسون، 16 حزيران 1974، ص 33 ـ 38.
(34) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ نيكسون، 16 حزيران 1974، ص36.
(35) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ نيكسون، 16 حزيران 1974، ص39.
(36) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ نيكسون، 16 حزيران 1974، ص40.
(37) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ نيكسون، 16 حزيران 1974، ص43.
(38) Henry A. Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston, 1982), p. 1135.
(39) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ نيكسون، 16 حزيران 1974، ص43.
(40) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ نيكسون، 16 حزيران 1974، ص44.
(41) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ نيكسون، 16 حزيران 1974، ص46-49.
(42) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ نيكسون، 16 حزيران 1974، ص53.
(43) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ نيكسون، 16 حزيران 1974، ص54.
(44) المصدر نفسه.
(45) Richard M. Nixon, *RN: The Memoirs of Richard Nixon* (New York, 1978), p.
(46) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ بيكر، 23 نيسان 1991.

الفصل التاسع

سـلام ولـد ميـتاً

في التاسع من شهر آب من عام 1974 استقال ريتشارد نيكسون من رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية. وفي دمشق، لم يصدّق حافظ الأسد ما سمعه من أخبار. لقد كان يعتقد أنه أقنع نيكسون بالموافقة على تسوية شاملة للصراع العربي الإسرائيلي بناء على قرارَيْ مجلس الأمن 242 و338 اللَّذين ينصّان على انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية المحتلة كافة. وظن الأسد أن الإطاحة بنيكسـون تمّت نتيجـة هذا الالتـزام، لا بسـبب فضيحة ووترغيت بالتـأكيد. وكان يرى عقب لقـاء نيكسـون أنه لم يبقَ عليه تحمل دبلوماسـية الخطـوة ـ خطوة التي اتبعها كيسنجر، وسيتم التخلي عن مسارات السلام الثنائية، وأن تسوية شاملة باتت تلوح في الأفق. لكن، ومع التطورات الحاصلة في واشنطن، أصبح عليه التعامل مع رجل جديد في البيت الأبيض هو جيرالد فورد. عُيّن فورد نائباً للرئيس في خضم حرب تشرين الأول عندما استقال سبيرو أغنو بعدما طالته اتهامات بالفساد. وحينما شَغَلَ فورد مقعداً في الكونغرس، كان من أصدقاء إسـرائيل، إلا أن رؤيته لقضايـا الشـرق الأوسـط لم تكن واضحة[1].

وإذا كانت مغـادرة نيكسون المفاجئـة لمنصبه قد أثـارت قلق الأسـد، فإن مجيء فـورد الذي لم يكن واسع الخبرة في مجال السياسة الخارجية، طمأن هنري

كيسنجر إلى أنّ قبضته على الدبلوماسية الأمريكية ستتعزز سواء في الشرق الأوسط أو في غيره.

مع تولّي جيرالد فورد منصبه في البيت الأبيض، سعى كيسنجر للحفاظ على زخم الدبلوماسية الأمريكية في الشرق الأوسط. وفي البدء، كان عليه التأكد أن مصر السادات استكملت نقلتها من الفلك السوفييتي إلى دائرة النفوذ الأمريكي. لقد كان السوفييت قد قطعوا الواردات العسكرية عن السادات عقاباً له على انتقاله إلى المعسكر الآخر، على حين استمروا بتزويد السوريين بأحدث الأسلحة وبكميات ضخمة من الذخائر. وبينما كان الجيش المصري بعد عام من حرب تشرين الأول في حالة يرثى لها، عادت القوات السورية إلى التجهّز بمعدات حديثة فاقت ما كان لديها عشية الحرب. ومع هذا، لم يكنْ الكونغرس الأمريكي مستعداً للموافقة على تمويل مساعدة عسكرية أمريكية لمصر في صيف عام 1974 المضطرب، ولا سيما مع انعدام أي اتفاق بين مصر وإسرائيل سوى اتفاقية فصل القوات. وبرغم ذلك استطاع كيسنجر تأمين مساعدة مقدارها 200 مليون دولار من المملكة العربية السعودية، التي باتت تعوم على بحر من الأموال بعدما تضاعف سعر النفط عدة مرات، لتمويل صفقة سلاح لمصر. لكن السادات أيقن أن شحنات السلاح وحدها لن تقنع الضباط والعسكريين المصريين؛ وأنه بحاجة إلى اختراق دبلوماسي آخر من خلال تسوية تضمن عودة أراض جديدة في سيناء برعاية أمريكية. إنّ نصراً دبلوماسياً آخر فقط هو الذي يمكنه إثبات صحة المسار الذي أخذ السادات شعبه وجيشه باتجاهه بعد الحرب. ولكن من المؤكد أنّ الأسد لم يقتنع ولن يقتنع بهذا المسار. عندما عاد كيسنجر إلى المنطقة في تشرين الأول 1974، وجد السادات متحمساً لعقد اتفاق ثنائي جديد مع إسرائيل بغض النظر عما يريده أو يقوله بقية العرب، وخاصة حافظ الأسد. وذهب الرئيس المصري إلى حد التأكيد لكيسنجر استعداده للكذب على بقية القادة العرب أثناء قمتهم المزمع عقدها في الرباط، حيث

سيقول لهم إنّ مصر لن تتقدم منفصلة في عملية السلام، ولكنه وفي الوقت نفسه سيأذن للأمريكيين ببدء عملية التفاوض مع إسرائيل من تحت الطاولة[2].

الخيار الأردني

عقد كيسنجر خلال صيف عام 1974 عدة لقاءات مع مسؤولين إسرائيليين وعرب في واشنطن، وبينهم وزير الخارجية السوري، وكان الهدف المعلن لهذه المحادثات هو تبادل الأفكار حول كيفية المضي قدماً في عملية السلام. وكما كان متوقعاً، أصرّ السوريون على أن الخطوة القادمة يجب أن تكون تسوية شاملة تضمن انسحاباً إسرائيلياً كاملاً من كل الجبهات. ولكن كيسنجر توصل إلى استنتاج مغاير؛ إذ رأى أن الخطوة التالية يجب أن تكون في الضفة الغربية بين الأردن وإسرائيل، تماشياً مع استراتيجية عقد سلام منفصل مع كل بلد على حدة[3]. فبعد أن أنجز كيسنجر فصل القوات على الجبهتين المصرية والسورية، وجد أن الخطوة المنطقية التالية للدبلوماسية الأمريكية هي إنجاز اتفاق فصل قوات بين إسرائيل والملك الأردني حسين في الضفة الغربية، قبل إنجاز اتفاق ثان في سيناء. لقد رأى أن خطوة كهذه ستعزل منظمة التحرير الفلسطينية، التي عدّتها كل من الولايات المتحدة وإسرائيل منظمة إرهابية لأنها مدعومة من جانب السوفييت. ويتمّ هذا عن طريق جعل طرف أقل تطرّفاً -أي الملك حسين- يفاوض نيابة عن الفلسطينيين الرازحين تحت نير الاحتلال الإسرائيلي في الضفة الغربية[4]. إلا أن هذا «الخيار الأردني» كان صعب الإنجاز. فبدايةً، لم يحصل هناك أي قتال على طول الجبهة الأردنية خلال حرب تشرين الأول، ومفهوم فصل القوات الذي طُبّق على الجبهتين المصرية والسورية لم يكن ينطبق في الحالة الأردنية. وكان الخيار الأردني أيضا سيجبر رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد إسحاق رابين على التعامل مع المسألة الأكثر حساسية، ألا وهي حالة الفلسطينيين تحت الاحتلال[5]، كأول ملف له بعد توليه منصبه في قيادة بلد لم يكن يعترف حتى بوجود هوية فلسطينية مستقلة. لقد كانت إسرائيل تعدّ

الفلسطينيين شعباً عربياً يمكنه الإقامة في أي بلد عربي، ومن ثمّ تُلغي حقّ عودة اللاجئين إلى ديارهم وفكرة وجود دولة فلسطينية مستقلة. كما أن السادات بدوره، ونظراً إلى وضعه المتأزم، استاء من محاولة كيسنجر السعي لإبرام اتفاق إسرائيلي ـ أردني عوضاً عن القيام بخطوة جديدة في سيناء. غير أن المعارضة الأشرس للخيار الأردني جاءت من حافظ الأسد، الذي غدا يُعِدّ العدّة لخوض معركة سياسية لإفشال سياسة الخطوة ـ خطوة التي اتبعها كيسنجر.

زار وزير الخارجية الأمريكي دمشق مرتين خلال جولته في الشرق الأوسط في أوائل تشرين الأول 1974 لعقد لقاءات مع الأسد، الذي لم تعجبه كلمات فورد الغامضة التي نقلها إليه كيسنجر حول استعداد الولايات المتحدة لاتخاذ خطوات جديدة على المسار السوري[6]. كان الأسد أكثر قائد عربي عملاً من أجل تسوية شاملة؛ إذ أراد القضاء على الخيار الأردني بغية منع الأمريكيين من فتح مسار سلام ثنائي بين إسرائيل وبلد عربي آخر. وقد عمل أسابيع يحث القادة العرب على إعلان منظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني خلال قمتهم المرتقبة في الرباط. كما عمل على إصدار إعلان مماثل من الأمم المتحدة بدعم سوفييتي. لذلك لم يجد كيسنجر أي جدوى في محاولة إقناع الأسد بالخيار الأردني، وقام، عوضاً عن ذلك، باللجوء إلى تهديد دمشق. وعبّر عن ذلك محذّراً من أن منح هذه الصفة لمنظمة التحرير سيثير اللوبي اليهودي والسياسيين الأمريكيين المؤيدين لإسرائيل في واشنطن؛ مما سيؤدي إلى فوضى عارمة ولربما تجميد الدبلوماسية الأمريكية في الشرق الأوسط[7]. ومن ناحية أخرى، ادّعى كيسنجر أن الملك السعودي فيصل وافق على سياسة خطوة–خطوة، ومن ثَمَّ على الخيار الأردني[8]. لم يتزحزح الأسد، فقد سمع حجة «اللوبي اليهودي» مراراً ولم يبقَ لها أيّ تأثير في اتخاذه قراراته، أو في إثارة أيّ تعاطف منه تجاه معضلات كيسنجر الداخلية. وفي الواقع، إنّ تجميد دبلوماسية الخطوة ـ خطوة في الشرق الأوسط أصبح هدف

سورية الأساسي. وكان الأسد يعلم أنّ الملك فيصل ـ من بين كلّ القادة العرب ـ هو الداعم الأكبر لمنح منظمة التحرير هذه الشرعية في سبيل حرمان الملك حسين من حق التفاوض نيابة عن الشعب الفلسطيني[9].

لم يكن الخيار الأردني الذي أخفق هو خيار كيسنجر الوحيد؛ إذ كان في متناول يده اتفاق مصري ـ إسرائيلي آخر، وقد قال للأسد بصراحة إنّ رابين مستعد لعقد صفقة أخرى مع مصر إلا أنه يرفض رفضاً قاطعاً التزحزح شبراً واحداً عن الجولان. استنتج الأسد من حديث كيسنجر أن السادات بات مستعداً لتوقيع اتفاق ثنائي آخر مع إسرائيل بمساعدة الدبلوماسية الأمريكية، وما كان عليه إلا تحذير الوزير الأمريكي بصفة مباشرة: «نحن في سورية نعدّ أي جهود أمريكية لعقد اتفاقات منفصلة موجهة ضدنا وضد القضايا العربية.»[10] وأضاف بغضب أن الصراع صراع عربي ـ إسرائيلي وليس بين إسرائيل ومصر فحسب، ولا يحق للسادات القيام بأي خطوة خارج الإجماع العربي. أدرك الأسد جيداً أن كيسنجر سينقل هذه التحذيرات للرئيس المصري، وأتبعها بتهديد ضمني آخر، إذ على الولايات المتحدة ألاّ تأمل كثيراً بانخفاض أسعار النفط إن استمرت بدعم العدوان الإسرائيلي، وعلى كيسنجر ألاّ يفرح كثيراً بالوعود التي قطعها الملك فيصل لتخفيض الأسعار بنسبة [كبيرة]، لأن النفط والحرب في الشرق الأوسط مرتبطان معاً، ولا تلوح نهاية الصراع في الأفق[11]. فوجئ كيسنجر بهذه التهديدات، ولم يستطع سوى التهرب من سؤال الأسد إنْ كان السادات أخبر الأمريكي بأنه وقّع على اتفاقية مع سورية تضمن الكفَّ عن القيام بخطوات منفردة تالية في عملية السلام. وتحاشى الإجابة متذرّعاً بحجة تأخره عن موعد رحلته إلى الجزائر؛ لكن الوزير الأمريكي كان يدرك نيّات السادات الحقيقية[12].

عشية قمة الرباط، بدا أن الرئيس السوري مستعد للتصعيد بكل الوسائل المتاحة. لقد احتاج إلى خمسة أشهر حتى يردم الهوة التي سبّبها أوّل اتفاق لفصل القوات ووقّعته مصر منفردة، ورأى أن أي انقسامات أخرى بين العرب لا

تخدم سوى إسرائيل، ويجب منعها. إنه لن يسمح لمصر، الدولة العربية الأقوى والأكبر، أن تخرج بهذه السهولة من معادلة الصراع العربي ـ الإسرائيلي تاركة سورية وحيدة في ساحة القتال وعلى طاولة المفاوضات. ولذا قرر الأسد تعرية السادات ومناصريه في الرباط بالدعوة إلى التزام عربي جامع بتسوية شاملة، وعودة انعقاد مؤتمر جنيف للسلام، ومشاركة منظمة التحرير الفلسطينية في العملية السلمية. لم يكن أمام كيسنجر والسادات سوى الانحناء أمام هذه العاصفة التي أثارها الأسد، آملَيْن في الوقت ذاته أن يخفق الرئيس السوري في تحقيق هذا الإجماع العربي[13].

قمّة الرباط والأسد

تُعدُّ قمة الرباط التي عقدت في الرابع والعشرين من شهر تشرين الأول عاماً مفصلياً هاماً في التاريخ العربي المعاصر. لقد اعترف القادة العرب فيها بالإجماع بأنّ منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني. ولم يشذّ عن هذا الإجماع إلا الملك حسين، ولكنه فشل في إبداء أي مقاومة جادّة. وبعد أسبوعين، اعترفت الأمم المتحدة بمنظمة التحرير ممثلاً شرعياً للشعب الفلسطيني وتم إعطاؤها صفة المراقب. احتفل ياسر عرفات بهذا الإنجاز غير المسبوق بخطاب مطوّل أمام المشاركين في الدورة التاسعة والعشرين للجمعية العامة للأمم المتحدة؛ مما أثار سخط كيسنجر ورابين والملك حسين. وكذلك رفض القادة العرب المجتمعون في الرباط رفضاً باتاً أي محاولات لعقد اتفاقات ثنائية بين أيّ دولة عربية وإسرائيل، وأكدوا التزامهم بالتسوية الشاملة في المنطقة وتطبيق قرارَيْ مجلس الأمن 242 و338. بقي السادات صامتاً ولم يعترض على هذا الإجماع، على حين احتفل الأسد بهذا النصر السياسي؛ إذ تبنى العرب مجتمعين الموقف السوري تجاه عملية السلام، وأصبح هذا هو الموقف العربي الرسمي.

وصل كيسنجر إلى دمشق في السابع من تشرين الثاني ليلتقي الأسد الذي كان مزهواً بانتصاره، واعترف الوزير الأمريكي على الفور أن مقررات الرباط هي ضربة قاسية لدبلوماسية الخطوة-خطوة التي يتبنّاها. وقضى القرار بشأن منظمة التحرير الفلسطينية قضاء مبرماً على الخيار الأردني، فلم يبقَ بوسع الملك حسين التفاوض على اتفاق لفصل القوات في الضفة الغربية وأصبح هذا الأمر خارج الحسابات الدبلوماسية الأمريكية. ثم إنّ القرار العربي حول منظمة التحرير فجّر سيلاً من الهجمات على سياسة كيسنجر في الشرق الأوسط في الولايات المتحدة الأمريكية. لم يُبدِ الأسد أي تعاطف مع معضلات ضيفه: «لم أقم بما قمت به في الرباط كي أحرك الأمور إلى الأمام، بل لإيقاف العملية برمتها.»[14]

على الرغم مما حقّقه الأسد في الرباط، فقد ظلّ مقتنعاً بأنه لو سنحت الفرصة مجدداً للسادات، لوقّع على اتفاق منفصل آخر مع إسرائيل. ومع خروج الأردن من الصورة، رأى السادات فرصة لدفع كيسنجر إلى التركيز على إنجاز اتفاق إسرائيلي-مصري آخر؛ إذ كان مستعداً للتخلي عن الإجماع العربي الذي ادّعى الموافقة عليه في الرباط في سبيل تحصيل انسحاب جزئي آخر من سيناء. وعليه، احتاج الأسد إلى تصعيد الموقف، فسعى إلى تأخير تجديد مهمة الأندوف (أي: قوات المراقبة والفصل التابعة للأمم المتحدة) في الجولان، والتي تحتاج إلى تجديد من خلال مجلس الأمن كلّ ستة أشهر. وبعد يوم واحد من مغادرة كيسنجر دمشق، أبرق إلى الأسد بلغة ملؤها التهديد قائلاً: «طلب مني رئيس الوزراء رابين أن أؤكد لك أنه لن يكون هنالك أي هجوم إسرائيلي استباقي في حال التمديد للأندوف[15].» لم ينتهِ الأسد من قراءة البرقية حتى سارع في إملاء الجواب على مساعده: «أولاً، هذه الرسالة غير مقبولة. ثانياً، الشعب في سورية، ومعه الأمة العربية، لا يقبل ولا يسمح بأي تهديد من أحد.[16]» وُضعت القوات السورية في حالة جاهزية عالية، واستعدت الوحدات القتالية على طول خط الفصل لمعركة جديدة، فأسرع كيسنجر إلى تدارك

الموقف واعتذر للأسد عن اللغط الحاصل حيث ادّعى أنه سعى إلى طمأنة الأسد لا إلى تهديده[17].

استمر الخلاف حول الأندوف شهراً آخر، وعملت سورية والاتحاد السوفييتي عن كثب لتعطيل دبلوماسية كيسنجر. ومع نهاية عام 1974، سادت حالة من الفتور في العلاقات السوفييتية ـ الأمريكية. وفي كانون الثاني 1975 رفض الاتحاد السوفييتي عرضاً أمريكياً بمنحه ميزات تجارية هامة بسبب المطالب السياسية التي أرفقها الأمريكيون، وخصوصاً ما تعلق منها بالسماح بالهجرة اليهودية من الاتحاد السوفييتي[18]. وبعد مدة قصيرة، وصل وزير الخارجية السوفييتي أندريه غروميكو إلى دمشق وأصدر بياناً مشتركاً مع الأسد داعياً فيه إلى استئناف مؤتمر جنيف للسلام بمشاركة كلّ الأطراف، بما فيها منظمة التحرير الفلسطينية. وفي الشهر ذاته، تسلمت سورية دفعة مساعدات مالية سعودية قدرت بـ 350 مليون دولار؛ مما أظهر مدى التزام الملك فيصل بموقف الأسد الداعي إلى تسوية شاملة في المنطقة خلافاً لما يريده السادات من اتفاقات ثنائية[19]. حاول الرئيس المصري يائساً خلق مجال أوسع للمناورة له ولكيسنجر، فأكد للأسد مجدداً أنه لن يقبل بانسحاب إسرائيلي من سيناء دون خطوات مماثلة في الجولان والضفة الغربية والقدس، إلا أن الرئيس السوري لم يكنْ ليقبل بسهولة تصريحات كهذه[20]. لقد كان السادات يفاوض من تحت الطاولة ويقدم العروض مقابل اتفاق آخر في سيناء؛ إذ أراد انسحاباً إسرائيلياً إلى ممرات الجدي ومتلا بعمق حوالي 80 كيلومتراً شرق قناة السويس، ومن حقول أبو رديس النفطية[21]. وقدّم رابين مقابل هذه الانسحابات البسيطة لائحة مطالب لم يستطع السادات تحمّلها رغم استعداده لتقديم التنازلات. فقد طلب رابين من مصر، بواسطة كيسنجر، أن تغدو كل المناطق التي ستنسحب منها إسرائيل منزوعة السلاح، وأن تلتزم مصر بأن لا تشارك بقية الدول العربية في أي حرب مستقبلية مع إسرائيل، وإنهاء المقاطعة الاقتصادية والشائعات والدبلوماسية

العدائية، وإعطاء السفن الإسرائيلية حقّ المرور عبر قناة السويس، وأن تمتنع مصر عن استيراد السلاح بكميات كبيرة من الاتحاد السوفييتي. وأخيراً، طلبت إسرائيل من مصر إعلان انتهاء حالة العداء مع إسرائيل[22].

أدى تعنت رابين والهجوم السوري الكاسح على المبادرات الأمريكية إلى تعطيل الدبلوماسية الأمريكية في المنطقة، وإحباط كيسنجر الذي خرج باستنتاج أن «المنطقة بحاجة إلى مدّة من الزمن حتى تنجلي تداعيات قمة الرباط بوجه كامل.[23]»

دبلوماسية الفشل

عاد كيسنجر إلى الشرق الأوسط في آذار 1975 بعد مضي أربعة أشهر على قمة الرباط بهدف التوصل إلى اتفاقٍ ثانٍ لفصل القوات بين مصر وإسرائيل. وبدا أنّ الضغط المشترك والمحتمل من قبل الأسد وفيصل على السادات لإنجاز خطوة موازية في الجولان يمثّل التهديد الأكبر لإمكانية إنجاز هذا التفاهم. وعليه، كان استرضاء الأسد الهدف الثاني من حيث الأهمية على لائحة أهداف جولة كيسنجر، غير أن الرئيس السوري كان بعيداً عن قبول أيّة مساومة. وفي اللحظة التي جلس فيها الرجلان لبدء اجتماعهما في التاسع من آذار، بدأ الأسد بالتلويح بالحرب؛ فالصورة كانت واضحة له ولم تكن لديه ذرة تفاؤل. لقد أثبتت الأحداث التي تلت حرب تشرين الأول أن العمل العسكري هو السبيل الوحيد لإنهاء الصراع العربي ـ الإسرائيلي. وفي رأي الأسد، بدا وكأن العرب يستجدون الحلّ بعد حرب تشرين الأول، وأضاف مستغرباً: «لماذا نستجدي؟ هل سنموت إن لم نسترجع خمسة كيلومترات في الجولان اليوم أو غداً؟ أبداً! نحن لسنا مستعجلين[24].» رأى الأسد أن على إسرائيل إدراك حقيقة أنها لا يمكن أن «تفوز» بكل شيء في الشرق الأوسط، لكن قوة اللوبي اليهودي في واشنطن تعطيها شعوراً بأن ذلك ممكن، وهو متيقّن من أن الولايات المتحدة

ستدعم إسرائيل في أيّ صراعٍ مقبل، لكنه توقع ألا يستمر هذا الدعم إلى الأبد. إنّ إسرائيل عبء ثقيل على الأمريكيين، وقد أثبتت التجارب أنهم لا يستطيعون تحمل الأعباء مدة طويلة. لقد تخلت الولايات المتحدة عن أصدقائها في فيتنام، والتي حاربت من أجلهم سنوات، وها هي اليوم تتركهم لمصيرهم. لقد تعمّد الأسد الضرب على هذا الوتر الحساس؛ ففي تلك المرحلة كانت فيتنام الجنوبية، حليفة أمريكا، تتهاوى مع تقدم قوات فيتنام الشمالية، بعد أقل من ثلاث سنوات من اتفاق السلام الشهير الذي عقده كيسنجر مع وزير خارجية فيتنام الشمالية لي دوك تو، والذي احتُفِيَ به على أنه أنهى الحرب وضمن السلام في تلك المنطقة.

فشل كيسنجر فشلاً ذريعاً في محاولة استرضاء الأسد في ذلك الاجتماع، إذ قال للرئيس السوري بما أن عام 1976 هو عام انتخابات رئاسية في الولايات المتحدة، فلن تستطيع إدارة فورد تحقيق أي شيء على الجبهة السورية، وهذا يعني أنه لن يحصل انسحاب إسرائيلي من مرتفعات الجولان خلال السنتين المقبلتين. توقف الأسد عن التلميح بالحرب وغدا يهدد بها مباشرة: «لهذا قلت لإخوتنا العرب إنّ علينا أن نسخّن الجبهات ونبدأ حرب استنزاف!»[25]

عاد وزير الخارجية الأمريكي إلى دمشق في الخامس عشر من شهر آذار بعد إخفاقه في التوصل إلى اتفاق بين مصر وإسرائيل، غير أن الأسد كان لا يزال مقتنعاً أن الاتفاق قد أنجز في السرّ، ولذا استمر في حملته للدفع باتجاه تسوية شاملة على المسارات السورية والمصرية والفلسطينية. لم تبقَ لدى كيسنجر أي خيارات للتعامل مع السوريين، فقام بتقديم عرض مفاجئ طلب من الأسد إبقاءه سرياً؛ «لأنّ رابين لم يكن يعلم أن «كلماته ستصل إلى الأسد[26].» لقد أخبر رئيس الوزراء الإسرائيلي كيسنجر منفرداً ودون أي نص مكتوب أن القرار الإسرائيلي ببناء مستوطنات في مرتفعات الجولان كان خطأً فادحاً وأظهر التذمّر لدفعه ثمن أخطاء من سبقوه، وأن فصل القوات لم يحل أيّاً من المشكلات

العالقة بين سورية وإسرائيل. اقترح رابين القيام بخطوة نحو السلام مع سورية من خلال اعتراف إسرائيل بحدود عام 1967، ثم الانسحاب إلى «خط دفاعي جديد لعموم الإسرائيليين» الذين يخشون دوماً من بقاء سهل الحولة معرضاً للهجمات[27]. لكن كيسنجر أصرّ على أن النقاش كان فلسفياً ولم يتم رسم أي خرائط، كما أن أفكار رابين لا تعبّر عن سياسة الوزارة الإسرائيلية، ولا يعلم كيسنجر هل سيحاول رابين إقناع مجلس وزرائه بها. وبغضّ النظر عن كل هذه المحاذير، رأى الأسد شيئاً من الإيجابية فيما سمعه، وأصرّ على كيسنجر أن يقدّم جدولاً زمنياً، إلا أن الأخير تهرّب وعاد ليؤكد أن الولايات المتحدة لا تستطيع إنجاز شيء على الجبهة السورية قبل عام 1977، أي إلى ما بعد الانتخابات الرئاسية الأمريكية. قاطعه الأسد بحدّة وعاد للتهديد بحرب. وهنا لمّح كيسنجر بمهارة إلى الضمانات التي قدمها السادات للأمريكيين قبل ما يقارب العام ـ بأن لا يساعد سورية إن هي أشعلت حرباً أخرى مع إسرائيل ـ وكان هذا بمثابة تحذير للأسد أنه إذا اختار الذهاب إلى حرب من دون مصر فسيعاني «انتكاسة خطيرة.»[28]

أخفق كيسنجر في محاولته الثانية لتهدئة الأسد إخفاقاً ذريعاً، وعاد الرجلان إلى المربع الأول، وجمع كيسنجر أوراقه وهمّ بالخروج من قاعة الاجتماع. وبينما كان الجميع عند باب مكتب الأسد، استأذن مساعد كيسنجر ومترجمه عيسى الصباغ وخرج، على حين دار الحديث المقتضب التالي بين الوزير والرئيس السوري:

> «الأسد (بالإنكليزية): أتمنى أن تكون إنكليزيتي واضحة. في هذه المنطقة لا شيء ثابت، كل شيء متحرك، كل يوم هناك شيء جديد، وهذا الشيء الجديد سيترك أثره بالتأكيد في كل حركة لنا ولكم وللجميع.
>
> كيسنجر: لكن بعض الأشياء الجديدة من صنعكم.

الأسد: نعم، هذا صحيح، غداً أو بعد غد نرى ما يحدث، أنا مضطر، وليس هناك سبيل آخر.[29]

كان الأسد يشير إلى إعلانه قبيل بدء جولة كيسنجر المكوكية الأخيرة عن خطة لإنشاء قيادة عسكرية وسياسية موحدة بين سورية ومنظمة التحرير. فمع خروج مصر المرتقب من معادلة الصراع مع إسرائيل كان الأسد يتطلع إلى بديل من سياسة الجبهتين، التي سادت التفكير والتخطيط السياسي والعسكري السوري خلال السنوات الثلاث الأولى من حكمه. ولكنه لم يستطع التحالف مع العراق لملء هذا الفراغ الاستراتيجي، فجار سورية البعثي الغني بالنفط لم يستجب لدعوته. لقد عمّق الخلاف حول مضي سورية في فصل القوات الانقسام القديم بين الرفاق البعثيين في دمشق وبغداد. وبدلاً من أن يتحدوا في مواجهة السادات، نشبت مجابهة إعلامية وسياسية بين الطرفين سواء في الإذاعات أو في غرف الاجتماعات. لذلك تطلّع الأسد إلى تعديل موازين القوى عن طريق تشكيل تكتل جديد في بلاد الشام، واحتاج لتحقيق هذا إلى جمع مكونات «سورية الطبيعية»، أي سورية ولبنان والأردن وفلسطين، في حلف سياسي وعسكري. واختار الأسد أن يبدأ بمنظمة التحرير الفلسطينية كونها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، الذي يُعدُّ ركناً أساسياً من أركان بلاد الشام، وإن كان أبناؤه اليوم مشتتين في مخيمات اللجوء. ومن خلال عمل الأسد مع فيصل على ربط اتفاق سيناء باتفاق في الجولان، ومع التوحد المرتقب مع الفلسطينيين، أجبر الأسد كيسنجر على الجلوس معه ومع عرفات بغية دفع عملية السلام إلى الأمام، مقوياً بذلك الموقف التفاوضي السوري-الفلسطيني، مع سعيه لضمّ لبنان والأردن في المدى القريب إلى هذه الجبهة الناشئة في بلاد الشام.

كان من الواضح أن السوريين سيستمرون في حشد الدعم، وخصوصاً من الملك فيصل ومنظمة التحرير الفلسطينية والجزائر، ضد أي اتفاق ثنائي مصري ـ

إسرائيلي منفصل. وفي الوقت ذاته، عمل السوريون على التحضير لهذا الخروج المصري المرتقب من معادلة الصراع العربي ـ الإسرائيلي عن طريق ترتيب توازن جديد للقوى في المنطقة. ولكن التعنت الإسرائيلي سبق خطط الأسد وتحركاته في إفشال المبادرة الأمريكية.

في الخامس والعشرين من شهر آذار عام 1975، وبعد ثلاثة أيام من تعليق كيسنجر المفاوضات ومغادرته المنطقة، أقدم أحد أفراد العائلة المالكة السعودية، ادُّعي بأنه يعاني خللاً عقلياً، على اغتيال الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود. و بعد أسبوعين، أي في الثالث عشر من نيسان، دوّت في شوارع بيروت الرصاصات الأولى في صراع أهلي دموي غرق فيه طرفان أساسيان في جبهة الأسد الشامية، ألا وهما لبنان المنقسم على ذاته ومنظمة التحرير الفلسطينية.

سيناء 2

عقب فشل جولة كيسنجر الأخيرة، شرعت إدارة فورد بعملية إعادة تقييم لسياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط ولعلاقاتها بإسرائيل. ولكن هذه العملية كانت، كما وصفها كيسنجر، «مجرد مسرحية؛ إذ لم يكن هنالك شيء لإعادة تقييمه.»[30] كانت الخيارات المتاحة إما العودة إلى مؤتمر جنيف والذي تشارك أمريكا رئاسته مع الاتحاد السوفييتي، وإمّا أن تفرض الولايات المتحدة تسويةً شاملة على إسرائيل، أو انسحاباً أمريكياً من العملية السلمية، أو المضي في استراتيجية الخطوة ـ خطوة. فضّل كل من فورد وكيسنجر الخيار الأخير، وتم إعادة تنشيط المبادرة سريعاً. وفي حزيران 1975، التقى أنور السادات وجيرالد فورد في سالزبورغ في النمسا، حيث طمأن الرئيس المصري نظيره الأمريكي أن لا عودة في قرار مصر حول الانتقال من الفلك السوفييتي إلى الحضن الأمريكي، بغض النظر عن نتائج المفاوضات مع إسرائيل[31]. وبعد

شهرين عاد كيسنجر إلى المنطقة، ونجح هذه المرة بإنجاز اتفاق ثنائي جديد بين مصر وإسرائيل سُمي «اتفاق سيناء المرحلي» (أو كما يُعرف اختصاراً بـ «سيناء2»). نصَّ الاتفاق على انسحاب إسرائيلي إلى ممرّي الجدي ومتلا في عمق شبه جزيرة سيناء، مع إنشاء منطقة عازلة تخضع لرقابة الأمم المتحدة في مناطق الانسحاب الإسرائيلي، وعودة المنطقة العازلة التي أنشأها اتفاق فصل القوات الأول إلى السيادة المصرية. كما انسحبت إسرائيل من حقول أبو رديس النفطية مقابل موافقة مصر على فتح قناة السويس أمام حركة الشحن المدنية الإسرائيلية وإنشاء محطات إنذار مبكر تديرها عناصر أمريكية في منطقة الممرات. أشار الاتفاق بكلمات عابرة إلى تسوية شاملة تتوافق مع قرار مجلس الأمن 338، لكنه لم يذكر مرتفعات الجولان المحتلة ولا القضية الفلسطينية على الإطلاق[32].

أنجز هنري كيسنجر أيضاً التفاوض على مجموعة من الاتفاقات الجانبية الخطية السرية جعلت من «سيناء2» صفقة متكاملة عوضاً عن اتفاق فصل للقوات. وعلى الجانب المصري، عبّر السادات من خلال نص مكتوب عن نيته تخفيف الشائعات العدائية ضد الولايات المتحدة في وسائل الإعلام الرسمية المصرية، وخفّض من مقاطعة الشركات الأمريكية. كما تعهدت مصر أن لا تتدخل في مسار الرحلات الجوية المدنية الإسرائيلية فوق مضيق باب المندب، وهو المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، وأن تتجنب بذل أي جهود لمنع أي دولة من إعادة العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل[33]. ولعلّ أهم ما ورد ضمن صفقة سيناء2 من الجانب المصري هو الضمانة المكتوبة التي تلقاها كيسنجر من السادات بأنه في حال هجوم سوري على إسرائيل، أو في حال اندلاع حرب استنزاف تبدؤها سورية، فإن مصر لن تشارك في القتال. وأعلمت الولايات المتحدة الأمريكية من جهتها السادات أنه في حال قيام سورية بأعمال عسكرية أو شبه عسكرية ضد إسرائيل، أو بأعمال تهدد وقف إطلاق النار، فإن الحكومة

الأمريكية ستدعم إسرائيل دبلوماسياً بغض النظر عن أي معارضة مصرية. وتم تعريف «الأعمال المهددة لوقف إطلاق النار» بأنها تشمل تسلل «الإرهابيين» (في إشارة للفدائيين الفلسطينيين) عبر خط الفصل بين القوات السورية والإسرائيلية وتمركز «مجموعات إرهابية» في المناطق المحاذية للجبهة السورية ـ الإسرائيلية[34].

تضمنت الاتفاقات السرية فيما يتعلق بإسرائيل مذكرة تفاهم بين كيسنجر والحكومة الإسرائيلية تُلزم الولايات المتحدة «ببذل كل جهد ضروري للاستجابة لحاجات إسرائيل العسكرية ومتطلباتها الدفاعية الأخرى، وحتى من الطاقة، وحاجاتها الاقتصادية الآنيّة منها والبعيدة الأمد أيضاً»، كما ألزمت المذكرة أمريكا بدعم إسرائيل ضد أي تهديد من «قوة دولية»، في إشارة واضحة إلى الاتحاد السوفييتي. ومن بين الأمور التي وعد الأمريكيون إسرائيل بها، تعهدٌ بضمان حصولها على حاجاتها المحلية من النفط مدة خمس سنوات ـ من المخزون الأمريكي إذا تطلب الأمر. كما سيدفع الأمريكيون كلفة إنشاء مخازن للنفط قادرة على تخزين احتياطي من الاحتياجات النفطية يكفي عاماً كاملاً، وسيضعون الخطط المناسبة لنقل العتاد العسكري لإسرائيل في حالات الطوارئ. وتعهدت الولايات المتحدة بتبني الموقف الإسرائيلي بأن أي مفاوضات مع الأردن ستكون في سبيل إنجاز تسوية شاملة، أي إلغاء سياسة الخطوة-خطوة في الضفة الغربية[35]. وفي ملحق سري بمذكرة التفاهم، تعهدت الولايات المتحدة أن تقدّم الإدارات المتعاقبة طلب مساعدات عسكرية واقتصادية إلى الكونغرس كل عام. كما أكد الملحق أن «الولايات المتحدة عازمة على الحفاظ على قوة إسرائيل الدفاعية عن طريق تزويدها بأحدث أنواع المعدات كطائرات (اف16).» وفضلاً عن ذلك، وافقت الولايات المتحدة على دراسة نقل «معدات تكنولوجية حساسة ودقيقة من ضمنها صواريخ أرض-أرض من نوع بيرشنغ» إلى إسرائيل، إذ إنّ لدى هذه الصواريخ القدرة على حمل رؤوس

نووية. وفي مذكرة سرية أخرى، ألزم كيسنجر الإدارة الأمريكية الحالية والإدارات اللاحقة أن «لا تعترف أو تتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية ما لم تعترف هذه بحق إسرائيل في الوجود وتقبل قراري مجلس الأمن 242 و338.» وتعهدت الولايات المتحدة أيضاً بتنسيق كامل استراتيجيتها مع إسرائيل في حال عودة انعقاد مؤتمر جنيف للسلام[36]. وفي رسالة جانبية سرية موقعة من الرئيس الأمريكي جيرالد فورد، تعهدت الولايات المتحدة ألن لا تقدم أي اقتراحات تخصّ عملية السلام من دون مناقشتها أولاً مع إسرائيل. لقد كان هذا تنازلاً مهماً، لأنه خوّل إسرائيل في الواقع حقّ التدخل المباشر في صناعة السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط.

ويستمر الصراع

في الأسطر الأخيرة من صفقة سيناء2، تعهد جيرالد فورد لإسحاق رابين بأن الولايات المتحدة «سوف تعطي أهمية بالغة للموقف الإسرائيلي وأنّ أية اتفاقية سلام مع سورية يجب أن تقوم على أساس بقاء إسرائيل في مرتفعات الجولان.»[37] وتُظهر السجلات أن حافظ الأسد كان على علم جزئي -إن لم يكن كاملاً ـ بهذه الاتفاقات الجانبية السرية. ومهما يكن الأمر، فإن سيناء2 كانت في حدّ ذاتها إشارة كافية تدلّ على خروج مصر على نحوٍ لا رجعة فيه من معادلة الصراع العربي ـ الإسرائيلي. أدرك الرئيس السوري أنه ومنذ لحظة توقيع سيناء2، صار أي حديث عن تقدم خطوة لاحقة في الجولان مجرّد إضاعة للوقت. ولم يستمر الاجتماع الأخير بين الأسد وكيسنجر، والذي عقد في الثالث من أيلول، بعد يومين من توقيع سيناء2، أكثر من ساعة من الزمن. وعلى نقيض الاجتماعات السابقة، خلت هذه الجلسة من الأحاديث الجانبية والنكات المتبادلة والنقاشات العميقة حول العلاقات الدولية. حاول كيسنجر مضايقة الأسد مبدياً دهشته من رؤية الرئيس السوري مرتاحاً رغم ما حصل، فرد عليه:

«علينا أن نرتاح لأننا سنتصارع كثيراً في المرحلة المقبلة.»[38] كان هذا الرد نذيراً بسوء ما سيلي في الأشهر والسنوات القادمة.

في الأسابيع التي تلت سيناء2، حاول كيسنجر إصلاح علاقته بالأسد، لكن الرئيس تجاهل كل رسائله، كما لم يكن هناك في كل الأحوال ما يستحق الرد؛ لأن برقيات كيسنجر ورسائله الشفهية بواسطة السفير الأمريكي في دمشق لم تحتوِ إلا على كلمات فارغة عن أهمية المسار السوري دون أي جداول زمنية أو خطط عمل حقيقية. وعندما قرر الأسد أخيراً الرد، قام بتلخيص نظرته المتشائمة للوضع في المنطقة: «إن سورية مستعدة دائماً لتحقيق السلام، إلا أن سيناء2 جعلت من المستحيل أن تدخل سورية في أي مفاوضات حول الجولان، فسورية لن تمضيَ في طريق الاتفاقات الثنائية على غرار مصر، وإن أي محادثات مستقبلية يجب أن تشمل السوريين والفلسطينيين معاً.»[39]

على الرغم من صدمة سيناء2، لم تفقد سورية أبداً يقظتها، والأسد لم يكن بحاجة إلى أن يسمع السادات وهو يقول لفورد بأن «إسرائيل يمكنها أن تدمر سورية في ساعة[40]» ليدرك التغيرات الخطيرة التي حصلت في ميزان القوى الإقليمي. وخلال مسرحية إعادة التقييم التي تلت إخفاق أول جولة من مفاوضات سيناء2 في ربيع 1975، استمرّ الأسد في بناء جبهته الشامية. وفي الأسبوع نفسه الذي جمع فورد والسادات في سالزبورغ في حزيران 1975، وصل الأسد إلى عمّان في أول زيارة لرئيس سوري إلى العاصمة الأردنية منذ عام 1957. التقى الأسد الملك حسين وتجاوز الرجلان خلافاتهما، وأعلن أن سورية والأردن «بلد واحد وكيان واحد»، مقترحاً إنشاء قيادة سورية ـ أردنية مشتركة، على غرار القيادة المشتركة بين دمشق ومنظمة التحرير الفلسطينية المخطط لها[41]. شاطر الملك حسين الأسد هذه النيات؛ إذ كان مستاءً من تجاهل مبادرات كيسنجر الدبلوماسية له، فردّ الزيارة إلى العاصمة السورية بعد شهرين[42]. وحينما رفض الكونغرس الأمريكي طلباً من إدارة فورد لتمويل

شحنة أسلحة إلى الأردن تتضمن صواريخ مضادة للطائرات، أبدت سورية استعدادها لإعطاء الأردن مما تملك من بطاريات الدفاع الجوي سوفييتية الصنع. أتى هذا بعد انقضاء أقل من خمس سنوات على تدخل الولايات المتحدة الدبلوماسي واستنفار قواتها العسكرية للدفاع عن الأردن في وجه تدخل عسكري سوري. حمل هذا الإعلان السوري مخاطر استراتيجية جمّة دفعت كيسنجر إلى التوقف في دمشق خلال محادثات سيناء2 لعقد اجتماع مطوّل مع الأسد في محاولة لإقناعه بالامتناع عن تشكيل قيادة مشتركة مع الفلسطينيين والأردنيين[43]. لكن الرئيس السوري تجاهل كلّ التحذيرات؛ ومن ناحية أخرى لم يكن يعيش في الأوهام إزاء ما يمكنه إنجازه. إنه يعلم الصدام المرير الذي حدث سابقاً بين الملك حسين ومنظمة التحرير، وما تخوضه الدولة اللبنانية واليمين المسيحي من معارك شرسة ضدّ الفلسطينيين. وأدرك الأسد مدى صعوبة جمع أربعة أطراف بعضها مع بعض. ولكن كان من الضرورة بمكان جمع هذه الدول العربية المحيطة بإسرائيل من أجل ضمان موقف تفاوضي صلب منعاً لأي فصل لمسارات السلام بعد سيناء2.

لم يملَّ هنري كيسنجر من محاولة احتواء الأسد، بيد أن الرئيس السوري لم يتزحزح. في منتصف تشرين الأول من ذلك العام، رفض الأسد دعوة من كيسنجر لترتيب لقاء بينه وبين الرئيس الأمريكي فورد في أوروبا[44]. كما لم يقبل في أوائل تشرين الثاني، إرسال رئيس أركان جيشه اللواء حكمت الشهابي إلى واشنطن للقيام بمباحثات مع كيسنجر[45]. لقد فقد الرئيس السوري كل ثقة لديه بنزاهة الوسيط الأمريكي، ورأى أن الاتفاقات السرية بين أمريكا وإسرائيل ناقضت قرار مجلس الأمن 338؛ الأمر الذي أفقد أمريكا حقها في ترؤس مؤتمر جنيف للسلام إلى جانب الاتحاد السوفييتي[46]. وقد رفض الأسد أيضاً عرضاً أمريكياً بانسحاب إسرائيلي من الجولان لم يُحدد كيسنجر عمقه أبداً. وعند سماعه عرض الانسحاب رد على السفير الأمريكي بدمشق ريتشارد مورفي بلهجة

لم تخلُ من بعض التهكم: «إن كانت إسرائيل قد حصلت على مليارات الدولارات مقابل انسحابها خمسة كيلومترات في سيناء، فكم ستحصل عندما تنسحب 100 كيلومتر؟»[47] في إشارة منه إلى صفقات السلاح الضخمة التي حصلت عليها إسرائيل والتي أخلّت بميزان القوى الإقليمي على نحوٍ يهدد أمن سورية مباشرة. وعلى سبيل المصادفة، وفي الوقت نفسه الذي أبدى فيه الأسد ملاحظته كانت لجنة مشتركة من مجلس الأمن القومي الأمريكي ووكالة المخابرات المركزية ووزارتي الدفاع والخارجية، بإشراف هنري كيسنجر تضع اللمسات النهائية على صفقة سلاح تضمن بها تفوّق إسرائيل العسكري على كل جيرانها العرب مجتمعين ما لا يقلّ عن عقد من الزمن[48].

مع حلول نهاية شهر تشرين الثاني 1975 غدت لهجة الرسائل الأمريكية إلى دمشق أكثر تهديدا، إذ حذّر كيسنجر الأسد بواسطة مورفي أنه «إذا تدهور الوضع إلى حد نشوب اشتباك فهذا لن يحل شيئا، بل سيعيد الأمور إلى النقطة التي كانت عليها عام 1973، أما في حال اندلاع حرب أخرى، فإن الولايات المتحدة ستكون مضطرة إلى تأييد إسرائيل، وسيكون الثمن باهظاً على الجميع[49].» ومجدداً، لم يهتز الرئيس السوري، بل اختار تصعيد الموقف، وقام بإخبار مورفي في اليوم التالي أن سورية «ليست مهتمة بأي انسحاب سواء من خلال المفاوضات أو من دونها إن لم يكن في خدمة القضية الفلسطينية[50].» وإضافة إلى ذلك، تعتقد سورية أن «الأردن لا يمكنه أن يحل محل منظمة التحرير في المفاوضات. ولن تدعم سورية انعقاد مؤتمر جنيف إلا في حال حضور منظمة التحرير.»[51] ثم إن سورية «لن تشارك في أي مؤتمر آخر» مالم تكن منظمة التحرير موجودة[52].

حقق الأسد نصراً دبلوماسياً آخر بعد خمسة أيام من لقائه العاصف مع مورفي. وتمّ ذلك عندما نجحت سورية والاتحاد السوفييتي في ربط التجديد للأندوف في مجلس الأمن الدولي بمشاركة منظمة التحرير الفلسطينية في النقاش

الذي اعتزمت الأمم المتحدة إجراءه حول الشرق الأوسط في الثاني عشر من كانون الثاني 1976. وقد اضطرت الولايات المتحدة إلى الموافقة رغم الاحتجاجات الإسرائيلية، وشاركت منظمة التحرير الفلسطينية. ولكن، وبعد أسبوعين من انتهاء المناقشات استخدمت الولايات المتحدة في السادس والعشرين من كانون الثاني حق النقض (الفيتو) لإيقاف قرار في مجلس الأمن يؤكد حق الفلسطينيين في إنشاء دولة فلسطينية مستقلة، وعودة اللاجئين الفلسطينيين، وانسحاب إسرائيل إلى حدود الرابع من حزيران 1967.

تظهر سجلات أرشيف رئاسة الجمهورية العربية السورية، التي تعود إلى مطلع عام 1976، أن عروض المفاوضات الفارغة من أي محتوى، والتي لم تكن غايتها إلا إضاعة الوقت، إضافة إلى النقاشات الجادّة حول عملية السلام، قد بدأت تتلاشى من رسائل كيسنجر إلى الأسد ومن لقاءات الأسد والسفير مورفي؛ إذ غدت الحرب الأهلية المشتعلة في لبنان تدريجياً محور النقاش الوحيد بين سورية والولايات المتحدة.



هنري كيسنجر يدلي بتصريح صحفي في مطار دمشق الدولي، 11 تشرين الأول 1974.



كيسنجر في مطار دمشق الدولي، 23 آب 1975. وتبدو خلفه طائرته الخاصة والتي سميت بـ«وزارة الخارجية» الطائرة.

مراجع الفصل التاسع

(1) William B. Quandt, *Peace Process: American Diplomacy and the Arab-Israeli Conflict Since 1967* (Berkeley, 2005), p. 156.

(2) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 104, p. 429

(3) Henry A. Kissinger, *Years of Renewal* (New York, 1999), p. 358.

(4) المصدر نفسه

(5) William B. Quandt, *Peace Process: American Diplomacy and the Arab-Israeli Conflict Since 1967* (Berkeley, 2005), p. 157.

(6) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 11 تشرين الأول 1974، ص8.

(7) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 11 تشرين الأول 1974، ص10.

(8) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 14 تشرين الأول 1974، ص6.

(9) Patrick Seale, *Assad of Syria: The Struggle for the Middle East* (London, 1988), p. 254.

(10) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 14 تشرين الأول 1974، ص14.

(11) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 14 تشرين الأول 1974، ص11.

(12) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 14 تشرين الأول 1974، ص21.

(13) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 109, p. 440.

(14) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 7 تشرين الثاني 1974، ص6.

(15) الأرشيف الرئاسي السوري، برقية من كيسنجر إلى الأسد، 8 تشرين الثاني 1974.

(16) الأرشيف الرئاسي السوري، برقية من الأسد إلى كيسنجر، 8 تشرين الثاني 1974.

(17) الأرشيف الرئاسي السوري، برقية من كيسنجر إلى الأسد، 11 تشرين الثاني 1974.

(18) William B. Quandt, *Peace Process: American Diplomacy and the Arab-Israeli Conflict Since 1967* (Berkeley, 2005), p. 161.

(19) Patrick Seale, *Assad of Syria: The Struggle for the Middle East* (London, 1988), p. 255.

(20) المصدر نفسه.

(21) Henry A. Kissinger, *Years of Renewal* (New York, 1999), p. 385.

(22) Henry A. Kissinger, *Years of Renewal* (New York, 1999), p. 389.

(23) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 118, p. 459.

(24) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 9 آذار 1975، ص15.

(25) المصدر نفسه.

(26) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 9 آذار 1975، ص17.

(27) المصدر نفسه.

(28) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 9 آذار 1975، ص29.

(29) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 9 آذار 1975، ص32.

(30) Aaron David Miller, *The Much Too Promised Land: America's Elusive Search for Arab-Israeli Peace* (New York, 2008), p. 151.

(31) Henry A. Kissinger, *Years of Renewal* (New York, 1999), p. 435.

(32) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 226, pp. 825-827.

(33) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 228, pp. 832-833.

(34) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 230, pp. 834-835.

(35) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 227, pp. 828-831.

(36) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 227, pp. 831-832.

(37) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 233, pp. 838-839.

(38) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 3 أيلول 1975، ص1.

(39) الأرشيف الرئاسي السوري، برقية من الأسد إلى كيسنجر، 2 تشرين الأول 1975.

(40) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 247, p. 866.

(41) Patrick Seale, *Assad of Syria: The Struggle for the Middle East* - (London, 1988), p. 269.

(42) المصدر نفسه.

(43) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كيسنجر، 21 آب 1975.

(44) الأرشيف الرئاسي السوري، برقية من كيسنجر إلى الأسد، 8 تشرين الأول 1975.

(45) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 2 تشرين الثاني 1975، ص6.

(46) المصدر نفسه.

(47) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد-مورفي، 2 تشرين الثاني 1975، ص8.

(48) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Documents 243, 244, pp. 855-859.

(49) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 24 تشرين الثاني 1975.

(50) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 25 تشرين الثاني 1975، ص6.

(51) المصدر نفسه.

(52) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 25 تشرين الثاني 1975، ص7.

الفصل العاشر

لبـــنان

كانت نكسة عام 1967 صدمة لكل العرب، بمن فيهم حافظ الأسد وزير دفاع سورية حينذاك. وفي لبنان، ورغم تضامن الرئيس شارل الحلو مع الدول العربية التي تقارع إسرائيل، فقد أمر الجيش اللبناني ألاّ يتدخل في القتال، ولم يسمح للجيش السوري باستعمال الأراضي اللبنانية لمهاجمة الإسرائيليين. كان الحلو خليفة نظام العماد فؤاد شهاب الذي عُرف بوسطيته، لكنه لم يستطع حماية لبنان طويلاً من آثار الهزيمة العربية المدمّرة عام 1967. حاول حافظ الأسد، ومنذ تسلمه مقاليد الحكم عام 1970 ومن خلال اجتماعاته بالزعماء السياسيين اللبنانيين، إقناعهم بأن لبنان جزء من الأمة العربية ولا يمكنه أن ينعزل عن القضايا العربية الكبرى وعلى رأسها القضية الفلسطينية. وفعلاً، ففي السنوات التي تبعت حرب عام 1967، لم تبقَ القضيةُ الخلافيةُ الأساسية بين الفرقاء السياسيين في لبنان الوقوفَ مع الزعيم المصري جمال عبد الناصر أو ضدَّه، بل غدا الوجودُ الفلسطيني في لبنان، وبخاصة الفصائل الفلسطينية المسلحة التي تخوض الكفاح المسلح ضدّ إسرائيل ـ وعلى رأسها منظمة التحرير الفلسطينية ـ القضيةَ الخلافية الأهم فيه[1]. وبعد الهزيمة المذلة للجيوش العربية النظامية في حرب الأيام الستّة، تنامى الدعم الشعبي لحرب العصابات

والعمليات الفدائية ضد إسرائيل، وخصوصاً في لبنان. كما أن الغزو الإسرائيلي للضفة الغربية وغزة دفع بمئات آلاف الفلسطينيين إلى اللجوء إلى الدول المجاورة، وأقام جزء كبير منهم في مخيمات اللجوء الفلسطيني في لبنان، وبصفة خاصة في الجنوب وحول العاصمة بيروت. إنّ هذه الزيادة غير المسبوقة في أعداد الفلسطينيين في لبنان، وضعت ذاك البلد الضعيف في قلب القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي.

لكن حافظ الأسد كان أيضاً يدرك الجذور العميقة لمشكلات لبنان المزمنة التي تفوق ما حصل عام 1967. فميثاق عام 1943 الوطني، الذي وضع أسس النظام السياسي في لبنان، وزّع المناصب العليا في الدولة بين الطوائف اللبنانية الأساسية. فعلى الجانب المسيحي هناك الموارنة والروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك، وعلى الجانب المسلم هناك السنّة والشيعة والدروز. لقد كانت هذه الصيغة وليدة تصوّرات الطبقة السياسية النخبوية التي نمت في ظل الاستعمار الفرنسي. إن فرنسا التي منحتها عصبة الأمم حق الانتداب كي تسعى إلى «تمدين» شعوب المنطقة، انتزعت «لبنان الكبير» من الأراضي السورية عام 1920 مع تأكيدٍ على «طابعه المسيحي»، على حين قسّمت ما تبقى من سورية إلى دولتي دمشق وحلب، إضافة إلى كيانين: درزي وعلوي. وعادت سريعاً أربعةٌ من هذه الأقسام الخمسة للتوحد في جمهوريةٍ سورية وطنية وعلمانية، وبقي لبنان وحده كياناً مستقلاً. انتقد الأسد مراراً وتكراراً هذه الصيغة التي تنص على اقتسام السلطة السياسية بين الطوائف أمام ضيوفه اللبنانيين، ولا سيما أولئك الذين سعوا إلى إبقاء ميثاق عام 1943 أبدياً. إنّ الأسد الذي وقفت عائلته ضد الخطة الفرنسية الرامية إلى إقامة كيان علوي، لم يستطع أن يرى في الصيغة الطائفية في لبنان إلا «خطيئة تاريخية» وسبباً جذرياً أساسياً لمشكلات لبنان المضطرب.

أعطى الميثاق الوطني عام 1943 منصب رئيس الجمهورية ذي الصلاحيات الواسعة وقيادة الجيش إلى المسيحيين الموارنة ـ الذين كوّنوا أغلبية عددية في

لبنان ـ إضافة إلى إعطاء ستة مقاعد في مجلس النواب للمسيحيين مقابل كل خمسة مقاعد للمسلمين. وقَبِلَ زعماء المسلمين السنة والشيعة التقليديون بمنصبي رئيس الوزراء (للسنة) ورئيس مجلس النواب (للشيعة). غير أن غالبية مسلمي لبنان، وكثيراً من مسيحييه، إضافة إلى القوميين العرب واليساريين رفضوا هذه الصيغة منذ اعتمادها، وعملوا بلا كلل على قلبها، وطالبوا مراراً بعودة لبنان للتوحد مع سورية. وحدثت أكثر محاولاتهم الجادّة للقضاء على نظام الميثاق الوطني عام 1958، وجاءت بعد أسابيع قليلة من إعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة بين سورية ومصر. في ذلك الحين، هبّت انتفاضة شعبية في معظم المدن والقرى، واندلعت اشتباكات عنيفة بين القوى الوطنية ومؤيدي الرئيس اللبناني حينذاك كميل شمعون، والذين انضم إليهم مناصرو حزب الكتائب اللبنانية، ذلك الحزب الذي أسسه بيير الجميل مستوحياً فيه الكثير من أفكار الحركات الفاشية الأوروبية، رافعاً شعار الدفاع عن المسيحيين، وبخاصة الموارنة، في وجه القوى الوطنية واليسارية. ومع وصول المد الناصري إلى لبنان، وتصاعد دور القوى الوطنية واليسارية، سارع الرئيس الأمريكي دوايت د. أيزنهاور، الذي كان يرى في عبد الناصر أقوى أداة للاتحاد السوفييتي في الشرق الأوسط، إلى إرسال قوات المارينز إلى بيروت لدعم النظام اللبناني الموالي للغرب. وسرعان ما حُلَّت الأزمة بتسوية حافظت على «وجه لبنان العربي» وسياسته الخارجية المحايدة، وأتت بقائد الجيش الماروني الوسطي فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية، إضافة إلى تشكيل حكومة وحدة وطنية ضمّت العديد من الشخصيات الوطنية. إلا أنه لم يطرأ أي تعديل على الصيغة الطائفية لنظام الحكم.

في تشرين الثاني من عام 1974، وقبل ستة أشهر من اندلاع الحرب الأهلية في لبنان، حذّر حافظ الأسد رئيسَ الوزراء اللبناني السابق وأحد عرابي الميثاق الوطني صائب سلام، من أن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والحرمان الذي تعانيه بعض المناطق اللبنانية والفساد المستشري في الجهاز

الحكومي هي التي تدفع الكثير من اللبنانيين الفقراء المعدمين إلى نقطة الانفجار، ولا يحصل ذلك بسبب الدعاية الشيوعية[2]. فخلال الستينيات من القرن العشرين، تركز النمو الاقتصادي اللبناني في مدينة بيروت التي ازدهرت فيها السياحة والمصارف والخدمات المالية. ثمّ إنّ الثروة تجمّعت في أيدي قلة قليلة من الشخصيات النافذة، وكان كثير منهم من مسيحيي الطبقة الحاكمة، إضافة إلى عائلات سنية وشيعية تقليدية ـ ذات خلفية إقطاعية ـ كانت متحالفة معهم. وإضافة إلى ذلك جرى تهميش باقي المناطق اللبنانية ونما طوق من الضواحي الفقيرة التي سكنها مهاجرون من الأرياف حول بيروت، إلى درجة كان فيها نصف سكان لبنان يقطنون في العاصمة وضواحيها عام 1975[3]. وفي حزام الفقر هذا، كانت ظروف العيش سيئة جدّاً واستشرى الفساد على نحوٍ واسع؛ مما جعل من هذه المناطق تربة خصبة للنشاط السياسي. أما في الشطر الشرقي (المسيحي) من بيروت حيث أقام مهاجرون اقتصاديون من القسم الماروني من جبل لبنان، فقد سيطر حزب الكتائب اللبنانية على المشهد السياسي. وأمّا في الشطر الغربي (المسلم) للمدينة، فقد تنامى الدعم الشعبي للفصائل اليسارية والشيوعية وحلفائهم الفلسطينيين بقدر كبير على حساب العائلات المسلمة السياسية التقليدية.

عمّق الوجود الفلسطيني الخلافات السياسية والاجتماعية في لبنان؛ فقد أخلّ وصولُ مئات آلاف اللاجئين الفلسطينيين (غالبيتهم من المسلمين) بالتوازن الطائفي الضعيف بين المسلمين والمسيحيين الذي ألّف أساس النظام السياسي الطائفي في البلاد. وقد وجدت القوى اليسارية اللبنانية الداعية إلى إلغاء النظام الطائفي سنداً قويا جديداً في توفّر آلاف المقاتلين الفلسطينيين المدربين جيداً والمنتمين إلى فصائل يسارية وأخرى ماركسية-لينينية. وبدأ الكثير من الشباب اللبناني بالانخراط في معسكرات التدريب الفلسطينية، بل وشارك بعضهم في عمليات فدائية[4]. انقسم السياسيون المسلمون التقليديون بين الحفاظ على

مصالحهم عن طريق تحالفهم مع النخبة السياسية المسيحية، وبين محاولة الحفاظ على قواعدهم الشعبية التي بدأت تنكمش وتميل أكثر فأكثر لمصلحة اليسار اللبناني والمنظمات الفلسطينية. في هذا المفصل الدقيق، برز كمال جنبلاط، الزعيم الدرزي التقليدي، قائداً فذّاً لليسار في لبنان. لقد وجد في تبنيه (الأجندة) اليسارية ـ الفلسطينية فرصة يؤدي فيها دوراً سياسياً أكبر من ذاك الذي منحته إياه صيغة الميثاق الوطني على أساس انتمائه الطائفي (الذي لم يخوِّله تسلم منصب أعلى من وزير في الحكومة). في عام 1969، أسس جنبلاط الحركة الوطنية اللبنانية والتي أصبحت غطاءً جامعاً للتنظيمات اليسارية والشيوعية كافة تحت قيادته، وأعلن جنبلاط على الفور أن الحركة الوطنية حليفة للثورة الفلسطينية، وبدأ بسحب البساط من تحت أقدام الزعامات الإسلامية التقليدية. ثم إنّ جنبلاط ساهم من موقعه وزيراً للداخلية في تلك المرحلة، بإيصال السلاح إلى أيدي الفدائيين الفلسطينيين ومقاتلي اليسار اللبناني.

تفجرت الأمور في عام 1969 عندما تصادم الجيش اللبناني والفدائيون الفلسطينيون في مخيمات بيروت وضواحيها. ولكن المعارك سرعان ما انتهت باتفاق، رعاه الرئيس المصري جمال عبد الناصر، بين الدولة اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات. ولكن التطور الأهم الذي سيحمل عواقب وخيمة لكل من الفلسطينيين والوضع في لبنان أتى بعد عام، حينما وقعت اشتباكات دموية بين الفصائل الفلسطينية والدولة الأردنية في أيلول 1970. وانتهت أحداث ما عرف بأيلول الأسود بانتصار الملك حسين. وتبع ذلك انتقال معظم قادة التنظيمات الفلسطينية والآلاف من مقاتليها إلى لبنان، وغدت بيروت العاصمة غير الرسمية لـ«الثورة الفلسطينية». وتحول لبنان إلى قاعدة الانطلاق الأساسية لغارات الفدائيين الفلسطينين على الأراضي الفلسطينية المحتلة؛ مما عرضه لعمليات انتقامية إسرائيلية قاسية.

في ربيع عام 1973، وعندما كان الضباط السوريون والمصريون يضعون

اللمسات النهائية على خططهم لعبور قناة السويس وتحرير هضبة الجولان، اندلعت موجة جديدة من العنف في لبنان. وأدّى ازدياد التوتّر بين المخيمات الفلسطينية وما حولها إلى اشتباكات بين الجيش اللبناني والفدائيين. وتدخّل سلاح الجو اللبناني بأوامر من الرئيس سليمان فرنجية وقام بقصف المواقع الفلسطينية. غير أنّ الجيش اللبناني فشل في كبح جماح القوى الفلسطينية، واضطرت الدولة اللبنانية إلى التفاوض مجدداً مع عرفات ومنظمة التحرير لوقف القتال. ورأى كل من زعيم حزب الكتائب بيير الجميل والرئيس اللبناني السابق كميل شمعون أنّ سليمان فرنجية ـ الذي يعدّ رئيساً قوياً مضطر إلى التنازل والتفاوض مع عرفات ومنظمة التحرير. ولمّا كان من الواجب خضوع أوامر الرئيس الماروني للقوات المسلحة لموافقة رئيس الوزراء المسلم، فهذا يعني أن على الموارنة التوقف عن الاعتماد على الدولة اللبنانية للدفاع عنهم، وأن عليهم الاعتماد على أنفسهم[5]. ومن تلك اللحظة فصاعداً، بدأت الفصائل المارونية، وعلى رأسها حزب الكتائب بتنظيم ميليشيات مسلحة للدفاع عن المجتمع المسيحي مما عدّوه تهديداً وجودياً من اليسار والفلسطينيين. وبرز دور ابن بيير الجميل، بشير، في قيادة الميليشيات المسيحية. في حين شهدت شوارع بيروت الغربية ومدن لبنانية أخرى مظاهرات وإضرابات مستمرة طالبت بالعدالة الاقتصادية وبإصلاحات سياسية واسعة، قادتها الحركة الوطنية وشخصيات إسلامية بارزة كرجل الدين ذي الشعبية الكبيرة السيد موسى الصدر.

الشرارة

انفجر برميل البارود اللبناني في الثالث عشر من نيسان عام 1975 عندما ردّ مسلحون من حزب الكتائب على محاولة اغتيال مزعومة لزعيمهم بيير الجميل بإطلاق النار على حافلة مليئة بمدنيين فلسطينيين، وقد جُرِحَ وقُتلَ منهم العشرات. وأدت الحادثة إلى اندلاع اشتباكات دامية بين مقاتلي الحركة الوطنية

والمقاتلين الفلسطينيين من جهة والميليشيات المسيحية من جهة أخرى. وسرعان ما استقال رئيس الوزراء رشيد الصلح من منصبه، ودعا كمال جنبلاط إلى عزل حزب الكتائب سياسياً، رافضاً المشاركة في أي حوار مع اليمين المسيحي. رد فرنجية بتعيين حكومة عسكرية برئاسة العميد نور الدين الرفاعي؛ الأمر الذي زاد في تعميق حالة الانقسام السياسي.

لم تطل سورية الانتظار قبل أن تبدأ جهود وساطتها. فمنذ أن تولى حافظ الأسد سدّة الحكم في سورية سعى إلى تحسين العلاقات مع لبنان، محاولاً تجاوز إرث طويل من فقدان الثقة؛ إذ لطالما نظر حكّام دمشق بعين الريبة إلى بيروت كونها المقر الأساسي للانقلابيين السوريين وداعميهم الخارجيين، على حين كانت النخبة السياسية في لبنان تتخوف دوماً مما رأته من محاولات سورية لابتلاع لبنان. وبعد أسابيع قليلة من الحركة التصحيحية، أرسل الأسد وفداً وزارياً إلى بيروت بهدف تشكيل لجنة مشتركة مع نظرائهم اللبنانيين بغية تحسين العلاقات بين البلدين وتطويرها. ولكن الجهود الجبارة التي كانت تبذل لإعادة بناء الدولة السورية، وتحقيق المصالحة ضمن المجتمع السوري، والتحضير لحرب تشرين التحريرية الحاسمة في تشرين الأول 1973، جعلت من لبنان ملفاً ثانوياً للأسد. إلا أن اندلاع الصراع الأهلي هناك دفع بالملف اللبناني إلى رأس قائمة أولوياته. ولقد حملت النار المشتعلة في الجوار عواقب جمّة لسورية، وخاصة في وقت كان يخوض الأسد فيه معركة دبلوماسية حاسمة لمنع اتفاق ثنائي آخر بين مصر وإسرائيل، وفي الوقت الذي كان يحاول فيه بناء جبهة منيعة في بلاد الشام بعد خروج مصر من معادلة الصراع العربي-الإسرائيلي. أرسل الرئيس السوري وزير خارجيته عبد الحليم خدام إلى بيروت على وجه السرعة، وتقاطر الساسة اللبنانيون بدورهم إلى دمشق لعقد المحادثات مع الأسد. تكللت تلك الجهود بنتائج سريعة، وتم تعيين رشيد كرامي رئيساً لحكومة وفاق وطني في الثلاثين من حزيران عام 1975. وفي اليوم التالي وقّع قائد الجيش اللبناني

إسكندر غانم اتفاق وقف لإطلاق النار مع ياسر عرفات بحضور وزير الخارجية السوري.

كان التدخل السوري في لبنان في رأي حافظ الأسد أمراً طبيعياً، لا بل ضرورياً أيضاً. ولم يكن لديه خيار آخر؛ إذ إنّ هذا التدخل ينبع من ضرورات تاريخية وجغرافية. وكان يرى أن لتدهور الوضع في لبنان أثراً مباشراً في سورية، ومن غير المنطقي أن يعتقد أحد عكس ذلك، سواء في سورية أو لبنان[6]. لقد كانت المعادلة واضحة وبسيطة للرئيس السوري؛ فلبنان كان جزءاً من الأمة العربية، ولا يمكنه أن يكون غير ذلك، كما أنه جزء لا يتجزأ من بلاد الشام، وقطعة تاريخية من سورية[7]. ولكن، وعلى نقيض ما خشيه كثير من اللبنانيين، لم يكن الأسد يسعى إلى ضمّ لبنان كما حاول عبد الناصر في عام 1958. وعلى الرغم من كونه قومياً عربياً مخلصاً، وبعثياً مؤمناً بوحدة الأمة العربية هدفاً سامياً، لم يُخفِ سعيه إليه يوماً، فقد كان مدركاً أيضاً أن الظروف لم تنضج بعد لتحقيق هذه الوحدة، وأن خطابه العروبي حول لبنان يُراد به بث شعور قومي جامع يتجاوز الانقسامات الطائفية. ومن وجهة نظره، كان لا بد من إيجاد تفاهم يضمن حرية المعتقد والعبادة للجميع، إذ في النهاية «المسيحيون والمسلمون في لبنان عرب، ولا يمكنهم أن يستمروا بذبح بعضهم البعض.»[8] هذه الانقسامات الدينية والطائفية زرعها «المستعمرون العثمانيون والفرنسيون» برأي الأسد وأرادوا بها تقسيم الشعب العربي أدياناً، وكل دين طوائف متناحرة تحقيقاً لمصالحهم الاستعمارية ولم يجد في تصرف الأمريكيين أي اختلاف عن القوى الاستعمارية القديمة. ولذا قام بتحذير رئيس الوزراء الجديد رشيد كرامي، قبل أسبوع من بدء المفاوضات النهائية لاتفاق (سيناء2) في شهر آب 1975، قائلاً: «إنّ الأمريكيين يريدون خلق مشكلة في المنطقة لصرف انتباهنا عن أمر خطير.»[9]

مالبثت الاشتباكات أن عادت في نهاية الصيف، وهذه المرة في عاصمة الشمال طرابلس، وفي مدينة زحلة عاصمة وادي البقاع اللبناني. وانتهت مجدداً

بوساطة سورية أخرى أدت إلى استقالة قائد الجيش إسكندر غانم، الذي اتهمه المسلمون بالانحياز للكتائب اللبنانية وتسليح الميليشيات المسيحية. بيد أنّ الاشتباكات لم تكد تهدأ حتى اندلعت مجدداً بتحريض من جنبلاط، واستُعملت فيها المدافع والأسلحة الثقيلة؛ مما أحدث دماراً واسعاً في المركز التجاري في مدينة بيروت. هرعت سورية مجدداً للقيام بوساطات بين الأطراف اللبنانية، وكان من نتائج جهودها نجاحها في تشكيل لجنة حوار وطني تضمّ عشرين عضواً، من بينهم كمال جنبلاط وبيير الجميّل.

في الوقت الذي تشكّلت فيه لجنة الحوار في أيلول عام 1975 كان اتفاق (سيناء2) قد تمّ توقيعه. لقد وجدت سورية ومنظمة التحرير نفسيهما في خندق واحد ضدّ فصل مصر لمسارات السلام ـ كما ذكر في الفصل السابق. وحاول بيير الجميّل واليمين المسيحي (مجتمعين حينذاك في الجبهة اللبنانية) استغلال الخصومة بين سورية ومصر، وطلبوا الدعم من أنور السادات. استجابت مصر لدعوة الجميل، وعقدت اجتماعاً لوزراء الخارجية العرب في القاهرة في تشرين الأول من عام 1975 لمناقشة موضوع لبنان. قاطعت سورية وليبيا ومنظمة التحرير الفلسطينية المؤتمر، وفشلت محاولة مصر في أن تحلّ محلّ سورية وسيطاً أساسياً في لبنان. وتبع ذلك اشتباكات كانت الأعنف حتى ذاك التاريخ بين تحالف الحركة الوطنية ومنظمة التحرير الفلسطينية من جهة، وبين مسلّحي حزب الكتائب في بيروت من جهة أخرى، وعُرفت باسم «معركة الفنادق». وانتهت بهزيمة الكتائب اللبنانية وخروجها من وسط بيروت بعد أن تكبدت خسائر جسيمة.

الظل الثقيل لاتفاق سيناء2

عندما اندلعت الأحداث اللبنانية في نيسان عام 1975، كانت الولايات المتحدة مشغولة بسقوط سايغون (عاصمة فيتنام الجنوبية) في يد الشيوعيين وبالمفاوضات المصرية ـ الإسرائيلية المتعثرة. ولكن بحلول تشرين الأول، كان

كيسنجر قد تمكّن من إنجاز اتفاق سيناء الذي طال انتظاره. كما أن الرئيس الأمريكي جيرالد فورد كان قد وعد رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين بأنّ الولايات المتحدة لن تطلب من إسرائيل، بعد سيناء 2، اتخاذ مزيد من القرارات إلاّ بعد تولي الرئيس الجديد منصبه في كانون الثاني عام 1977. ووافق السادات بدوره على هذه الاستراحة حين التقى فورد في سالزبورغ في حزيران من عام 1975[10]. وأتت الحرب المستعرة ملائمة لإتمام هذه الصورة لأنها، وبرأي كيسنجر، «خففت الضغوط الساعية إلى استكمال عملية السلام.»[11] لكن النزاع في لبنان حمل أيضاً مخاطر على السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، ولم ترغب الإدارة الأمريكية أن تسيطر منظمة التحرير الفلسطينية على لبنان وتفتح جبهة جديدة ضدّ إسرائيل منه، أو تفرض نفسها على عملية السلام. وكان كيسنجر مدركاً لحقيقة أن سياسة الولايات المتحدة التقليدية في لبنان قامت على دعم المجتمع المسيحي ومناهضة الهيمنة السورية.[12] إلا أن هذه المواقف البديهية لم تمنع كيسنجر وفريقه من الإقرار بالعوامل الحقيقية التي أدت إلى تفجّر ذاك العنف. وفي رأيه كانت الفصائل اللبنانية المسيحية تحمل توقعات غير منطقية و«سخيفة» حول تدخل أمريكي مباشر كما حصل في أزمة عام 1958، غير أنّ إدارة فورد لم تكن لترسل المارينز إلى بيروت مجدداً.[13] كما أدرك الأمريكيون أن سليمان فرنجية قد فقد السيطرة وأن الإصلاح السياسي أصبح ضرورياً لإنهاء الأزمة. وتوافق كيسنجر وفريقه مع السوريين في نقطة هامة جداً، ألا وهي وجوب عودة الأمان إلى جانب نوع من السلطة المركزية قبل الانطلاق في أيّ عملية سياسية جادّة.[14]

مع بروز سورية وسيطاً سياسياً أساسياً في لبنان، عهد كيسنجر إلى السفير الأمريكي في دمشق، ريتشارد مورفي، بمهمة لقاء الرئيس السوري والبحث معه في سبل التعاون الممكنة بين سورية والولايات المتحدة بخصوص الملف اللبناني. التقى مورفي الأسد في السادس عشر من تشرين الأول عام 1975 ونقل

إليه طلباً مباشراً من كيسنجر: «نريد أن نجري نقاشات مع سورية، آخذين بالاعتبار مصلحتها المباشرة في المشكلة والدور الذي أدّته أشهراً. نعتقد أن الجهود السورية كانت بناءة في تخفيف التصعيد في الموقف، ونرغب في العمل مع سورية لحل المشكلة في لبنان.»[15] وضّح مورفي أن بلاده قلقة على مصير مسيحيي لبنان لكنها لا تدعم العناصر المتطرفة، بل تدعم استقلال لبنان قبل كل شيء ووحدته الوطنية وسلامة أراضيه. وادّعى أن الهدف الأمريكي الحقيقي هو إيجاد حل سياسي لتقاسم السلطة بطريقة مقبولة للمسيحيين المعتدلين دون تعريض أمنهم للخطر. وأضاف مورفي أن الولايات المتحدة لا يمكن أن تتدخل في المفاوضات بين الطوائف اللبنانية، ومن جهة أخرى ترى إدارة فورد أنّ وجهات النظر السورية حول نقاط الحل الأساسية في لبنان «قريبة جداً من أفكار الإدارة.»[16]

وبعيداً عن المبادرات السياسية حذّر كيسنجر الأسد من أن «إسرائيل سترى في تدخل قوات عسكرية أجنبية في لبنان تهديداً كبيرا لدرجة أنها ستتدخل بغض النظر عما يقوله الأمريكيون.»[17] لكن مورفي أكّد أن هذا ليس تهديداً إسرائيلياً مباشراً لسورية، بل خلاصة القراءة الأمريكية للموقف، مضيفاً أن الولايات المتحدة ستحث إسرائيل دوماً على ضبط النفس. وأخيراً، طلب كيسنجر إلى الأسد بواسطة مورفي تجاوز الخلافات التي أثارها اتفاق (سيناء 2) و«فصل ذلك عن مجالات الاهتمام المشترك الأخرى، مثل لبنان» من أجل أن يستمر تبادل الأفكار حول ما يمكن للولايات المتحدة فعله لدعم جهود الوساطة السورية.[18]

أكّد الأسد بدوره مجدداً، وكما في لقاءاته مع المسؤولين اللبنانيين والعرب، أن موقف سورية من لبنان ينطلق من رؤيتها القومية العربية؛ فالقيادة السورية لا تنظر إلى اللبنانيين على أنهم مسلمون ومسيحيون، بل شعب عربي يمرّ بمحنة. لقد أرادت سورية وقف القتال في لبنان عن طريق التوصل إلى تفاهم عام وسيلته الحوار والتعاون مع مختلف الأطراف اللبنانية، وإلى خلق

مناخ ملائم لهم ليحلوا مشكلاتهم الداخلية سلمياً بعملية حوار وطني شامل. لقد وقفت سورية، بالدرجة الأولى، ضد أي دعوة لتقسيم لبنان، كما أنها لن تسعى إلى ضمه إليها. وفيما يخصّ الأسد، هنالك مصلحة أساسية لسورية في وقف القتال في لبنان وفي تشجيع كل الأطراف على إيجاد تسوية سياسية عن طريق لجنة الحوار الوطني التي ساعد السوريون على تشكيلها. وشدّد الأسد على أن الخلافات في لبنان لم تكنْ دينية بل سياسية، وأن لا أحد في سورية يعتقد أن الإدارة الأمريكية كانت تدعم المتطرفين المسيحيين. ولكن الكثير من العرب - ومنهم الأسد - يعتقدون أن الولايات المتحدة أدّت دوراً في التحريض على القتال في لبنان من أجل التعمية على اتفاق سيناء[19]، إلا أن مورفي سارع إلى نفي هذه الاتهامات.

أما فيما يتعلق بإسرائيل، فقد كرّر الأسد القول إن المشكلة في لبنان قضية عربية داخلية، ولا يحق لإسرائيل التدخل في الشؤون العربية الداخلية، وإضافة إلى ذلك، إن موقف سورية من لبنان لا يأخذ في الحسبان ردود الفعل الإسرائيلية، لأن سورية «سوف تقوم بواجبها تجاه لبنان في أي وقت، وستفعل كل ما بوسعها لإنهاء القتال.»[20] وعليه، أكّد الأسد أن الشعب اللبناني، إن طلب أيّ مساعدة عسكرية من سورية، فإن سورية «ستضع تحت تصرّفه كلّ ما يحتاجه، من أقصى شمال لبنان إلى أقصى جنوبه، ولن يمنعها عن أداء هذا الواجب ما تنوي إسرائيل فعله»، وأن سورية «جاهزة لتتصدى لإسرائيل إن أرادت المواجهة، سواء هنا في مرتفعات الجولان أو في أي مكان آخر.»[21] ولم يتوانَ الأسد عن اتهام كيسنجر على نحوٍ مبطن بأن لديه مصلحة في إشعال العنف الحالي في لبنان ودفع سورية وإسرائيل نحو المواجهة ما دامت مصر قد خرجت من معادلة الصراع: «يبدو أن الدكتور كيسنجر لا يريد تجزئة مسارات السلام فحسب؛ بل الحرب أيضاً، قل له إنّ شروط المعارك الصغيرة أفضل لنا، حتى وإن لم يكن هذا تفكيره.»[22]

وبغض النظر عن العوامل الإقليمية، أصرّ الأسد على قراءته المتأنية الواقعية للوضع في لبنان والتي ترى في الشكاوى الاقتصادية والاجتماعية المزمنة، وفي الجمود السياسي وتهميش شرائح من المجتمع اللبناني الأسباب الأساسية للمشكلات الحالية. ومع أن القوى الخارجية تستغل ما يحصل، فقد أكد الأسد مجدّداً أن «مشكلات لبنان هي من صنع اللبنانيين أنفسهم.»[23]

الحل السوري

مع حلول نهاية عام 1975، تواصل القتال الجادّ في لبنان. وألقى الأسد اللّوم في هذا التصعيد على الجبهة اللبنانية، ورأى في تعنتها رغبة في الحفاظ على الامتيازات «اللامنطقية» التي يمنحها النظام السياسي الحالي في لبنان لبعض الفئات، وهو ما أدّى إلى تعطيل مبادرات الحل السياسي[24]. وقد اتهم الأسد زعيم الجبهة اللبنانية، وزير الداخلية كميل شمعون، بالسعي لتصعيد الموقف من خلال تسليح الميليشيات من مستودعات القوى الأمنية اللبنانية.[25] وقد شارك الأمريكيون الرئيس السوري قلقه إلا أنه لم يكن لدى كيسنجر أي اقتراحات للحل.

أدرك حافظ الأسد أنه بحاجة إلى مبادرة جريئة تكسر الجمود الحاصل، فقام في السادس من كانون الأول عام 1975 بدعوة رئيس حزب الكتائب بيير الجميّل إلى زيارة دمشق. كانت سورية تمد الحركة الوطنية ومنظمة التحرير الفلسطينية بالسلاح لقتال الجبهة اللبنانية، كما أنه لم تكن لدى الأسد أية ثقة بالكتائب نتيجة تعاملهم العلني مع السادات واتصالاتهم السريّة بإسرائيل. وبرغم ذلك، كان الأسد يعلم أن لا حل سياسياً شاملاً يمكن أن ينجح في لبنان من دون التواصل مع الكتائب. غير أنّ العناصر المتطرفة في الكتائب والجبهة اللبنانية أبت إلا أن تعطّل هذه المبادرة، وفي الوقت الذي جلس فيه بيير الجميّل في مكتب الأسد في قصر الروضة، قام ابنه بشير وعناصر من الكتائب بشنّ غارات

وارتكاب مجازر بحق اللبنانيين المسلمين والفلسطينيين المقيمين في شرق بيروت موقعين مئات الضحايا، ناهيك عن تهجير الآلاف. واستمرت الهجمات أسابيع، والتي رأت فيها إسرائيل، فرصة سانحة لضرب جبهة بلاد الشام التي عمل الأسد على بنائها، وذلك برفعها مستوى الدعم المُقدم للكتائب اللبنانية والميليشيات المسيحية الأخرى.

منذ عشرينيات القرن العشرين، رأت الحركة الصهيونية تطابقاً بين مصالحها ومصالح مسيحيي لبنان، نتيجة وجود ما ادعت أنه إحساس بالخطر المتنامي من «عدوانية العرب والمسلمين وانعدام التسامح لديهم»، إضافة إلى حاجة سياسية وثقافية مشتركة قائمة على استمرار التواصل مع القوى الغربية التي اعتمدت عليها المجموعتان للحفاظ على وجودهما المتقلقل في هذه «البيئة المعادية»[(26)]. وقامت الوكالة اليهودية في ثلاثينيات القرن العشرين بالتواصل مع عدد من الشخصيات المارونية في مَعْرِض سعيها لإنشاء علاقات مع الدول العربية المجاورة، وخاصة مع الأقليات[(27)]. اعتقد بن غوريون أن ليس لدى الموارنة خيار سوى التواصل مع الصهاينة، فهم أيضا «جسم غريب» في العالم العربي، وتوسعت هذه العلاقات بعد احتلال فلسطين عام 1948؛ إذ كان الموظفون الإسرائيليون يبنون علاقات جيدة مع شخصيات لبنانية ويعزّزون علاقات قديمة لهم.[(28)] وفي عام 1950، خصصت إسرائيل مبلغ ثلاثين ألف دولار لدعم حملة حزب الكتائب في الانتخابات اللبنانية، بيد أنه فشل في الفوز بأي مقعد[(29)]، وفي عام 1958 أرسلت إسرائيل السلاح والذخائر لمقاتلي حزب الكتائب في معركتهم ضد القوى الوطنية والمدّ الناصري.[(30)] ومع اندلاع الحرب الأهلية عام 1975، انتقلت العلاقة بين إسرائيل والكتائب إلى مستوى جديد وخطير، حيث تدفق السلاح الإسرائيلي بمباركة أمريكية، ووصل إلى أيدي مقاتلي الجبهة اللبنانية حتى قبيل اندلاع النزاع. وفي الثالث من كانون الأول عام 1975، وصل جوزيف أبو خليل، رئيس تحرير جريدة العمل، وهي الجريدة الرسمية لحزب الكتائب، إلى إسرائيل موفداً من بشير الجميل، الذي

كان مؤيداً بشدّة لحلف «ماروني - إسرائيلي». التقى أبو خليل مسؤولين من وزارة الدفاع والجيش الإسرائيلي وطلب مزيداً من الدعم العسكري؛ مما تبعه تدفق مزيد من السلاح الإسرائيلي، والمدربين العسكريين الإسرائيليين، إلى بيروت الشرقية[31].

حاول حافظ الأسد فصم عُرى هذا التحالف «الماروني - الإسرائيلي» بالوسائل العسكرية من خلال إلحاق الهزائم بالكتائب وحلفائهم، وسياسياً بالانفتاح عليهم وإقناعهم بأنهم ينتمون إلى سورية والوطن العربي وبأنهم ليسوا أقلية معزولة بحاجة إلى حماية القوى الأجنبية. لكن في مطلع العام 1976، لم تكن الكتائب، وخاصة بشير الجميّل، بصَدَدِ الاستماع إلى المنطق واستمرّت ممارسة العنف. وسرعان ما ردّ تحالف القوى الوطنية والفلسطينية على المجازر باجتياح بلدة الدامور جنوبي بيروت، وهي التي كانت موالية لكميل شمعون، وارتكب أفراده بدورهم الفظائع بحق السكان المدنيين هناك. وفي يوم سقوط الدامور الواقع في 20 كانون الثاني عام 1976، أدخلت سورية وحدات من جيش التحرير الفلسطيني، التابع اسمياً لمنظمة التحرير الفلسطينية وعملياً لقيادة الجيش السوري، إلى لبنان لإعادة التوازن العسكري وكبح تدهور الأوضاع. وقد أراد الأسد أن يُفهم الكتائب أنه لن يتم التسامح مع مجازرهم بعد اليوم. ومع ذلك، لم يعتمد على الحل العسكري بصفة مطلقة، واستمر بالسير موازياً الوساطة السياسية.

إنّ استئناف المحادثات وممارسة ضغط سوري شديد على سليمان فرنجية والفرقاء المسيحيين أثمر أخيراً اتفاقاً شاملاً، وافق عليه كل القادة السياسيين اللبنانيين في الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني عام 1976، بحضور وزير الخارجية السوري. نصّ الاتفاق على حزمة إصلاحات موسعة عُرفت بالوثيقة الدستورية، من ضمنها تقسيم مقاعد النواب اللبناني على نحوٍ متساوٍ بين المسيحيين والمسلمين، ومنْح رئيس الوزراء المسلم السني صلاحية

الموافقة على أي تشريع يقرّه الرئيس المسيحي الماروني كي يصبح نافذ المفعول، والدعوة إلى إلغاء المحاصصة الطائفية من الدوائر الحكومية. كما ألزمت التسوية القوات الفلسطينية بالانسحاب إلى الخطوط المتفق عليها في اتفاقية القاهرة عام 1969 قبل البدء بأي عملية إصلاح سياسي. وقد وافق فرنجية على توقيع الوثيقة على مضض بعد اجتماع مطوّل مع الأسد في دمشق في السابع من شباط عام 1976.

التدخل السوري

في عام 1989، وقّع نواب المجلس اللبناني المجتمعون في مدينة الطائف السعودية على وثيقة إصلاح سياسي أنهت خمسة عشر عاماً من الحرب الأهلية. استند اتفاق الطائف بمعظمه إلى الوثيقة الدستورية التي كان الأسد قد خرج بها عام 1976. إلا أن الحل السوري ووقف إطلاق النار الذي تبعه في بداية عام 1976 لم يصمدا طويلاً. وأدت مماطلة فرنجية في توقيع الوثيقة ومحاولاته اللاحقة لتغيير محتواها إلى ردة فعل عنيفة من قبل الحركة الوطنية، ومن جانب بعض فرقاء الجبهة اللبنانية أيضاً، ووقع ثلثا أعضاء مجلس النواب عريضة دعت إلى استقالته. تصدّع الجيش اللبناني، وقام فصيل منشق أطلق على نفسه اسم «جيش لبنان العربي» بقصف القصر الرئاسي اللبناني. وفي السابع عشر من آذار، أعلن قائد منطقة بيروت العسكرية، العميد عزيز الأحدب، عن تسلّم زمام الأمور في البلاد عبر شاشة التلفاز، غير أن هذا الانقلاب لم يحصل على واقع الأرض لأنّ الأحدب لم يمتلك أيّ قوة موالية له، وسرعان ما تناساه الناس. ولكن الأسد تمكّن من إيجاد مخرج لهذا المأزق عن طريق اتفاقه مع الأطراف المسيحية على انتخاب رئيس جديد للجمهورية في شهر أيار، في حين يبقى فرنجية في منصبه حتى نهاية ولايته في أيلول 1976.

إنّ هذه المبادرة الجديدة، التي أُريد بها خلق جو إيجابي في البلاد وإنقاذ

الوثيقة الدستورية، قُوبلت بالرفض من كمال جنبلاط، الذي غيّر موقفه من الوساطة السورية جذرياً، وشرع في حشد المعارضة للحل السياسي ضمن حلفائه اليساريين والفلسطينيين، ودعا إلى عمل عسكري حاسم ضد المسيحيين. ورأى جنبلاط أن صيغة الحل السياسي المقترحة تحول بينه وبين حلمه في قيادة لبنان علماني يساري، هذا الحلم الذي أراد من عرفات وآلاف من المقاتلين الفلسطينيين تحقيقه له. حاول حافظ الأسد في اجتماع عاصف دام ثماني ساعات ونصف في السابع والعشرين من آذار إقناع جنبلاط بالعدول عن حماسته الثورية لمصلحة إيجاد حل سياسي متوازن. وقد حذّره من أن انتصاراً عسكرياً شاملاً للحركة الوطنية ومنظمة التحرير قد يستدعي ردود فعل إقليمية ودولية خطيرة بما فيها غزو إسرائيلي مدعوم أمريكياً للبنان. كما أنه نبّه جنبلاط إلى أن لا طرف في لبنان يستطيع إلغاء الطرف الآخر تماماً، وأن قواته لن تستطيع ذبح كل مسيحيي لبنان، بل ستدفع أفعاله هذه إلى تقسيم البلاد. وإضافة إلى ذلك إنّ مجزرة من هذا الحجم ستدفع الكتائب، ولربما كل المجتمع المسيحي في لبنان، نحو أحضان إسرائيل التي ستبدو منقذة لهم. وسأل الأسد جنبلاط بكل صراحة عن شكل لبنان المستقبل الذي يريد قيادته إن كان ينوي إخضاع نصف الشعب بالقوة والمجازر[32]. لكن، وعلى الرغم من كل الأسباب الموجبة التي ساقها الأسد، وبعد أقل من أسبوع على لقائهما، شنّت قوات الحركة الوطنية ومنظمة التحرير الفلسطينية هجوماً واسعاً على قرى الشطر المسيحي من جبل لبنان وفي محاور بيروت، وباتت الكتائب وحلفاؤها على وشك الهزيمة.

مع تدهور الوضع في لبنان، قُرع ناقوس الخطر في واشنطن. أيقن كيسنجر أن الأسد لا يستطيع أن يقف متفرجاً ولبنان ينهار على هذا النحو، وأنه لم تبقَ خيارات أمام سورية سوى القيام بتحرّك عسكري لإعادة الاستقرار قبل البدء بتطبيق أي حل سياسي. قال الوزير الأمريكي لموظفيه بكل صراحة: «في

الحقيقة، إن الأسد على حق. لو لم نكن حكومة من الدرجة الثانية لقلنا له أن يدخل إلى هناك بسرعة وينهي المهمة. لكن هذا المكان مليء بالفئران!.»[33] كان كيسنجر يشير إلى الضغوط الإسرائيلية، وخاصة من اللوبي اليهودي القوي في واشنطن، والتي وقفت ضد أي تدخل سوري في لبنان. ومع ذلك، لم ينتظر الأسد إشارة من الأمريكيين، وأمر وحدات من جيش التحرير الفلسطيني ومنظمة الصاعقة (الجناح العسكري للفرع الفلسطيني من حزب البعث العربي الاشتراكي) بالدخول إلى لبنان من سورية على وجه السرعة لوقف تقدم الحركة الوطنية ومنظمة التحرير. حذّر كيسنجر موظفيه قائلاً بأن «من المستحيل أن تجلس إسرائيل متفرجة في الوقت الذي ترسل فيه سورية قواتها إلى لبنان[34]». لكنه طلب من مورفي الإشادة بدور سورية «البنّاء والحذر في تحقيق وقف إطلاق النار وفي وضع أسس الحل السياسي في لبنان.»[35] غير أنّه، وفي الوقت نفسه، طلب إليه نقل مخاوف أمريكا من أن «سوء تفاهم بين سورية وإسرائيل حيال نيّات كل طرف في لبنان قد يؤدي إلى تصعيد عسكري.»[36] سارع الأمريكيون إلى منع اندلاع النار، لكن حليفتهم الصاعدة في المنطقة، مصر، لم تقدم أي مساعدة تذكر. وقد كان السادات يغدق الدعم السياسي والعسكري على جنبلاط وعرفات كي يبدّد العزلة التي فرضتها عليه (سيناء2). كان كيسنجر حينذاك يخشى أن يُفضي صِدام عسكري سوري ـ إسرائيلي إلى مصالحة مصرية ـ سورية، أو إلى ما هو أسوأ؛ إذ قد يؤدي إلى وحدة عربية[37]. بيد أن هذه المخاوف سرعان ما تلاشت عندما اتصل السادات بالأمريكيين مبدياً استغرابه من تأخر الرد الإسرائيلي على التدخل العسكري السوري في لبنان[38].

مع نهاية شهر آذار، ورغم اللقاءات التي عقدها مورفي مع الأسد، والرسائل التي أرسلها كيسنجر إليه، لم تُجب دمشق عن السؤال الأمريكي حول ما يمكن أن تفعله الولايات المتحدة «للمساعدة» في لبنان، أو إنْ كان الأسد ينوي القيام بتدخل عسكري واسع في ذلك البلد بوحدات نظامية من الجيش

السوري[39]. ذكّرت هذه الأحداث كيسنجر بمجابهاته السابقة مع الأسد، فقال لموظفيه: «تعلمون أنه فنان في ذلك. قلت له في آخر لقاء لنا إنه الشخص الوحيد الذي أعرفه والذي لا يكتفي بالذهاب إلى حافة الهاوية، بل يقفز فعلاً فوقها، آملاً أن يجد شجرة يتشبث بها أثناء سقوطه.»[40]

ومع ذلك، لم يألُ وزير الخارجية الأمريكي جُهداً، وأرسل رسالة شفهية للأسد في التاسع والعشرين من آذار بواسطة القائم بالأعمال الأمريكي في دمشق روبرت بيلترو لوجود مورفي في واشنطن لتلقي التعليمات الجديدة. قرأ بيلترو للأسد أهم النقاط التي سترد في التصريح الذي ستوضح فيه إدارة فورد الموقف الأمريكي من لبنان، وهو الأول من نوعه[41]. أولاً، أكد التصريح أن الحل الوحيد المحتمل للأزمة اللبنانية هو الحل السياسي، ورحب بالوثيقة الدستورية التي توصلت إليها سورية ووقف إطلاق النار الذي تبعها، ولكنّه أكّد أيضاً أن أي تدخل عسكري لأية قوة خارجية يحمل مخاطر جمة، ولذلك يجب تجنبه. كما طلب كيسنجر من بيلترو أن يخبر الأسد بما طُلب من مبعوث فورد الجديد إلى لبنان، السفير دين براون، أن يقوله لقادة الأحزاب اللبنانية، بمن فيهم جنبلاط. لقد طُلب من براون نقل وجهة النظر الأمريكية بوجوب ألاّ يتوقع أي فصيل لبناني أن يخرج منتصراً من هذا الوضع، بل على نقيض ذلك، قد يقع لبنان بسهولة فريسة صراع يجذب القوى الخارجية ويكون مدمّراً لكل اللبنانيين. وإذا تدخلت القوى الخارجية، فسيقع اللوم على عاتق اللبنانيين الذين قاوموا الحل السياسي المعقول. كما سيشرح براون بوضوح أن إسرائيل ترى أن ما يحصل في لبنان هو تهديد لأمنها، وأن الولايات المتحدة قد نجحت في ضبط إسرائيل حتى ذاك الحين، غير أنها لا تضمن ألن لا يحصل تدخل إسرائيلي في المستقبل القريب. ادّعى كيسنجر أن الموفد الأمريكي سيعارض تقسيم لبنان وسيشدد على الفصائل اللبنانية أن تقبل «الحل السوري» لأنه المقاربة الأنسب في الظروف الراهنة.

في صبيحة الأول من نيسان أبرق كيسنجر مجدّدا للأسد لينفي «الكذبة الفاضحة والخبيثة» التي تقول إن براون حث جنبلاط على مواصلة القتال، وقد أكد له أن بروان كانت لديه تعليمات واضحة بالقول لجنبلاط ومؤيديه بأنهم سيتحملون عواقب مقاومة صيغة الوثيقة الدستورية. وختم كيسنجر البرقية بتاكيده «ثقته الكاملة بأن الرئيس الأسد لا يمكن تضليله بمثل هذه المناورات الجنبلاطية[42].» إلا أن باتريك سيل في كتابه (الأسد والصراع على الشرق الأوسط) يدّعي أن براون عبّر لجنبلاط عن تشاؤمه إزاء إمكانية التعايش بين المسلمين والمسيحيين في لبنان مستقبلاً؛ مما فسره جنبلاط على أنه دعوة أمريكية إلى التقسيم ومن ثمَّ استمرار الحرب. من ناحية أخرى، وبحسب سيل أيضاً، إن براون أخبر القادة المسيحيين أن لا يتوقعوا قدوم المارينز كما في عام 1958 ولذا عليهم تقوية علاقاتهم بإسرائيل.[43] ويستنتج باتريك سيل أن الغاية الأساسية لهذه المناورات هي استدراج الأسد إلى المستنقع اللبناني عوضاً عن إبقاء سورية خارجه، ولكن هذا الفصل سيوضّح بما لا يدع مجالاً للشك أن الرئيس السوري لم يَبْنِ حساباته حول التدخل في لبنان وفقاً للتصريحات والتحركات الأمريكية، بل على أساس مصالح سورية الوطنية ومصلحة لبنان العربيّ.

في ذاك اليوم نفسه، توجه مورفي إلى قصر الروضة للقاء الرئيس مرةً ثانية. وهناك نقل إليه «تقدير الرئيس فورد للطريقة المسؤولة التي تعاملت بها سورية مع الوضع في لبنان خلال الأشهر الماضية» إلا أنه عبّر أيضاً عن قلق فورد من المخاطر التي ينطوي عليها تدخل عسكري سوري علني ومباشر في لبنان[44]. وواصل كلامه شارحاً المزاج العام في واشنطن؛ فالإدارة الأمريكية تريد أن ترى، حسب ادعائه، الحل السياسي ذاته الذي كان الرئيس الأسد يحاول التوصل إليه في الأشهر القليلة الماضية[45]. ولكن المشكلة الأساسية التي يواجهها الأمريكيون هي الضعف السياسي لحكومة رابين، والتي كانت

أضعف من أن تؤكد هل تنوي إسرائيل الرّدّ على أيّ تدخّل عسكري سوري في لبنان أم لا؟ وعلى الرغم من النصائح الأمريكية، فمن المرجّح أن تردّ إسرائيل على أي تدخل سوري في لبنان فورياً، وسيكون أحد أهدافها المحتملة هو إبعاد منظمة التحرير عن جنوب لبنان.[46] وقد تنجم عن هذا التحرك السوري، ورد الفعل الإسرائيلي عليه، حساسيات بين دمشق وواشنطن، لأن إدارة فورد ستتعرض لضغوط كي تدعو، ومعها دول أخرى، إلى انسحاب القوات السورية.[47] وبصرف النظر عن قصر مدة أي تدخل عسكري سوري، لا يمكن للولايات المتحدة ضمان التصرفات الإسرائيلية، لذلك تفضّل أن تستمر سورية في المسار الذي اتبعته لحل الأزمة في لبنان بالوسائل السياسية.[48]

لم يردّ الأسد على هذه التهديدات الواضحة، لكنه أكد أن سورية لن تجلس متفرجة على ما يحصل من مذابح. لقد غدا وقف إطلاق النار بلا معنى لأن هناك 200 ألف مقاتل مسلحين بدبابات ومدافع ثقيلة في لبنان، ولا وجود لقوة عسكرية أو سلطة مركزية قادرة على إعادة الاستقرار. لذا، لا يمكن استعادة الاستقرار في وقت تستمرّ فيه الميليشيات بامتلاك مثل هذه القدرة العسكرية المدمّرة. وحتى لو انتُخب رئيس جديد، فإنه لا يملك أي قوة حقيقية لتنفيذ أوامره.[49] لم يستطع مورفي مخالفة هذه الحقائق، فقد سمعها من كيسنجر نفسه مراراً وتكراراً في واشنطن، غير أن العامل الإسرائيلي طغى مجدداً على كل الحسابات الأخرى فيما يخص السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط.

لا خطوط حمراء

في الخامس من نيسان عام 1976، دخلت وحدات من جيش التحرير الفلسطيني ومنظمة الصاعقة إلى بيروت، وفي أقل من أسبوع، تمكّنت من السيطرة على مطار بيروت الدولي وموانئ المدينة؛ مما حرم تحالف الحركة الوطنية ومنظمة التحرير من مصادر السلاح والذخيرة. واستطاعت القوات

المدعومة من دمشق إعادة التوازن العسكري على عدّة جبهات، وإيقاف المد الجنبلاطي. وفي واشنطن، أثار التدخل السوري المتصاعد المخاوف. ورغم اعتراف مستشار الأمن القومي الأمريكي برينت سكوكرفت بالفوائد الآنية للتدخل السوري، فقد حذّر الرئيسَ فورد من أنّ «سورية قد تتمكن خلال سنتين من تعزيز قوتها وفرض نفسها قوة مسيطرة على القوس الممتد من لبنان إلى الأردن؛ مما يمثّل خطراً داهماً على المصالح الأمريكية، ويتماشى مع التجارب السابقة.»[50] واعتقد كيسنجر من ناحيته أن التلويح بالتهديد الإسرائيلي «مفيد»، ولكن إن دخلت وحدات نظامية سورية إلى لبنان، وجب على الولايات المتحدة «التصرف بأقصى ما يمكن لضبط إسرائيل ومنع وقوع أيّ صدام.»[51] لقد أثار عجز الولايات المتحدة على التصرف إزاء العناد الإسرائيلي حيرة نائب الرئيس نيلسون روكفلر الذي قال: «أليس لدينا نفوذ في إسرائيل؟ ومع كل ما نعطيه لهم، ألا يمكننا أن نقول لهم ببساطة ألاّ يتدخلوا؟[52]» لقد خشي روكفلر من أن يؤدي تجدد الصراع في الشرق الأوسط إلى حظر نفطي آخر، وإلى أن «تتخلص» الدول العربية من عشرين مليار دولار من الأصول الأمريكية التي تملكها[53]. شاطَرَ كيسنجر نائب الرئيس هذه المخاوف مؤكداً أن «الطريقة الوحيدة لبقاء الأوروبيين الغربيين على هذا المستوى المعيشي هي بقاء الودائع العربية؛ وإذا انسحب السعوديون والكويتيون من الجنيه الاسترليني فسينهار. لذلك، إذا دخلت سورية إلى لبنان، وجب على الولايات المتحدة بذل الجهود لمنع تدخل إسرائيلي.»[54]

اقترح كيسنجر صيغة بارعة يمكن بها دخول القوات السورية لإعادة الاستقرار إلى لبنان دون حصول رد فعل إسرائيلي. ففي الثالث والعشرين من آذار، تلقى كيسنجر أخيراً رداً من رابين على تساؤلاته، أكد فيها أنه في حال حصول تدخل عسكري سوري، فإن «القوات الإسرائيلية ستحتل بصمت مواقع استراتيجية في جنوب لبنان.»[55] في اليوم التالي، حدّدت مذكرة إسرائيلية أُرسلت إلى واشنطن أنواع الأسلحة والقوات السورية التي لا تقبل إسرائيل

وجودها في لبنان، وخاصة انتشار وحدات سورية أكثر من عديد لواء واحد (بما في ذلك القوات الموجودة سابقاً في لبنان). كما ورد في المذكرة أن إسرائيل لن تتساهل مع تقدم أي قوات سورية أكثر من عشرة كيلومترات جنوب طريق بيروت ـ دمشق[56].

كان هذا اتفاق «الخطوط الحمر» الشهير، والذي يجادل معظم المؤرخين محاولين البرهان على أنه كان اتفاقاً ثلاثياً سورياً ـ إسرائيلياً ـ أمريكياً. وبما أن الترتيبات، كما ادّعى كيسنجر «عكست تفاهمات ضمنية بحاجة إلى غطاء من السرية يعطي القدرة على إنكارها» قام هو والسفير الإسرائيلي في واشنطن سيمكا دينيتز بقراءة بيانات رسمية أحدهما للآخر دون التوقيع أو تبادل أي وثائق بغرض «تفادي أي سوء فهم لهذه التفاهمات الضمنية أو تفسيرها على أنها التزامات قانونية مما قد يحولها إلى قضايا داخلية.»[57] وحدّد دينيتز في تصريحه ما تعدّه إسرائيل «خطوطاً حمراً»، في حين أصر كيسنجر في تصريحه على أن تنسق إسرائيل كل خطواتها المستقبلية في لبنان مع واشنطن، وخصوصاً في حالة حدوث تدخل سوري[58].

إذاً كان اتفاق الخطوط الحمر تفاهماً إسرائيلياً أمريكياً، ولا يقدّم كيسنجر أي دليل يثبت أن دمشق قبلت هذا التفاهم. وعلى عكس ذلك، توضح الأدلة الوثائقية التالية من كلا الأرشيفين السوري والأمريكي، وبما لا يدع مجالاً للشكّ، أن الأسد رفض كل الخطوط الإسرائيلية الحمراء، وتصرّف في لبنان كما أراد، ناشراً قواته في مناطق معينة وبأعداد تجاوزت كل الخطوط الحمراء المفترضة، على حين لم تتدخل إسرائيل لأسباب تخصها هي وليس لأنها تلقت ضمانات سورية عن طريق الولايات المتحدة.

في الرابع عشر من نيسان أرسل كيسنجر برقيتين إلى دمشق، قام مورفي بقراءتهما للمستشار السياسي للرئيس الأسد:

البرقية الأولى: «إن الحكومة الإسرائيلية أبلغت الحكومة الأمريكية

أنها التزمت الصمت حيال دخول القوات السورية إلى لبنان، بعد التأكيدات التي تلقتها من الولايات المتحدة بشأن طبيعة المهمة التي تقوم بها. ولكنّ إسرائيل ترى أن حجم هذه القوات وامتدادها، قد وصلا إلى حافة الهاوية، وأن أية زيادة أو أي تقدم يتخطى نقاط تمركزها في الثاني عشر من هذا الشهر سيحمل إسرائيل على اتخاذ الإجراءات المتعلقة بسلامتها.»[59]

البرقية الثانية: «لقد ضغطنا خلال الأيام الماضية بشدة على الإسرائيليين ليمتنعوا عن إصدار إي رد فعل تجاه إدخال قوات سورية وعتاد ثقيل إلى لبنان. وفي الثاني عشر من هذا الشهر (نيسان 1976) أعلمتنا الحكومة الإسرائيلية بأنها تعدّ الأعمال السورية في لبنان قد وصلت إلى نقطة ستجد فيها إسرائيل نفسها ملزمة باتخاذ تدابير وإجراءات خاصة بها إذا تم تخطيها. ونحن في الولايات المتحدة قلقون من أن ينشأ انطباع في سورية بأن غياب رد فعل إسرائيلي علني يعني عدم اهتمام من إسرائيل بالأعمال السورية.»[60]

كتب الأسد ردّاً على البرقيتين بخط يده فوراً وطلب من مورفي إيصاله لكيسنجر:

1. إن سورية ترى أنّ ما ورد في الرسالة يشكل إنذاراً وهي ترفض هذا الإنذار رفضاً قاطعاً.

2. إن سورية ليست مستعدة الآن ولن تكون مستعدة في المستقبل لقبول أي إنذار، من أية جهة في العالم.

3. إن ما يحدث في لبنان شأن عربي داخلي، والعرب فقط هم أصحاب الاختصاص في معالجة هذا الشأن.

4. إن الاعتبار الوحيد الذي حدّد ويحدّد الآن وفي المستقبل أبعاد

التدخل السوري في لبنان، بما في ذلك حجم القوات السورية ومواقعها، هو مصلحة شعب لبنان، لأن تاريخنا واحد، ومستقبلنا واحد، ومصيرنا واحد.[61]

بعد أقل من 48 ساعة أرسل كيسنجر إلى الأسد برقية أخرى ينفي فيها أنه ناقش أي «خطوط حمراء» سواء في السر أو في العلن:

«نشرت صحف اليوم (15 نيسان) روايات تربط بين أقوال رابين أمس بأن هناك «خطاً أحمر» في لبنان لا تستطيع سورية اجتيازه من دون أن تجازف بتدخل عسكري إسرائيلي، وبين ردودي على أسئلة صحفية حول الوضع اللبناني عقب مثولي أمام إحدى لجان الكونغرس أمس، والتي عبَّرت فيها عن الرأي بأن سورية تقترب من الحدِّ الذي سيثير تدخلاً إسرائيلياً. لقد نشرت واشنطن بوست البيانين جنبا إلى جنب تحت عنوان واحد يقول «كيسنجر ورابين يحذران سورية من أعمالها في لبنان.» إن مثل هذه المعالجة الصحفية مضلّلة وخالية من شعور المسؤولية؛ إذ لم يكن هناك أي ترابط أو تنسيق بين البيانين، وظهورهما في اليوم نفسه هو محض تصادف. إنني لم أُدلِ بأي بيان حول الوضع اللبناني، وأكرّر لم أدلِ بأي بيان، وإنما سُئلت من قبل أعضاء مجلس الشيوخ أثناء مثولي أمام لجنة الاعتمادات التابعة للمجلس حول الأنباء عن تدخل سوري في لبنان. وفي معرض إجابتي، سعيت إلى أن أنقل ما هو موقفنا العلني منذ بعض الوقت، وهو أنّ أيّ تدخل عسكري خارجي في لبنان ينطوي على أخطار استدعاء تدخل معاكس. كما أنني أشرت خلال الاستجواب في مجلس الشيوخ، ومرة أخرى ردّاً على أسئلة، بأنني أرى أن الموقف العام قد تحسّن خلال بضعة الأسابيع الماضية.»[62]

هذا يدفعنا إلى استنتاج أن حافظ الأسد قام بالتدخل العسكري في لبنان بالرغم من التهديدات الإسرائيلية ومحاولات كيسنجر حثه على القبول باتفاق ضمني مع رابين. لقد تمكّنت القوات التي أرسلتها سورية من منع مذبحة كانت ستؤدي إلى تقسيم لبنان وإفساح المجال لغزو إسرائيلي، وتمّت إعادة الاستقرار إلى بيروت. وفي الثامن من أيار انتُخب إلياس سركيس، الشخصية المارونية المعتدلة والذي كان يشغل منصب حاكم مصرف لبنان المركزي، رئيساً للجمهورية. إلا أنه وعقب الانتخابات أشعل تحالف الحركة الوطنية ومنظمة التحرير الفلسطينية الجبهات في محاولة لتحقيق نصر عسكري حاسم. ردّ الأسد في الأول من حزيران 1976 بإدخال آلاف من جنود الجيش السوري إلى لبنان مدعومين بالدبابات والمدرعات وبتغطية من سلاح الجو. وتحركت القوات السورية إلى بيروت، ووصلت مدينة صيدا في الجنوب. تجاوز عديد القوة السورية ومدى انتشارها كل خطوط إسرائيل الحمراء. ويشير الحديث التالي الذي دار بين كيسنجر والسفراء الأمريكيين في الشرق الأوسط خلال اجتماعهم في باريس في الثاني والعشرين من حزيران 1976، وعلى نحوٍ لا يقبل الشك، أن الأسد تصرّف دون أي خطوط حمراء مفروضة سلفاً، وأن إسرائيل امتنعت عن التدخل لأسباب خاصة بها وليس نتيجة ضمانة أمريكية:

> روى أثرتون (مساعد وزير الخارجية الأمريكي لشؤون الشرق الأدنى): إنهم (الإسرائيليون) قد حدّدوا لنا «الخطّ الأحمر» وأعادوا تحديده مراراً. لو التزموا بتحديدهم الأصلي لكانوا يخوضون الآن حرباً.
>
> هرمان إيلتس (السفير الأمريكي في مصر): إنّ السبب الذي يدفع السادات إلى الظنّ أننا نتعاون مع الأسد هو اعتقاده بأن السوريين يقضون على منظمة التحرير لمصلحتنا. إن فعلها الأسد، فشكوك السادات ستتعمق.

كيسنجر: الحقيقة هي، وكما يعرف ريتشارد (مورفي) أننا لا نعلم أي شيء عما يفعله الأسد. الحقيقة، وكما يعلم روي (أثرتون)، نحن لا نعلم شيئا عما تفعله إسرائيل. هل يا ترى هناك تواصل بين السوريين والإسرائيليين عبر الأردن؟

توماس بيكرنغ (السفير الأمريكي في الأردن): لا، في حدود علمي.

كيسنجر: أو ربما عن طريق المسيحيين؟ يعتقد العرب أننا نحن أصحاب الفضل في ضبط إسرائيل، لكننا للأسف لا نقوم بذلك.

أثرتون: هم يضبطون أنفسهم.

كيسنجر: لا يخبروننا بشيء.[63]

الخاتمة: السلام السوري

في الأيام التي تبعت دخول وحدات نظامية من الجيش السوري إلى لبنان، عقد وزراء الخارجية العرب اجتماعاً طارئاً في القاهرة وقرّروا إرسال قوة حفظ سلام عربية إلى لبنان بقيادة الرئيس المنتخب إلياس سركيس. إلا أن هذه القوات التي وصلت بيروت سرعان ما أثبتت عدم فاعليتها، بل إن بعض وحداتها، من العراقيين والليبيين، انضمت للقتال إلى جانب الحركة الوطنية ومنظمة التحرير الفلسطينية. وشنَّ السادات حربا إعلامية ضد الأسد، في حين قطع العراق إمدادات النفط عن سورية. ومع ذلك لم يتزحزح الأسد؛ إذ لم يكن يريد تدمير منظمة التحرير، ولكنه أراد فصلها عن كمال جنبلاط وأوهامه وإعادتها إلى تحالفها الطبيعي مع دمشق. رفض الرئيس السوري رفضاً قاطعاً مناقشة الشؤون اللبنانية الداخلية أو النظام السياسي في لبنان مع عرفات، وحثّه على سحب مقاتليه من أزقة بيروت وإعادتهم إلى حيث ينتمون، أي إلى الجبهات المقابلة لإسرائيل.

غير أن عرفات بقي متعنتاً، ولم يطبّق ثلاثة اتفاقات لوقف إطلاق النار وقّعها مع سورية في حزيران وتموز 1976، واستمرّ في القتال إلى جانب جنبلاط.

انتقد الاتحاد السوفييتي سورية بشدة لتدخلها ضد القوى اليسارية في لبنان، وألغى الروس عدة لقاءات مع المسؤولين السوريين، وقاموا بتأخير شحنات أسلحة للجيش السوري. لكن الأسد رفض المساومة على موقفه المبدئي، إذ كان يعلم أن سورية هي الصديق الوحيد المتبقي للسوفييت في المنطقة، وأن جنبلاط ومنظمة التحرير لا يمكنهم أن يكونوا بديلاً عنها[64]. كان الأسد يدرك حقيقة أن داخل منظمة التحرير هنالك عدة أطراف ذات اتجاهات مختلفة، منها من كان ضد علاقة وثيقة مع الاتحاد السوفييتي. أما سورية، فهي دولة ذات سياسة واحدة وواضحة، ألا وهي بناء علاقة استراتيجية مع الاتحاد السوفييتي[65].

أما فيما يتعلق بكيسنجر، فقد أكّد للأسد مراراً أن إدارة فورد، التي كانت منهمكة في الانتخابات الرئاسية الأمريكية، مستمرة في دعم الحل السياسي في لبنان المبني على تسوية الوثيقة الدستورية التي رعتها سورية[66]، ولكنه في الوقت نفسه كان يتمنّى في سرّه أن يفشل الأسد في لبنان، معتقداً أن ذلك سيؤدي إلى انقلاب عليه في دمشق، مما سيخلق «فرصة فريدة لتحقيق السلام» في العام المقبل[67]. إلا أنه سيغادر منصبه قبل مدة طويلة جداً من الأسد؛ إذ نجح جيمي كارتر في الوصول إلى سدة الرئاسة في انتخابات عام 1976، وخرج فورد ومعه كيسنجر من البيت الأبيض الذي دخله كارتر في كانون الثاني عام 1977.

لم يكن الرئيس السوري مستعداً للإخفاق في لبنان، لأن ذلك سيعّرض سورية نفسها للخطر، وبدأ صبره على جنبلاط وعرفات بالنَّفاد، كما أنه انزعج من الهجمة العربية ضده، ولا سيما تلك التي شنها السادات، والذي حاول أن يجمع الأطراف اللبنانية في القاهرة في أيلول 1976 آملاً أن يجد حلاً في غياب سورية، لكنه فشل فشلاً ذريعاً. أراد الأسد من دول الخليج العربي، وخصوصاً السعودية، أن تتحمل مسؤوليتها في المساهمة في حل أزمة لبنان، أولاً عن طريق

وقف دعمها لعرفات، وثانيا من خلال مساعدة الجهود السورية الرامية إلى إنهاء الأزمة، عوضاً عن «انتظار سورية لتقديم كل التضحيات بنفسها.»[68] أجرى الأسد محاولة أخيرة لإقناع عرفات بالعدول عن مواصلة القتال عن طريق جَمْعِه في لقاء مع الرئيس المنتخب إلياس سركيس في السابع عشر من أيلول، قبل أسبوع من أداء الأخير القسم الدستوري، إلا أن اللقاء لم يخرج بنتائج.

في السادس والعشرين من أيلول عام 1976 هاجم مسلحون فلسطينيون فندقاً في مركز دمشق. طفح كيل الأسد. وفي اليوم الذي عقب الهجوم اكتسح الجيش السوري مواقع الحركة الوطنية ومنظمة التحرير الفلسطينية في جبل لبنان، وخلال أيام قليلة، تمت إعادة قواتهم إلى مواقعها ما قبل بدء هجومها في آذار 1976. أثبت هذا النصر الساحق أن دمشق هي اللاعب السياسي والعسكري المسيطر في لبنان دون منازع، وأن كل الأوراق باتت في يد الأسد. تحرك السعوديون للتوسط وحلّ الخلاف السوري المصري، وعقدت في 18 تشرين الأول 1976 قمة مصغرة في الرياض جمعت الأسد والسادات وسركيس والملك خالد. وفي 26 تشرين الأول من العام نفسه عُقدت قمة عربية في القاهرة شرّعت وجود الجيش السوري في لبنان تحت راية «قوة الردع العربية». دخلت قوة حفظ السلام الجديدة إلى بيروت وتوقف القتال على كل الجبهات. وبدا لكل المتابعين في ذاك الحين أن الحرب الأهلية في لبنان قد وصلت إلى نهايتها.



الرئيس الأسد مستقبلاً الرئيس اللبناني سليمان فرنجية في دمشق، 7 شباط 1976.



اجتماع الرئيس الأسد مع رئيس الوزراء اللبناني رشيد كرامي في قصر الروضة، 2 آب 1975 .



اجتماع الرئيس الأسد مع رئيس حزب الكتائب اللبنانية بيار الجميل في دمشق،
14 أيلول 1976.

مراجع الفصل العاشر

(1) Helena Cobban, *The Making of Modern Lebanon* (Boulder, 1985), p. 102.

(2) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ سلام، 19 تشرين الثاني 1974.

(3) David Gilmour, *Lebanon: The fractured country* (Basingstoke, 1983), p. 17.

(4) Helena Cobban, *The Making of Modern Lebanon* (Boulder, 1985), p. 103.

(5) Helena Cobban, *The Making of Modern Lebanon* (Boulder, 1985), p. 113.

(6) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كرامي، 2 آب 1975، ص6.

(7) المصدر نفسه.

(8) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كرامي، 2 آب 1975، ص9.

(9) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ كرامي، 2 آب 1975، ص10.

(10) Henry A. Kissinger, *Years of Renewal* (New York, 1999), p. 1019.

(11) Henry A. Kissinger, *Years of Renewal* (New York, 1999), p. 1019.

(12) Henry A. Kissinger, *Years of Renewal* (New York, 1999), p. 1025.

(13) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 264, p. 935.

(14) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 264, p. 936.

(15) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 16 تشرين الأول 1975، ص3.

(16) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 16 تشرين الأول 1975، ص5.

(17) المصدر نفسه.

(18) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 16 تشرين الأول 1975، ص6.

(19) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 16 تشرين الأول 1975، ص9.

(20) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 16 تشرين الأول 1975، ص10.

(21) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 16 تشرين الأول 1975، ص12.

(22) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 16 تشرين الأول 1975، ص13.

(23) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 16 تشرين الأول 1975، ص14.

(24) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 2 تشرين الثاني 1975، ص10.

(25) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 2 تشرين الثاني 1975، ص23.

(26) Kirsten E. Schulze, *Israel's Covert Diplomacy in Lebanon* (London, 1998), p. 24.

(27) المصدر نفسه.

(28) Kirsten E. Schulze, *Israel's Covert Diplomacy in Lebanon* (London, 1998), p. 30.

(29) Kirsten E. Schulze, *Israel's Covert Diplomacy in Lebanon* (London, 1998), p. 35.

(30) Kirsten E. Schulze, *Israel's Covert Diplomacy in Lebanon* (London, 1998), p. 58.

(31) pp. ،Kirsten E. Schulze, *Israel's Covert Diplomacy in Lebanon* (London, 1998) 87-88.

(32) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ جنبلاط، 27 آذار 1976.

(33) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 275, p. 980.

(34) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011) Document 267, p. 947.

(35) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 15 آذار 1976، ص3.

(36) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 18 آذار 1976، ص4.

(37) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011) Document 271, p. 967.

(38) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 286, p. 1024.

(39) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011) Document 275, p. 980.

(40) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 276, p. 984.

(41) الأرشيف الرئاسي السوري، رسالة شفهية من كيسنجر إلى الأسد، 29 آذار 1976.

(42) الأرشيف الرئاسي السوري، برقية من كيسنجز إلى الأسد، 1 نيسان 1976.

(43) Patrick Seale, *Assad of Syria: The Struggle for the Middle East* (London, 1988), p. 280.

(44) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 1 نيسان 1976، ص3.

(45) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 1 نيسان 1976، ص4.

(46) المصدر نفسه.

(47) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 1 نيسان 1976، ص5.

(48) المصدر نفسه.

(49) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 1 نيسان 1976، ص16.

(50) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 284, p. 1015.

(51) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 284, p. 1021.

(52) المصدر نفسه.

(53) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 284, p. 1017.

(54) المصدر نفسه.

(55) Henry A. Kissinger, *Years of Renewal* (New York, 1999), p. 1045.

(56) المصدر نفسه.

(57) المصدر نفسه.

(58) Henry A. Kissinger, *Years of Renewal* (New York, 1999), pp. 1045-1046.

(59) الأرشيف الرئاسي السوري، برقية من كيسنجر إلى الأسد، 14 نيسان 1976.

(60) الأرشيف الرئاسي السوري، برقية من كيسنجر إلى الأسد، 14 نيسان 1976.

(61) الأرشيف الرئاسي السوري، برقية من الأسد إلى كيسنجر، 16 نيسان 1976.

(62) الأرشيف الرئاسي السوري، برقية من كيسنجر إلى الأسد، 18 نيسان 1976.

(63) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011) Document 290, pp. 1039-1040.

(64) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ سركيس، 17 أيلول 1976، ص16.
(65) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ سركيس، 17 أيلول 1976، ص23.
(66) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 14 أيلول 1976، ص7.
(67) Foreign Relations of the United States, 1969-1976, Volume XXVI, Arab-Israeli Dispute, 1974-1976, eds. Adam M. Howard (Washington: Government Printing Office, 2011), Document 284, p. 1022.
(68) الأرشيف الرئاسي السوري، محضر اجتماع الأسد ـ مورفي، 14 أيلول 1976، ص13 ـ 15.

الخاتمة

ماذا لو كان حافظ الأسد مساوماً كما السادات؟ الجواب عن هذا التساؤل ليس بمعقد: لو كان الأسد مساوماً، لرأينا الشرق الأوسط مختلفاً كثيراً عما كان عليه في نهاية القرن العشرين. إن المرحلة التي تلت حرب تشرين التحريرية شهدت إعادة تشكيل للشرق الأوسط، وحاول هنري كيسنجر استغلالها لإعادة ترتيب المنطقة وفقاً للمصالح الاستراتيجية الأمريكية والإسرائيلية. لقد عزّزت شحنات الأسلحة الضخمة والمساعدات المالية غير المسبوقة مكانة إسرائيل كأهم حليف استراتيجي للولايات المتحدة في المنطقة. إلا أن الجانب الأخطر لهذه المساعدات السخية هو تعهد إدارة فورد بعد سيناء2 بضمان تفوق إسرائيل العسكري سنوات عديدة على كل جيرانها العرب مجتمعين. واستعملت إسرائيل طائرات ال اف 15 وال اف 16 التي وعدت بها عام 1975 وتسلّمتها نهاية عقد السبعينيات، واستخدمتها في تدمير بيروت عام 1982 وقتل آلاف المدنيين الأبرياء. وعادت لاستعمال هذا العتاد العسكري مراراً ضد لبنان ثمّ غزة، مسببة قتلاً وتدميراً ومعاناة لا يمكن وصفها. إن الاتفاقات السياسية السرية التي مرّرها كيسنجر على هامش سيناء2 أعطت إسرائيل نفوذاً لا يمكن للوهلة الأولى تصديق تأثيره الهائل في صناعة السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، كما أعطاها حق

الفيتو على أي مبادرة أمريكية في المنطقة لا تناسب مصالحها أو رؤاها. وقامت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة، سواء تلك اليمينية منها أو اليسارية، باستعمال هذا التأثير غير المسبوق في صناعة السياسة الأمريكية لمنع صناع القرار الأمريكيين من اجتراح أي حلول منطقية لمشكلات المنطقة، وللصراع العربي الإسرائيلي بصفة خاصة.

إنّ الإنجاز المهمّ الآخر لكيسنجر هو إخراج مصر من دورها الطبيعي والتاريخي في قيادة الأمة العربية، وتحويلها إلى دعامة أساسية للاستراتيجية الأمريكية في الشرق الأوسط. لم يُرد السادات حرب تحرير قط، ولم يسعَ إلى دور قيادي في الأمة العربية، وبنى مع حافظ الأسد علاقة أساسها الخداع والكذب منذ البداية. لقد آمن الأسد بمصر وبأن سورية لا تستطيع إطلاق رصاصة واحدة في الجولان خارج إطار استراتيجية الجبهتين الموحدتين بين سورية ومصر. لكن، وفي الثامن من تشرين الأول 1973، في اليوم الذي بدأ فيه الجيش المصري «وقفته العملياتية»، وحينما كانت إسرائيل تنقل كل جندي ودبابة وطائرة لديها إلى جبهة الجولان، بدأت هذه العلاقة بالتصدع، وبدأت دمشق بإدراك نيّات القاهرة الحقيقية. إلا أن حافظ الأسد لم يتخلَّ عن مصر بسهولة، وحاول مراراً إقناع السادات بألاّ يمضي في مسار الاتفاقات الثنائية الهدام مع إسرائيل، والذي حثه عليه كيسنجر. عندما قامت مصر بعقد اتفاق فصل القوات مع إسرائيل منفردة، لم تَلِن عزيمة الأسد، وتمكّن من إنجاز اتفاق فصل قوات مشرّف بعد أن أجبر كيسنجر على القدوم إلى دمشق 14 مرة في أقل من شهر، في إحدى أطول جولات الدبلوماسية المكوكية في التاريخ الحديث. غير أن السادات لم يقتنع بأي مما قاله الأسد ومضى في طريق فصل مسارات السلام.

آذن اتفاق سيناء2 بخروج مصر من معادلة الصراع العربي الإسرائيلي، وثبّت فصل مسارات السلام، وجعل من التسوية التي تحقّق السلام العادل

والشامل لكل العرب، وخاصة الفلسطينيين، مهمة شبه مستحيلة. إن الأحداث التي جرت في العقود اللاحقة لمفصل سيناء2 التاريخي أثبتت مدى الأثر المدمّر لانقسام الصف العربي، فسرعان ما يئست إدارة كارتر الذي تلا فورد على سدة الرئاسة الأمريكية من محاولة إعادة عقد مؤتمر جنيف للسلام، وقامت بإنجاز اتفاقات كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل، والتي تلتها معاهدة السلام المشؤومة بين البلدين عام 1979. لم يعش أنور السادات ليرى الانسحاب الإسرائيلي الكامل من شبه جزيرة سيناء؛ إلا أن من خلفوه في حكم مصر التزموا بما عقده من اتفاقيات. لقد تخلّت مصر عن مكانتها في المعادلة الاستراتيجية في منطقة الشرق الأوسط إضافة إلى دورها القيادي في الأمة العربية، وتدفق السلاح والمساعدات الاقتصادية الأمريكية إليها لضمان بقائها على مسار كامب ديفيد. غدا الجيش المصري الذي عبر يوماً قناة السويس مقيداً بعقود تسليح أمريكية، شرطها الأساسي ألا يَستعمِل أياً من هذه الأسلحة ضد إسرائيل. وفي الواقع لم تستعمل ضدها أبداً، تماشياً مع وعد السادات لفورد بأن مصر لن تساعد سورية في حال نشبت حرب بينها وبين إسرائيل. وللأسف، فقد وقفت القاهرة متفرجة حينما ضمّت إسرائيل مرتفعات الجولان إليها عام 1981 وأثناء تدميرها بيروت عام 1982.

حاول حافظ الأسد ملء الفراغ الاستراتيجي الذي تركته مغادرة مصر للصف العربي، إلا أن هذه المهمة كانت شبه مستحيلة أيضاً.

مع أن المملكة العربية السعودية تعهدت بتقديم مساعدة مالية لسورية، إلا أن ما قُدّم لم يشكل إلاّ نزراً تافهاً من العائدات الهائلة التي جنتها السعودية من تضاعف سعر النفط أكثر من أربع مرات نتيجة حرب تشرين الأول. لقد كان الهدف من الحظر النفطي خلال الحرب وبعدها تقوية الموقف التفاوضي العربي؛ غير أنه تم إنهاء الحظر قبل أن تبدأ سورية مفاوضات فصل القوات بعد رضوخ الملك فيصل لضغوط كيسنجر. وعقب حرب تشرين الأول، ضمت

أمريكا السعودية إلى بنائها الاستراتيجي في المنطقة إلى جانب إسرائيل وإيران الشاه ومصر السادات. لم يتمكن الأسد من تغيير هذا الواقع، كما لم يتمكن من عقد تحالف متين مع جاره العراقي القوي في الشرق. وعوضاً عن أن يتوحد الرفاق البعثيون في جبهة صلبة، اختارت القيادة العراقية، بدفع من الرجل القوي نائب الرئيس صدام حسين، أن تضع بلدها على مسار تصادمي مع سورية. وفي عام 1975 قطع العراق واردات النفط إلى سورية، وأطلقت بغداد حملة إعلامية شعواء ضد دمشق، وضد حافظ الأسد بوجه خاص. ساءت تصرفات العراق تجاه سورية مع مضي الوقت، وفي نهاية عقد السبعينيات وبداية الثمانينيات، أغدق صدام حسين السلاح والأموال على جماعة الإخوان المسلمين الإرهابية، مساعداً إياها في حربها الإرهابية ضد الشعب والدولة في سورية، ثمّ إنه دعم أعداء سورية في لبنان؛ مما أضاف مزيداً من التعقيدات للحرب الأهلية المستعرة هناك. واستمرّ صدام حسين في اتباع أهوائه المدمرة، وخاض مغامرتين عسكريتين ضد إيران والكويت، جلب بهما الموت والدمار للعراق، وفتح الأبواب لتدخل أمريكي أوسع في المنطقة.

مع خروج مصر من المعادلة، وعدم إمكان الاعتماد على السعودية، واستحالة تحقيق أي وحدة في الهلال الخصيب نتيجة تعنت بغداد، اتجه الأسد نحو بلاد الشام. لم تكن علاقته مع الملك حسين في أحسن أحوالها، لأن الملك الأردني دأب على وضع ولائه للغرب قبل المصلحة العربية. وإلى جانب ذلك حذّر الإسرائيليين من حرب تشرين الأول قبل بدئها. إلا أن الأسد تناسى هذه الخلافات وسعى إلى بناء علاقة جيدة مع الملك حسين كجزء من استراتيجية بناء جبهة متينة في بلاد الشام بمواجهة إسرائيل. ولكن سرعان ما تبين أن نقطة الضعف الأساسية التي هددت هذه الاستراتيجية هي لبنان.

كانت مآسي الصراع الأهلي في لبنان نتيجة حتمية لسنوات من الخلاف السياسي والتفاوت الاقتصادي. وأدرك الأسد المخاطر المدمرة للصراع الأهلي

الذي أججته الأحقاد الطائفية، وبذل كل ما بوسعه لإطفاء النار اللبنانية. غير أنه، وفي الوقت نفسه، رأى فيما يجري غطاء لتمرير اتفاق سيناء2 وإلهاء الشعب العربي عنه. لم يلتزم الأسد أبدا بأي «خطوط حمراء»، وذهب إلى النهاية في محاولة إعادة الاستقرار إلى لبنان، ولم يتردّد في القيام بتدخل عسكري واسع لإعادة الأمن والنظام إلى ذلك البلد. لقد خاب أمل الأسد بسياسيي لبنان، وبخاصة كمال جنبلاط؛ فقد رفضوا صيغة الحل السياسي المتوازن الذي قدمته سورية عام 1976، ليعودوا ويوافقوا على الصيغة ذاتها في اتفاق الطائف بعد 14 عاماً أخرى من حرب حصدت 100 ألف ضحية.

ولكن خيبة الأمل الأكبر التي مُني بها حافظ الأسد أتت من ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية. فعقب سيناء2، ربط الأسد موقف سورية من عملية السلام بالموقف الفلسطيني ربطاً كاملاً، والذي مثلته منظمة التحرير الفلسطينية. لقد كان الرئيس السوري هو الساعي إلى أن تكون المنظمة هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني من خلال قرار مؤتمر قمة الرباط عام 1974. ورفض الأسد بعد سيناء2 إجراء أي خطوة في عملية السلام على جبهة الجولان دون خطوة موازية على المسار الفلسطيني، وذهب إلى حد رفض دعوة للقاء الرئيس الأمريكي فورد في أواخر عام 1975، لأن الأمريكيين رفضوا أي ربط بين المسارين السوري والفلسطيني. ولكن كيف كافأ عرفات ومنظمة التحرير الأسد على هذه الوقفة الحازمة؟ لقد كافؤوه بالوقوف إلى جانب كمال جنبلاط ومحاولته العبثية للسيطرة على لبنان، وهي التي كانت ستؤدي إلى مجازر كبرى وتدخّل إسرائيلي عسكري بدعم أمريكي مطلق في لبنان. لقد كانت منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة عرفات تحارب في أزقة بيروت، في الوقت الذي كان حافظ الأسد يحاول جعلها جزءاً لا يتجزأ من المعادلة الاستراتيجية في المنطقة. عاد عرفات إلى رشده نهاية عام 1976، بيد أنه عاود التصرف على النمط نفسه في السنوات التي تلت. وبلغ الأمر ذروته حين وصل إلى التفاوض سراً وتوقيع

اتفاقيات أوسلو عام 1993، التي أضاعت حقوق الشعب الفلسطيني ومزّقت الجهد العربي التفاوضي الموحد في مفاوضات مؤتمر مدريد للسلام عام 1991 بعد أن أمضى حافظ الأسد عشرات الساعات مع جيمس بيكر مصرّاً على وحدة الصفّ العربي في ذاك المؤتمر مدريد للسلام، وأتى اتفاق اوسلو ليوجّه الضربة الموجعة الثانية بعد اتفاق سيناء 2 لوحدة الصفّ العربي. لقد عرف حافظ الأسد في قرارة نفسه أنّ وحدة الصفّ العربي شرط لازم لاسترجاع العرب لحقوقهم المغتصبة، ولكنّ السادات وعرفات أحبطا جهود حافظ الأسد الدؤوبة لتحقيق وحدة القول والفعل بين الأشقاء العرب.

إذاً، وقف الأسد وحيداً في مواجهة النظام الإقليمي الأمريكي الذي حاول كيسنجر فرضه على المنطقة العربية بُعيد حرب تشرين الأول. ومع أنّ الضغوط الخارجية والداخلية كانت كبيرة، فقد صمدت سورية منذ عام 1976 إلى عام 1991. لم يكلّ الأسد ولم يملّ في محاولة تحقيق توازن ردع عسكري مع إسرائيل، رغم ما تدفق إليها من سلاح ومال أمريكي. كما أنه لم يتوقف عن محاولة توحيد الصف العربي، سواء في الحرب أو في السلم. إلا أن هذه المهمة أثبتت استحالتها عند كل منعطف. لقد تجاوز الدور السوري في لبنان غزوين إسرائيليين وتدخلاً عسكرياً أمريكياً، وتعنّتاً من الأطراف اللبنانية كلّها، حتى نجح في إعادة الأمن والسلام إلى ذاك البلد في عام 1990، واستمرت سورية في حفظ الأمن والأمان في لبنان حتى انسحاب قواتها عام 2005. وحين غدت الظروف مؤاتية لإحياء عملية السلام عقب حرب الخليج عام 1991، عادت سورية لتخوض غمار معركة دبلوماسية مع إسرائيل والوسيط الأمريكي المنحاز استمرت عقداً كاملاً.

اجتمع الأسد بالرئيس الأمريكي بيل كلنتون في جنيف في 26 آذار عام 2000، قبل أقلّ من ثلاثة أشهر من رحيله. في ذاك اللقاء، اتخذ الأسد موقفاً لربما يلخص جل رؤيته الشاملة واستراتيجيته والمبادئ الأساسية لسياسته.

فعندما عرض كلنتون على الرئيس السوري إعادة 95 بالمئة من الجولان وتعويض سورية عن الـ 5الباقية (معظمها أراض حول بحيرة طبريا)، رفض الأسد العرض وقال غاضباً: «أتريد إبعادي عن مياهنا؟ لقد كنت أضع قدمي دائما في مياه تلك البحيرة، فكيف تفكّر في أن تحرمنا منها لمصلحة محتل أخذها بالقوة؟» حاول كلنتون تهدئة الأسد ونظر إليه قائلاً: «لكن يا فخامة الرئيس الأسد، انظر إلي، لربما أنا الرئيس الأمريكي الأخير الذي سيعرض عرضاً جيداً كهذا. قد لا تتلقى أبداً عرضاً مماثلاً في حياتك». ابتسم الأسد وأجاب: «فخامة الرئيس كلنتون، لست بحاجة إلى أن أتلقى أي عرض في حياتي، وقد لا أستطيع تحرير الجولان كما أحب أن أفعل، لكنني حتماً لن أوقع على التنازل عن حق الشعب السوري في تحرير الجولان من الاحتلال الإسرائيلي، وليس لدي أدنى شك في أن الأجيال السورية القادمة سوف تحرّر الجولان، سواء بعد عشرة أعوام أو عشرين عاماً أو خمسين». لخّص هذا الموقف حكمة الأسد السياسية التي قامت دوماً على محاولته تحقيق أفضل ما يمكن لشعبه دون التفريط بأي من حقوقه، مهما تشتدّ قسوة الظروف أو تختلّ موازين القوى.

لقد كان حافظ الأسد قائداً ذا رؤية استراتيجية وعمق تاريخي، فهو لم يقارب الأمور آنياً أو مرحلياً، بل كان ينظر دوماً إلى مصالح أمته التاريخية. لم يمتلك معظم القادة العرب هذا المنظور أو لم يؤمنوا به. وبسبب هذه الرؤية الاستراتيجية استحال على كيسنجر وكلنتون وغيرهما من المفاوضين الأمريكيين على مر العقود انتزاع أية تنازلات من الأسد تعرّض للخطر بلاده، وشعبه، ومصالح الجميع.

هذه هي التركة التاريخية الحقيقية لحافظ الأسد التي حاول «حافة الهاوية» إلقاء ضوء عليها.

ملحق 1

خطاب الرئيس حافظ الأسد في حرب تشرين

أيها المواطنون، يا جنودنا وصف ضباطنا وضباطنا البواسل،

يا أبناء شعبنا الأبيّ،

مع تحيتي لكل فرد منكم، أخاطب فيكم الروح العربية الأصيلة، روح الشجاعة والبطولة، روح البذل والتضحية، روح الفداء والعطاء. أخاطب فيكم محبة الوطن التي فطرتم عليها، والإيمان بالقضية التي صممتم على الدفاع عنها.

منذ أسبوع ونيف والعدو يحشد ويعد، وفي ظنه أنه سينال منا بضربة غادرة. وكنا يقظين ساهرين نرصد حركاته وسكناته، ونستعد ونتأهب لرد عدوانه الجديد المحتمل. فلم نسمح له أن يأخذنا على حين غِرّة، واندفعت قواتنا المسلحة ترد عليه الرد المناسب. ولم يسمح له إخوتنا في مصر أن يأخذهم على حين غرة، فاندفع جيش مصر العظيم يدافع عن كرامة مصر وكرامة الأمة العربية.

فتحية لجيشنا وشعبنا، وتحية لجيش مصر وشعب مصر العربي العظيم. ولا بد لي في هذه اللحظات الحاسمة من أن أوجه تحية من القلب إلى هؤلاء

العسكريين البواسل الذين جاؤوا إلى قطرنا من المغرب الشقيق ليشاركوا في معركة العزة والكرامة، وليقدموا الدم سخياً إلى جانب إخوتهم في سورية ومصر، فجسّدوا بذلك وحدة الأمة ووحدة المصير وقدسية الهدف.

إننا اليوم نخوض معركة الشرف والعزة دفاعاً عن أرضنا الغالية، عن تاريخنا المجيد، عن تراث الآباء والأجداد، نخوض معركة الإيمان بالله وبأنفسنا وبعزيمة صلبة وتصميم قاطع على أن يكون النصر حليفنا في ذلك. لقد بغت إسرائيل وأصابها الغرور وملأت الغطرسة رؤوس المسؤولين فيها، فأوغلوا في الجريمة واستمرأوا أسلوب العدوان، يملأ قلوبهم حقد أسود على شعبنا وعلى البشرية، ويستبد بهم تعطّش لسفك الدماء، ويوجه خطاهم استخفاف بمبادئ البشرية ومثلها العليا وبالقرارات والقوانين الدولية. مثل هؤلاء مثل من سبقهم من دعاة الحرب، لا يقفون عند حد ولا يرعوون إذا لم تردعهم الشعوب المؤمنة بحقها، المدافعة عن حريتها ووجودها. وإذ نؤدي واجبنا في الدفاع عن أرضنا وشرف أمتنا، فإننا مستعدون لبذل كل تضحية وتقبل كل شدة في سبيل أن ينتصر الحق وتنتصر المبادئ، وفي سبيل أن يسود السلام العادل.

أيها الإخوة المواطنون،

إن الشدائد هي محك لمعدن الشعوب وامتحان لأصالتها، وكلما ازدادت الأمة شدة ظهر المعدن الصافي وتأكدت الأصالة الراسخة. إنكم أبناء أمة عرفت على مدى التاريخ بمواقف الرجولة والإباء، مواقف البطولة والفداء، أبناء أمة حملت رسالة النور والإيمان إلى أصقاع الأرض، وشهد لها العالم قاطبة بأسمى الصفات وأنبل الأخلاق. فيا أحفاد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، يا أحفاد خالد وأبي عبيدة وسعد وصلاح الدين، إن ضمير أمتنا ينادينا وأرواح شهدائنا تستحثنا أن نتمثل معاني اليرموك والقادسية وحطّين وعين جالوت. وإن جماهير أمتنا من المحيط إلى الخليج تشخص بعيونها وأفئدتها إلى صمودنا العظيم، وكلها أمل وثقة بأننا إلى النصر سائرون.

يا جنودنا وصف ضباطنا وضباطنا البواسل، نحن أصحاب حق وأصحاب قضية عادلة، والله ينصر من كان على حق ومن كان عن حقه ذائداً مدافعاً. إنكم اليوم تدافعون عن شرف الأمة العربية وتصونون كرامتها وتحمون وجودها وتضحون كي تحيا الأجيال القادمة هانئة مطمئنة. وتشاء إرادة العلي القدير أن يكون جهادكم في هذا اليوم من أيام الشهر الفضيل، شهر رمضان شهر الجهاد، شهر غزوة بدر، شهر يوم الفتح، شهر النصر، صفحة ناصعة في تاريخ قواتنا المسلحة نضيفها إلى العديد من صفحات البطولة والفداء التي سطرتها بدماء الشهداء الأبرار في تاريخ قطرنا ووطننا. لقد انتصر أجدادنا بالإيمان بالتضحية، بالتسابق على الشهادة دفاعاً عن دين الله ورسالة الحق. وإنكم اليوم، ببطولاتكم وشجاعتكم، إنما تستلهمون هذه الروح وتُحيونها وت/حيون بها تقاليد أمتنا المجيدة.

سلاحكم بين أيديكم وديعة، فأحسنوا استعماله، وشرف الجندي العربي في أعناقكم أمانة، فصونوا الأمانة، ومستقبل شعبنا في عهدتكم، فابذلوا المستحيل دفاعاً عنه. وإن شعبنا الذي تعمر صدور أبنائه حماسة، يقف وراءكم صفاً واحداً يحمي خطوطكم الخلفية ويدعم جهادكم بكل ما يملك، ومن ورائه جماهير أمتنا العربية التي لا أخالها إلا واقفة الموقف الذي يمليه الواجب القومي في هذه المرحلة الحاسمة، وخلفها من بعدُ في العالم أصدقاء عديدون يؤازرون حقنا ويدعمون قضيتنا ويؤيدون نضالنا.

لسنا هواة قتل وتدمير، إنما نحن ندفع عن أنفسنا القتل والتدمير. لسنا معتدين ولم نكن قط معتدين، لكننا ولا نزال ندفع عن أنفسنا العدوان. نحن لا نريد الموت لأحد، إنما ندفع الموت عن شعبنا. إننا نعشق الحرية ونريدها لنا ولغيرنا، وندافع اليوم كي ينعم شعبنا بحريته. نحن دعاة سلام، ونعمل من أجل السلام لشعبنا ولكل شعوب العالم، وندافع اليوم من أجل أن نعيش بسلام. فسيروا على بركة الله وإن ينصركم الله فلا غالب لكم. والسلام عليكم.

ملحق 2

الوثـــائق

THE SECRETARY OF STATE
WASHINGTON

December 22, 1973

Dear Mr. President:

I want to thank you for your generous and gracious hospitality during my visit to Damascus. I was deeply touched by the warmth of the welcome which you and your Government extended me, and particularly appreciated your readiness to give so freely of your time, well beyond what had been scheduled, in order that we might have a full discussion of the problems at issue.

In all frankness, I must say that I do regret your Government's decision not to attend the opening session of the peace conference at Geneva. I hope, however, that you will find it possible to join the conference at some future date. Should you decide to do so, I can assure you that the United States will be prepared to work with you in a spirit of confidence and cooperation.

I was very gratified that we were able to reach agreement on the establishment of channels of communication. I look forward to having continuing close contact with you and your Government, both personally and through the offices which we will be setting up in each other's capitals, in pursuit of the just and lasting peace which we all seek.

Warm regards,

Henry A. Kissinger

His Excellency
Hafez al-Asad,
President,
Syrian Arab Republic,
Damascus.

وثيقة 1: برقية من هنري كيسنجر إلى الرئيس الأسد (22 كانون الأول 1973).

٢١٩٦

وزير الخارجية
واشنطن

٢٢ كانون الاول ١٩٧٢

سيادة حافظ الأسد
رئيس الجمهورية العربية السورية
دمشق

عزيزي السيد الرئيس

اود ان اشكركم للضيافة الكريمة والسخية التي لقيتها منكم خلال زيارتي لدمشق. لقد تأثرت تأثراً عميقاً بحرارة الترحيب الذي لقيته منكم ومن حكومتكم، وقدرت بوجه خاص استعدادكم لاعطائي من وقتكم دون قيود، والبعد كثيراً عما كان محدداً، لكي نتمكن من اجراء بحث كامل حول المشكلات المطروحة.

وبكل صراحة، لا بد لي من القول اني آسف فعلاً لقرار حكومتكم بعدم حضور الجلسة الافتتاحية لمؤتمر السلام في جنيف. بيد اني آمل ان تجدوا من الممكن الانضمام الى المؤتمر في وقت ما في المستقبل، واذا ما اتخذتم مثل هذا القرار، استطيع ان اؤكد لكم ان الولايات المتحدة ستكون مستعدة للعمل معكم بروح الثقة والتعاون.

لقد كنت شديد الانبساط لاننا استطعنا التوصل الى اتفاق حول اقامة اقنية اتصال. واني اتطلع نحو قيام اتصال وثيق ومستمر بيني وبينكم وحكومتكم، سواء باللقاء الشخصي او بواسطة المكاتب التي سيقيمها كل منا في عاصمة البلد الآخر، سعيا وراء السلم العادل والدائم الذي ننشده جميعاً.

تحياتي الحارة
هنري كيسنجر

His Excellency
Hafez Asad,
President of the Syrian Arab Republic,
Damascus.

Dear Mr. President:

As I begin the final stage of my return flight to Washington, I want to thank you again for the extraordinary hospitality accorded to me and the members of my staff during our two stops in Damascus. I have heard throughout the Arab World that Syria is famed for its hospitality, and now I understand why this is so.

I am satisfied, Mr. President, that progress was made during my trip thanks in large measure to your wisdom and farsightedness. After the visit to Washington of a senior Israeli representative, of which I spoke to you during our talk, I look forward to receiving your trusted representative for a continuation of our discussions. I believe that with good will on both sides disengagement can be achieved on the Syrian front according to the program I outlined to you, as an initial step toward an overall just and durable peace in accordance with Security Council Resolution 338.

Finally, I want to confirm, as I said when we met, that I intend to keep in close touch with you about contacts I have with third countries on matters relating to a Middle East settlement. I am confident you agree that such a procedure will avoid misunderstandings that could cause needless difficulties in pursuing the improved relations between our two countries which we both seek.

Warm personal regards,

Henry A. Kissinger

Received at 1100
Tuesday March 5, 1974

وثيقة 2: برقية من هنري كيسنجر إلى الرئيس الأسد (5 آذار 1974).

٥/٢/٧٤

ر - ٢٠١٠:

سيادة الرئيس حافظ الأسد
رئيس الجمهورية العربية السورية
دمشق

عزيزي السيد الرئيس،

بينما ابدأ المرحلة النهائية من رحلة العودة الى واشنطن، اود ان اشكركم مرة اخرى للضيافة غير العادية التي حظيت بها أنا ومرافقيّ اثناء توقفنا مرتين في دمشق. لقد سمعت في كل انحاء العالم العربي ان سوريا مشهورة بكرم ضيافتها، والآن فاني افهم معنى ذلك.

انني، سيادة الرئيس، مرتاح الى ان تقدما قد تحقق خلال رحلتي، والفضل في ذلك يعود الى حد كبير لحكمتكم وبعد نظركم. وبعد ان يقوم ممثل اسرائيلي كبير بزيارة واشنطن كما ~~تحدثنا~~ قلت لكم خلال حديثنا، اتطلع الى استقبال ممثلكم الموثوق لمتابعة مباحثاتنا. واعتقد انه، مع توفر النية الحسنة لدى كلا الجانبين، يمكن تحقيق فك الارتباط على الجبهة السورية وفق البرنامج الذي عرضت خطوطه العامة عليكم، كخطوة اولى نحو سلم شامل

٢

وعادل ودائم بموجب قرار مجلس الأمن
رقم ٢٤٢

ختاما، اود ان اؤكد، كما قلت لدى
لقائنا، انني انوي ان أبقى على اتصال وثيق
معكم حول الاتصالات التي اجريها مع بلدان
ثالثة بشأن مسائل متعلقة بتسوية شرق اوسطية
وانا واثق انكم توافقون على ان مثل هذا النهج
يجنب حدوث حالات سوء تفاهم يمكن
ان تسبب صعوبات لا داعي لها في متابعة
العلاقات المتحسنة بين بلدينا، التي نسعى
لها كلانا.

مع تحياتي الشخصية

هنري كيسنجر

سلمت هذه الرسالة الى المكتب الخاص
بواسطة السيد سكوتس الساعة ١١,٠٠
الثلاثاء ٧٤/٢/٥

FOR SCOTES FROM THE SECRETARY

1. PLEASE CONVEY FOLLOWING ORAL MESSAGE FROM ME TO PRESIDENT ASAD.

2. BEGIN MESSAGE:

THE SECRETARY HAS JUST COMPLETED FIVE HOURS OF INTENSIVE DISCUSSIONS WITH GENERAL DAYAN YESTERDAY AND TODAY, AND WANTS TO GIVE PRESIDENT ASAD THIS IMMEDIATE REPORT.

GENERAL DAYAN WAS AUTHORIZED BY HIS GOVERNMENT TO CONVEY TO THE SECRETARY ISRAEL'S LATEST IDEAS ON THE TERMS OF A DISENGAGEMENT AGREEMENT WITH SYRIA. THE SECRETARY FOUND SOME NEW POSITIVE ELEMENTS IN THE ISRAELI POSITION WHICH REFLECT SOME EVOLUTION IN ISRAELI THINKING IN THE DIRECTION HE AND PRESIDENT ASAD HAVE DISCUSSED. FOR EXAMPLE, WHEREAS THE ISRAELIS PREVIOUSLY INSISTED THAT ALL THE AREAS IT EVACUATES UNDER THE DISENGAGEMENT AGREEMENT SHOULD BE TURNED OVER TO THE UN, THEY ARE NOW THINKING IN TERMS OF ESTABLISHING A SERIES OF ZONES ON THE MODEL OF THE EGYPTIAN DISENGAGEMENT AGREEMENT, WITH ONLY A SMALL PART BEING TURNED OVER TO THE UN. THEY HAVE

ALSO ACCEPTED THE PRINCIPLE OF FULL RECIPROCITY WITH RESPECT TO LIMITATIONS ON FORCES AND ARMAMENTS TO AGREED DISTANCES BEHIND THE DISENGAGEMENT LINES.

IN LIGHT OF HIS KNOWLEDGE OF PRESIDENT ASAD'S POSITION, THE SECRETARY TOLD GENERAL DAYAN HE NEVERTHELESS DOES NOT CONSIDER THESE LATEST ISRAELI PROPOSALS SUFFICIENT. HE HAS REQUESTED GENERAL DAYAN TO CONVEY TO THE ISRAELI GOVERNMENT HIS COMMENTS, WHICH HE GAVE TO THE GENERAL IN GREAT DETAIL, AND TO SEEK FURTHER MODIFICATIONS IN ISRAEL'S POSITION.

THE SECRETARY BELIEVES THAT GENERAL DAYAN IS PLAYING A CONSTRUCTIVE ROLE IN INFLUENCING THE EVOLUTION OF ISRAELI GOVERNMENT THINKING, AS HE DID DURING THE NEGOTIATIONS ON EGYPTIAN-ISRAELI DISENGAGEMENT. THE SECRETARY IS VERY HOPEFUL THAT HE WILL SUCCEED IN PRODUCING AN ACCEPTABLE PLAN. IN THIS CONNECTION, THE SECRETARY WANTS TO UNDERLINE THE POINT HE MADE IN AN EARLIER COMMUNICATION TO THE PRESIDENTABOUT THE IMPORTANCE OF CALMING THE MILITARY SITUATION WHILE THE DISENGAGEMENT DISCUSSIONS GO FORWARD. IT IS CLEAR TO THE SECRETARY FROM HIS TALKS WITH GENERAL DAYAN THAT THE OPPOSITION LIKUD IN ISRAEL IS EXPLOITING THE CONTINUING MILITARY ACTIVITY ON THE SYRIAN FRONT IN WAYS THAT MAKE MORE DIFFICULT OUR EFFORTS, IN WHICH WE BELIEVE GENERAL DAYAN CAN BE OF GREAT ASSISTANCE, TO OBTAIN A MORE FORTHCOMING ISRAELI ATTITUDE TOWARD DISENGAGEMENT.

AS HE HAS PROMISED, THE SECRETARY IS FULLY ENGAGED IN THE SYRIAN-ISRAELI DISENGAGEMENT DISCUSSIONS AND IS COMMITTED TO SPARE NOEFFORT TO SEE THEM THROUGH TO A SUCCESSFUL CONCLUSION. THE SECRETARY AGAIN WANTS TO CONVEY TO PRESIDENTASAD HIS WARM PERSONAL REGARDS.
END MESSAGE. KISSINGER
BT
#4527 **SECRET NODIS/CHEROKEE**

وثيقة 3: رسالة شفيهة من هنري كيسنجر إلى الرئيس الأسد (31 آذار 1974).

٢٢٢٨-١

رسالة شفوية

لقد اتم الوزير لتوه خمس ساعات من
المباحثات الموسعة مع الجنرال رابين يوم أمس واليوم،
ويريد ان يقدم للرئيس الاسد هذا التقرير الفوري.

لقد فُوّض الجنرال رابين من قبل حكومته بان
ينقل الى الوزير أحدث أفكار اسرائيل بشأن احكام
اتفاقية فك ارتباط مع سوريا. وقد وجد الوزير
بعض العناصر الايجابية الجديدة في الموقف الاسرائيلي،
مما يعكس بعض التطور في التفكير الاسرائيلي في
الاتجاه الذي بحثه الوزير والرئيس الاسد. على
سبيل المثال، بينما كان الاسرائيليون مصرون في
السابق على تسليم جميع المناطق التي تجلو عنها
اسرائيل بموجب اتفاقية فك الارتباط الى
الامم المتحدة، فانهم الآن يفكرون في اطار اقامة
سلسلة من المناطق على غرار اتفاقية فك الارتباط
المصرية، مع تسليم جزء صغير فقط الى الامم المتحدة.
كما انهم قبلوا بمبدأ المقابلة الكاملة بالمثل فيما
يتعلق بتحديدات القوات والاسلحة الى مسافات
متفق عليها خلف خطوط فك الارتباط.
وفي ضوء معرفته بموقف الرئيس الاسد،

٢

فان الوزير اخبر الجنرال دايان انه رغم
ذلك لا يعتبر هذه المقترحات الاسرائيلية
الاخيرة كافية، وقد طلب من الجنرال
دايان ان ينقل الى الحكومة الاسرائيلية
ملاحظاته التي اعطاها للجنرال بالتفصيل،
وان يسعى لمزيد من التعديلات في موقف
اسرائيل.

ويعتقد الوزير ان الجنرال دايان يلعب
دوراً بناءاً في التأثير على تطور تفكير الحكومة
الاسرائيلية، كما فعل خلال المفاوضات الخاصة
بفك الارتباط المصري - الاسرائيلي. ان
الوزير كبير الامل في انه سينجح في ايجاد
خطة مقبولة. وبهذا الخصوص، يريد الوزير
ان يؤكد النقطة التي اثارها في رسالة سابقة
للرئيس بشأن اهمية تهدئة الوضع العسكري
بينما تكون محادثات الفصل سائرة الى الامام.
وواضح للوزير من محادثاته مع الجنرال دايان
ان الليكود/ المعارضة في اسرائيل، يستغل
استمرار الاعمال العسكرية على الجبهة السورية
باساليب تجعل جهودنا اكثر صعوبة، هذه

٢

الجهود التي نعتقد ان الجنرال دايان يستطيع
ان يكون ذا فائدة عظيمة فيها من اجل الحصول
على موقف اسرائيلي اقرب نحو فك الارتباط.
وان الوزير، كما وعد، سينهمك كليا في
مباحثات فك الارتباط السوري - الاسرائيلي
وهو ملتزم بانه يبذل كل جهد من اجل السير
بها نحو خاتمة موفقة.
يرغب الوزير ترجة اخرى ان يبعث الى
الرئيس الاسد بتحياته الشخصية الحارة.

سلمت هذه الرسالة الى المكتب الخاص
من قبل السيد سكوتس الساعة ٢،٠٠
صباح الاحد ٢١/٢/٧٤

FOR SCOTES FROM SISCO

1. THE FOLLOWING IS TEXT OF PERSONAL MESSAGE FROM THE SECRETARY TO PRESIDENT ASAD WHICH YOU SHOULD DELIVER IMMEDIATELY IN WHATEVER WAY YOU DEEM MOST FEASIBLE.

2. BEGIN TEXT. DEAR MR. PRESIDENT: AS YOU KNOW, SINCE I BECAME SECRETARY OF STATE I HAVE SOUGHT TO IMPROVE THE TIES BETWEEN THE UNITED STATES AND THE COUNTRIES OF THE ARAB WORLD. IN THIS REGARD IT HAS GIVEN ME PARTICULAR PLEASURE TO SEE CHANNELS OF COMMUNICATION ONCE MORE RESTORED BETWEEN OUR TWO GOVERNMENTS, AND THERE IS HOPE FOR EVEN GREATER IMPROVEMENT IN THE FUTURE.

3. IT IS IN THIS SPIRIT THAT I WANT TO SHARE WITH YOU IN ADVANCE THE RESULTS OF DISCUSSIONS WE HAVE HAD WITH SAUDI ARABIA TO INTENSIFY OUR LONG-STANDING AND COMPREHENSIVE COOPERATION WITH THAT COUNTRY. FOR SOME TIME, BEGINNING BEFORE THE OCTOBER MIDDLE EAST CONFLICT AND THE OIL EMBARGO AND IN RESPONSE TO SAUDI INTEREST IN DEEPENING OUR RELATIONSHIP, WE AND THE SAUDIS HAD BEEN DISCUSSING WAYS TO GIVE MORE SUBSTANCE AND CONCRETE EXPRESSION TO OUR COOPERATION. THESE DISCUSSIONS HAVE RESUMED IN RECENT WEEKS IN A MORE CONCRETE WAY. PRINCE FAHD WILL BE VISITING WASHINGTON PROBABLY NEXT MONTH TO DISCUSS WITH US SOME SPECIFIC WAYS TO INTENSIFY OUR COOPERATIVE RELATIONSHIP IN THE FIELDS OF ECONOMICS, TECHNOLOGY, AND INDUSTRY AND IN THE SUPPLY OF THE KINGDOM'S REQUIREMENTS FOR DEFENSIVE PURPOSES. A JOINT US-SAUDI STATEMENT TO THIS EFFECT WILL BE ISSUED ON APRIL 5.

4. WE ARE STILL EXPLORING WITH THE SAUDIS WHAT PARTICULAR FORM OUR COOPERATION COULD TAKE. WE ARE TALKING WITH THE SAUDIS ABOUT ESTABLISHING SOME MECHANISMS THAT WILL GIVE MORE FOCUS TO OUR COOPERATION. WE MAY BE ESTABLISHING SOME JOINT COMMISSIONS THAT COULD DEAL WITH ECONOMIC, TECHNOLOGICAL AND MILITARY MATTERS. WE VIEW THE CLOSER TIES WITH SAUDI ARABIA AS A SIGNIFICANT PART OF OUR POLICY OF STRENGTHENING OUR TIES WITH THE ARAB WORLD.

5. I AM CONFIDENT, MR. PRESIDENT, THAT YOU WILL APPRECIATE THE VALUE OF WHAT WE ARE TRYING TO DO WHICH WE BELIEVE WILL BE CONSIDERED AS FURTHER EVIDENCE OF OUR DESIRE TO HAVE A CLOSER RELATIONSHIP WITH OUR FRIENDS IN THE ARAB WORLD. I AM LOOKING FORWARD TO MY TALKS WITH YOUR REPRESENTATIVE NEXT WEEK IN WASHINGTON. WARM REGARDS, HENRY A. KISSINGER. END MESSAGE.

6. FOLLOWING IS TEXT OF JOINT U.S.-SAUDI ANNOUNCEMENT WHICH YOU SHOULD MAKE AVAILABLE WITH FOREGOING MESSAGE.

BEGIN TEXT: QUOTE: FOLLOWING DISCUSSIONS BETWEEN THE GOVERNMENT OF THE KINGDOM OF SAUDI ARABIA AND THE UNITED STATES OF AMERICA, THE TWO COUNTRIES ARE PREPARED TO EXPAND AND GIVE MORE CONCRETE EXPRESSION TO COOPERATION IN THE FIELDS OF ECONOMICS, TECHNOLOGY AND INDUSTRY, AND IN THE SUPPLY OF THE KINGDOM'S REQUIREMENTS FOR DEFENSIVE PURPOSES.

HIS ROYAL HIGHNESS PRINCE FAHD BIN ABD AL-AZIZ HAS ACCEPTED AN INVITATION TO VISIT THE UNITED STATES IN THE NEAR FUTURE TO DISCUSS THESE MATTERS WITH PRESIDENT NIXON AND SECRETARY OF STATE KISSINGER.

IN MOVING TO STRENGHTHEN THEIR RELATIONS, BOTH GOVERNMENTS REAFFIRM THEIR HOPE THAT A JUST AND DURABLE PEACE WILL BE REALIZED IN THE MIDDLE EAST SO THAT ALL ITS PEOPLES MAY ENJOY STABILITY AND WORK FOR THE DEVELOPMENT AND PROSPERITY OF THE REGION. END QUOTE. END TEXT.

وثيقة 4: رسالة شخصية من هنري كيسنجر إلى الرئيس الأسد (5 نيسان 1974).

ملحق 2

٦/٦/٧٦

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

٢٠٢١ - ١

من سيسكو الى سكوفي

١- فيما يلي نص رسالة شفهية من الوزير الى الرئيس الأسد يجب ان تسلم فوراً بأي طريقة تراها عملية

٢- بداية النص:

عزيزي السيد الرئيس،

كما تعلمون، لقد سعيت منذ ان اصبحت وزيراً للخارجية، لتحسين الروابط بين الولايات المتحدة وبلدان العالم العربي. وبهذا الشأن لقد سرني بصورة خاصة ان ارى اقنية الاتصال تستعاد مرة اخرى بين حكومتينا، بل وهناك أمل في تحسن أكبر في المستقبل.

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

٢ - انني بهذه الروح اريد ان اشاطرك
سلفاً نتائج المباحثات التي اجريناها
مع المملكة العربية السعودية لتوسيع التعاون
القائم منذ وقت طويل وانا آمل مع تلك البلاد،
فمنذ زمن ما، وابتداءً من قبل نزاع
تشرين في الشرق الاوسط وحظر النفط
واستجابة المملكة السعودية في تعميق
علاقتنا، كنا نحن والسعوديون نبحث
وسائل اضفاء المزيد من المحتوى على تعاوننا
واعطائه المزيد من التعبير الملموس. ان
هذه المباحثات قد استؤنفت خلال
الاسابيع الاخيرة بطريقة اكثر تحديداً،
سيقوم الأمير فهد بزيارة واشنطن
ربما في الشهر القادم ليبحث معنا
بعض السبل المحددة لتوسيع علاقة

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

التعاون بيننا في مجالات الاقتصاد والتكنولوجيا والصناعة، وفي توريد احتياجات المملكة للأغراض الدفاعية.
وسيصدر بيان أمريكي - سعودي مشترك بهذا الصدد في ٥ نيسان.

:

٤ - إننا مازلنا نستقصي مع السعودية الشكل الجديد الذي سيتخذه التعاون بيننا. إننا نتحدث مع السعودية حول إقامة بعض الأجهزة التي ستعطي تعاوننا مزيداً من التركيز. وقد ناقشنا بعض اللجان المشتركة التي يمكن أن تعالج الأمور الاقتصادية والتكنولوجية والعسكرية. إننا ننظر إلى العلاقات الأوثق مع السعودية كجزء ذي مغزى من سياستنا الرامية لتقوية روابطنا مع العالم العربي.

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

٥ - انني واثق، يا سيادة الرئيس، انكم ستقدرون قيمة ما نحاول ان نفعله، الأمر الذي نعتقد انه سيعتبر دليلا جديدا على رغبتنا في علاقة اوثق مع اصدقائنا في العالم العربي. انني اتطلع الى محادثاتي مع ممثلكم في الاسبوع القادم في واشنطن، تحياتي الحارة.

هنري كيسنجر"

انتهت الرسالة.

٦ - فيما يلي نص الاعلان الامريكي السعودي الذي يجب ان تقدمه مع الرسالة اعلاه:

بداية النص:

" عقب مباحثات جرت بين حكومة المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

الامريكية ، فان البلدين مستعدان
لتوسيع التعاون واعطائه تعبيراً ملموساً
في مجالات الاقتصاد والتكنولوجيا والصناعة
وفي تزويد احتياجات المملكة للاغراض
الدفاعية .

" لقد قبل صاحب السمو الملكي الامير
فهد بن عبد العزيز دعوة لزيارة الولايات
المتحدة في المستقبل القريب لبحث هذه
الامور مع الرئيس نكسون ووزير الخارجية
كيسنجر .

وان الحكومتين اذ تتجهان لتقوية
علاقاتهما ، تؤكدان مجدداً املهما في ان سلاماً
عادلاً ودائماً سيتحقق في الشرق الاوسط
بحيث تنعم جميع شعوبه بالاستقرار
والعمل من اجل التنمية والازدهار في
المنطقة . "

انتهى النص

انتهت الرسالة

سلمت هذه الرسالة الى
المكتب اي من قبل السيد مكلوز
الساعة ١٠:٢ الجمعة ٥/٤/٧٤

DEAR PRESIDENT ASSAD:

YOU WILL RECALL THAT IN OUR RECENT TALK WE AGREED THAT RATHER THAN A JOINT MEETING BETWEEN MYSELF AND GROMYKO IN DAMASCUS IT WOULD BE PREFERABLE FOR ME TO MEET WITH THE SOVIET FOREIGN MINISTER OUTSIDE THE AREA. I HAD IN MIND, AS YOU KNOW, ABOUT THURSDAY OF THIS COMING WEEK. I HAVE JUST RECEIVED A MESSAGE FROM GROMYKO SUGGESTING THAT WE MEET IN CYPRUS ON EITHER THE 7TH OR THE 8TH. IN MY MOST RECENT MESSAGE TO YOU TRANSMITTED JUST A FEW HOURS AGO, I SUGGESTED THAT IN LIGHT OF THE ISRAELI CABINET MEETING TODAY THAT IT WOULD PERHAPS BE BEST IF YOU AND I GET TOGETHER ON TUESDAY, THE 7TH. IN LIGHT OF GROMYKO'S MESSAGE AND OTHER CONSIDERATIONS WHICH I WILL OUTLINE IN THIS MESSAGE I NOW BELIEVE THAT IT WOULD PERHAPS BE BETTER IF YOU AND I PLANNED ON GETTING TOGETHER ON WEDNESDAY, THE 8TH.

THE REASONS ARE THESE: THE ISRAELI CABINET MET TODAY, AND I UNDERSTAND THEY ARE LIKELY TO CONTINUE THEIR DISCUSSIONS AND TAKE A PRELIMINARY DECISION ON TUESDAY, THE 7TH. THEREFORE, I THINK I SHOULD MEET WITH GROMYKO ON THE 7TH IN CYPRUS TO REVIEW THE SITUATION AND BE IN DAMASCUS ON THE 8TH. I HOPE THIS WILL BE CONVENIENT FOR YOU.

WARM REGARDS

HENRY A. KISSINGER

سلمت هذه الرسالة من قبل السيد سكوتس
الى المكتب الخاص الساعة ١١,٢٠ الاثنين ٦/٥/٧٤

وثيقة 5: برقية من هنري كيسنجر إلى الرئيس الأسد (6 أيار 1974).

٢/٥/٧٤

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

د - ٢٥٠٣

رسالة

الى السيد الرئيس حافظ الأسد
من الدكتور هنري كيسنجر

تذكرون اننا خلال محادثتنا الأخيرة
اتفقنا على انه من الأفضل ان يكون اجتماعي
مع وزير الخارجية السوفيتي غروميكو
خارج المنطقة بدلاً من عقد اجتماع مشترك
بيني وبينه في دمشق . وكما تعلمون
كان في ذهني ان يكون اجتماعي معه حوالي
يوم الخميس من هذا الاسبوع القادم ،
ولكني تلقيت للتو رسالة من غروميكو
تقترح ان نجتمع في قبرص اما في السابع
او في الثامن . وكنت في آخر رسالة مني
اليكم ، والتي ارسلتها قبل بضع ساعات ،
قد اقترحت في ضوء اجتماع مجلس الوزراء

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

٢

الإسرائيلي انه سيكون من الأفضل اذا
اجتمعنا انتم وانا يوم الثلاثاء السابع
من الشهر. وفي ضوء رسالة غروميكو
والاعتبارات الأخرى السابقة في هذه
الرسالة، اعتقد الآن انه قد يكون
من الأفضل اذا حددنا موعد اجتماعنا
انتم وانا يوم الأربعاء الثامن من الشهر.

الأسباب هي التالية: ستجتمع
الوزارة الاسرائيلية اليوم، وقد فهمت
انه من المحتمل ان يتابعوا مباحثاتهم وان
يتخذوا قرارا أوليا يوم الثلاثاء السابع
من الشهر. ولذلك، اظن انه ينبغي
ان اجتمع مع غروميكو في السابع في جنيف
لاستعراض الموقف وان اكون في دمشق في
الثامن. آمل ان يكون ذلك ملائماً لكم.
تحياتي الحارة

هنري كيسنجر

سلمت هذه الرسالة الى المكتب الخاص من قبل السيد سكوتي
الساعة ١١.٣٠ الاثنين ٦/٥/٧٤

2. BEGIN TEXT. MR. PRESIDENT:

I FINISHED SEVERAL HOURS OF TALKS HERE TODAY WITH
PRIME MINISTER MEIR AND HER COLLEAGUES WITH PRODUCTIVE RESULTS.
CONVERSATIONS WERE AS DIFFICULT AS I EXPECTED, BUT I AM
PLEASED TO REPORT TO YOU THAT MY VIEWS PREVAILED AND I WILL
BE BRINGING TO YOU TOMORROW AN ISRAELI MAP WHICH REFLECTS
IN PRECISE TERMS THE AMERICAN PROPOSAL I DESCRIBED
TO YOU YESTERDAY.

3. THERE HAS ALSO BEEN AN OPPORTUNITY TO DISCUSS IN SOME
DETAIL A NUMBER OF OTHER ELEMENTS OF THE AGREEMENT WHICH YOU
AND I WILL WANT TO FOCUS UPON IN A CONCRETE WAY AS WELL.
THESE INCLUDE THE QUESTIONS OF AREA OF SEPARATION, AN AREA
OF LIMITATION, THE UN PRESENCE, THE QUESTION OF PRISONERS OF
WAR, AND OTHER RELATED MATTERS. THERE IS GENERAL AGREEMENT
TO SEEK TO CONCLUDE THE AGREEMENT BY THURSDAY.

4. FINALLY, MR. PRESIDENT, AS I HAVE REFLECTED ON THE DECISION
TAKEN BY YOU YESTERDAY, I ONCE AGAIN WANT TO COMMEND YOU FOR
YOU GREAT COURAGE, WISDOM AND STATESMANSHIP WHICH I DEEPLY
BELIEVE WILL BEGIN A PROFOUND NEW TURNING POINT' IN RELATIONS BETWEEN
SYRIA AND THE UNITED STATES. WHILE THERE ARE STILL A NUMBER OF
ELEMENTS OF THE AGREEMENT TO BE WORKED OUT, I AM CONFIDENT
THAT IT SHOULD BE POSSIBLE TO COMPLETE OUR TASK IN THE COURSE OF
THIS COMING WEEK.

5. I LOOK FORWARD TO SEEING YOU AGAIN. WARMEST REGARDS AND DEEPEST RESPECTS.
HENRY A. KISSINGER. END TEXT. KISSINGER
BT
0981

سلمت هذه الرسالة الى المكتب
الى من قبل السيد سكوتش
الساعة ٢٢،٤٥ الاحد ١٩/٥/٧٤

وثيقة 6: برقية من هنري كيسنجر إلى الرئيس الأسد (19 أيار 1974).

٢٥/٥/١٩٧٤

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

٢٥٦٠-١

سيادة الرئيس

انهيت مدة ساعات من المحادثات هنا
اليوم مع رئيسة الوزراء مائير وزملائها
بنتائج مثمرة. لقد كانت المحادثات بالصعوبة
التي توقعتها ولكنه يسرني ان انقل اليكم
ان وجهة نظري قد سادت وسأحضر لكم
معي غدا خارطة اسرائيلية تعكس بدقة
الاقتراح الامريكي الذي وصفته لكم أمس.

وقد اتيحت ايضا فرصة البحث بشيء
من التفصيل في عدد من عناصر الاتفاق الاخرى
التي تريدون انتم وانا ان نركز النظر عليها
ونعالجها بشكل محدد. وتشمل هذه العناصر
مسائل مساحة ~~[illegible]~~ منطقة الفصل، ومنطقة
ومساحة التحديد، ووجود الامم المتحدة،

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

ومسألة أسرى الحرب والأمور الأخرى
ذات العلاقة . وهناك اتفاق بشكل
عام على السعي لإنهاء الاتفاق في موعد
لا يتعدى يوم الخميس .

أخيراً ، سيادة الرئيس كما علقت
على القرار الذي اتخذتموه أمس ، أود مرة
أخرى أن أشيد بشجاعتكم العظيمة وحكمتكم
وحنكتكم كرجل دولة ، وهي أمور أعتقد
اعتقاداً قوياً بأنها ستشكل بعمق نقطة
تحول جديدة في العلاقات بين سوريا
والولايات المتحدة . وفي حين أنه لا يزال
هناك عدد من عناصر الاتفاق التي
يجب تسويتها ، فإني واثق أنه سيكون
بالإمكان إنهاء عملنا في غضون الأسبوع
القادم .
أتطلع إلى مقابلتكم مرة ثانية ، ومع أحر
التحيات وعميق الاحترام هنري كيسنجر

سلمت هذه الرسالة إلى الملحق [illegible]
السيد سكوتس الساعة ٢٢٤٥ اليوم ١٩/٥/٧٤

1. PLEASE INFORM PRESIDENT ASAD OF TH FOLLOWING FROM THE SECRETARY:

A. SECTETARY JUST RECEIVED WORD THAT ISRAELI CABINET HAS APPROVED DISENGAGEMENT AGREEMRNT. IN ORDER TO PREVENT LEAKS THEY ARE GOING TO HAVE ANOTHER CABINET MEETING AT 4:00 P.M. DAMASCUS TIME TO GIVE IMPRESSION THAT DECISION HAS NOT YET BEEN TAKE, BUT PRESIDENT ASAD SHOULD KNOW THAT DECISION HAS JUST BEEN TAKEN IN THIS MORNING'S CABINET MEETING.

B. AS AGREED WITH PRESIDENT ASAD, THE STATEMENT AGREED TO WITH PRESIDENT ASAD ANNOUNCING THE AGREEMENT WILL BE MADE IN WASHINGTON TODAY AT 5:00 P.M. DAMASCUS TIME.

C. AS ANNOUNCEMENT HAS DATE OF SIGNING IN IT, ASD BECAUSE OF ALL OF THE LOGISTICS THAT HAVE TO BE SET UP, WE NEED IMMEDIATELY ASAD'S REACTION TO WHETHER HE AGREES THAT THE SIGNING SHOULD BE MOVED UP TO THURSDAY IN GENEGA (1700 GENEVA TIME).

KISSINGER

وثيقة 7: برقية من هنري كيسنجر إلى الرئيس الأسد (29 أيار 1974).

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

(١-٦٤)٢

أ - لقد تسلم وزير الخارجية إشعاراً بأن مجلس الوزراء
الإسرائيلي قد أقر اتفاقية فصل القوات . وإلى
الإسرائيلي [illegible] مجلس الوزراء الإسرائيلي اجتماعاً
تنحى المشاورات [illegible] من بعد ظهر اليوم
وزارياً آخر ذلك عند الرابعة [illegible] بأن القرار لم يتخذ
بصورة نهائية وذلك للتوضيح [illegible]
بعد .

أريد أن أؤكد لسيادتكم
على أن الذي [illegible] أن القرار قد اتخذ فعلاً
هذا الصباح .
الرئيس الأسد [illegible] الإسرائيلي
في اجتماع مجلس الوزراء [illegible] فإن البيان
بناء على الاتفاق مع سيادة الرئيس [illegible] حقيقة

ب - الذي وافق سيادته على إصداره [illegible] اليوم
الاتفاقية سيجري إصداره [illegible] بتوقيت دمشق .
في الساعة الخامسة بعد الظهر ونظراً
[illegible] سيكون تاريخ التوقيع [illegible] المصير

ج - بما أن الإعلان (البيان) [illegible] اتخاذها في هذا الوقت عما
أن جميع الترتيبات اللازمة [illegible] سيادة الرئيس حافظ
[illegible] التسليم [illegible] موعد التوقيع [illegible]
فإننا نأمل [illegible] على أن [illegible] الساعة [illegible] بعد الظهر
إذا كان يوافق [illegible] يوم الخميس
[illegible]
بتوقيت [illegible] .

THE SECRETARY OF STATE
WASHINGTON

May 31, 1974

Dear Mr. President:

As I leave for Washington, there is a certain sadness of parting. I feel that my departure is not just another goodbye but, indeed, a parting of friends. I greatly appreciate the opportunity you have given me to work so closely with you in pursuing that all important goal of a just and lasting peace in the Middle East. I carry with me the hope that we will soon meet again.

It is not easy to say in words how appreciative I am of your hospitality. Indeed, you have been most generous with your time and gracious in your attention. Your kindness to me and to my colleagues will be long remembered. I look forward to the time when we may be able to extend our hospitality in the same manner.

Warm regards,

Henry A. Kissinger

His Excellency
Hafez al-Assad,
President of the Syrian Arab Republic,
Damascus.

وثيقة 8: برقية من هنري كيسنجر إلى الرئيس الأسد (31 أيار 1974).

٢٤٦٨-١

وزير الخارجية

واشنطن

٢١ أيار ١٩٧٤

عزيزي السيد الرئيس :

بينما اغادر الى واشنطن، ثمة ألم ناجم عن الفراق. واني استشعر ان سفري ليس لمجرد وداع آخر بل هو في الحقيقة فراق بين اصدقاء. اني شاكر جداً الفرصة التي منحتموني اياها بالعمل الوثيق معكم سعياً وراء ذلك الهدف البالغ الاهمية، هدف السلام العادل والدائم في الشرق الاوسط. انني احمل معي الامل بلقائنا مرة ثانية قريباً.

ان الكلمات تعجز عن وصف شكري للحفاوة التي استقبلت بها من جانبكم. الحقيقة انكم كنتم في منتهى السخاء في دمشق وفي منتهى الكرم في انتباهكم. وسنذكر طويلاً لطفكم نحوي ونحو زملائي. اتطلع الى الوقت الذي قد نتمكن فيه من تقديم حفاوة ضيافتنا بنفس الطريقة.

تحياتي الحارة

هنري كيسنجر

سيادة الرئيس حافظ الاسد
رئيس الجمهورية العربية السورية
دمشق



THE FOREIGN SERVICE
OF THE
UNITED STATES OF AMERICA

DEAR MR. PRESIDENT:

I HAVE ASKED MR. SCOTES TO CONVEY TO YOU PROMPTLY THE TEXT OF THE PARAGRAPHS ON THE MIDDLE EAST THAT ARE INCLUDED IN THE COMMUNIQUE BEING ISSUED AT THE CONCLUSION OF PRESIDENT NIXON'S CURRENT VISIT TO THE SOVIET UNION.

I WANT YOU TO KNOW THAT, SINCE MY LAST MESSAGE TO YOU, WE HAVE CONTINUED TO ADHERE TO THE STRATEGY THAT YOU AND I HAVE DISCUSSED ON NUMEROUS OCCASIONS.

THE SOVIETS CONTINUED TO PRESS HARD FOR IMMEDIATE RESUMPTION OF THE GENEVA CONFERENCE AND FOR CONCENTRATING OUR DIPLOMATIC EFFORTS THERE. THE COMMUNIQUE REFLECTS THIS, BUT I WANT TO ASSURE YOU WE HAVE TOLD THE SOVIETS THAT "AS SOON AS POSSIBLE" MEANS NO EARLIER THAN SEPTEMBER. GROMYKO SEEMED TO AGREE. IN ANY CASE, NO DATE WILL BE DECIDED UNTIL OUR FUTHRER CONSULTATIONS WITH YOU. GROMYKO ALSO SEEMED TO FEEL THAT THE CONFERENCE MIGHT BE RESUMED FIRST AT THE AMBASSADORIAL LEVEL.

IN OUR PRIVATE CONVERSATIONS, THE PRESIDENT MADE CLEAR THAT, WHILE WE WOULD COOPERATE IN RESUMPTION OF THE WORK OF THE GENEVA CONFERENCE, WE WOULD CONTINUE TO CHOOSE THE NEGOTIATING FORUM ON EACH ISSUE IN THE LIGHT OF OUR JUDGMENT ON WHAT IS MOST LIKELY TO PRODUCE RESULTS. GENERAL SECRETARY BREZHNEV ACKNOWLEDGED THAT BILATERAL CONSULTATIONS WOULD BE EXPECTED TO CONTINUE.

YOU WILL NOTE THAT THE LANGUAGE ON THE PALESTINIANS IS AS IT HAS BEEN IN PREVIOUS STATEMENTS IN WHICH THE U.S. HAS PARTICIPATED. THE LANGUAGE ON THE QUESTION OF "OTHER PARTICIPANTS" AT THE GENEVA CONFERENCE IS DRAWN FROM THE U.S. - SOVIET LETTER TO WHICH ALL PARTICIPANTS AGREED IN DECEMBER BEFORE ATTENDING THE GENEVA CONFERENCE.

IN SHORT, WE REMAIN FIRMLY ON THE COURSE WE HAVE AGREED AND LOOK FORWARD TO OUR FURTHER CONSULTATIONS WITH YOUR REPRESENTATIVE IN WASHINGTON.

WARM PERSONAL REGARDS.

HENRY A. KISSINGER

سلمت هذه الرسالة الى المكتب الخاص
الساعة ١٢,٢٠ الاربعاء ٣/٧/٧٤

وثيقة 9 ـ 1: برقية من هنري كيسنجر إلى الرئيس الأسد (3 تموز 1974).

٢/٥/٢٠

الجمهورية العربية المتحدة
الرئيس

٢٤٧٩٠/

عزيزي السيد الرئيس

لقد طلبت من السيد سلوكين

ان ينقل اليكم فورا نص الفقرات

المتعلقة بالشرق الاوسط والواردة

في البيان الذي يجري اصداره في ختام

زيارة الرئيس نكسون الحالية للاتحاد

السوفيتي .

اود ان تعلموا انه منذ رسالتي

الاخيرة اليكم واصلنا التمسك بالاستراتيجية

التي بحثناها انتم وأنا في مناسبات

عديدة .

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

٢

لقد واصل السوفييت الضغط الشديد
من اجل استئناف فوري لمؤتمر جنيف
ومن اجل ~~[illegible]~~ تركيز جهودنا الدبلوماسية
هناك، ان البيان يعكس ذلك،
ولكني اود ان اؤكد لكم اننا اجبرنا
السوفييت ان عبارة "باسرع ما يمكن"
تعني موعداً ليس ابكر من ايلول، وبدا
ان غروميكو وافق على ذلك. في اي
حال، لن يتقرر اي تاريخ قبل
ان نجري مشاورات اخرى معكم. وبدا
ايضاً ان غروميكو يشعر بان المؤتمر
يمكن استئنافه اولاً على مستوى الخبراء
لقد اوضح الرئيس، في محادثاتنا
الخاصة، انه في حين اننا مستعدون

٢

الجمهورية العربية المتحدة
الرئيس

في استئناف عمل مؤتمر جنيف
فإننا سنواصل اختيار مكان التفاوض
حول كل قضية بمفردها في ضوء
فاعليتها بما هو الأرجح أن يسفر
عن نتائج. وقد أخبرت السكرتير
العام برجنيف بأن المشاورات
الثنائية يمكن توقع استمرارها.

ستلاحظون أن العبارات
المستعملة بشأن الفلسطينيين هي كما كانت
في البيانات السابقة التي اشتركت بها
الدول. ث المتحدة. أن العبارة حول
مسألة "المشتركين الآخرين" في
مؤتمر جنيف مستمدة من الرسالة
الأمريكية - السوفيتية التي وافق

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

٤

علينا جميع المشتركين في كانون الاول
مثل حضور مؤتمر جنيف،
خلاصة القول، اننا نظل ملتزمين
التزاما راسخا بالنهج الذي اتفقنا
عليه ونتطلع الى محادثاتنا الاخرى
مع ممثلكم في واشنطن
مع تحياتي الشخصية الحارة
هنري كيسنجر

Both sides believe that the removal of the danger of war and tension in the Middle East is a task of paramount importance and urgency, and therefore, the only alternative is the achievement, on the basis of UN Security Council Resolution 338, of a just and lasting peace settlement in which should be taken into account the legitimate interests of all peoples in the Middle East, including the Palestinian people, and the right to existence of all states in the area.

As Co-Chairman of the Geneva Peace Conference on the Middle East, the USSR and the USA consider it important that the Conference resume its work as soon as possible with the question of other participants from the Middle East area to be discussed at the Conference. Both sides see the main purpose of the Geneva Peace Conference, the achievement of which they will promote in every way, as the establishment of just and stable peace in the Middle East.

They agree that the USA and the USSR will continue to remain in close touch with a view to coordinating the efforts of both countries toward a peaceful settlement in the Middle East.

سلمت الساعة ١٢,٢٠
الاربعاء ٢/٧/٧٤

وثيقة 9 ـ 2:

٦/٩/٧٤

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

١

يعتقد كلا الجانبين ان ازالة خطر الحرب والتوتر في الشرق الاوسط هي واجب ذو اهمية بالغة وذو صفة عاجلة، ولذلك، فان البديل الوحيد الناجح هو تحقيق تسوية سلم عادل ودائم، على اساس قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢، تؤخذ فيها بالاعتبار المصالح المشروعة لجميع الشعوب في الشرق الاوسط، بما في ذلك الشعب الفلسطيني، والحق بالوجود لجميع الدول في المنطقة.

وبوصفهما الرئيسين المشتركين

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

٢

لمؤتمر ~~للسلام~~ جنيف للسلام في الشرق
الأوسط، فإن الاتحاد السوفيتي
والولايات المتحدة يعتبران أن من
المهم أن يستأنف المؤتمر عمله
~~في أقرب~~ بأسرع ما يمكن على أن
تبحث مسألة المشتركين الآخرين
من منطقة الشرق الأوسط في المؤتمر
ويرى كلا الجانبين الهدف الرئيسي
لمؤتمر جنيف للسلام، الذي سيعملان
كل يوم في سبيل تحقيقه، كإقامة
سلام عادل ومستتب في الشرق
الأوسط.
وهما يوافقان على أن الولايات المتحدة
والاتحاد السوفيتي سيبقيان على اتصال

الجمهورية العربية المتحدة
الرئيس

٢

وثيق بغية تنسيق جهود البلدين
نحو تسوية سلمية في الشرق الأوسط.

November 25, 1974

His Excellency
Hafez al-Asad,
President,
Syrian Arab Republic.

Dear Mr. President:

I want to confirm to you immediately that the text of the Security Council Resolution extending the mandate of the UNDOF is now agreed and that I have already instructed the United States Mission at the United Nations to begin to move to find a country to introduce the Resolution in line with your original proposal to me.

The text which would be introduced, therefore, is as follows:

"The Security Council, having noted the efforts made to establish a durable and just peace in the Middle East area and the developments in the situation in the area,

"Expressing concern over the prevailing state of tension in the area,

"Reaffirming that the two agreements on disengagement of forces are only a step towards the implementation of Resolution 338,

"Decides

"A. To call upon the parties concerned

وثيقة 10 ـ 1: برقية من هنري كيسنجر إلى الرئيس الأسد (25 تشرين الثاني 1974).

2

to implement immediately Security Council Resolution 338 of 1973;

"B. To renew the period of UNDOF for another period of six months;

"C. The Secretary General will submit at the end of this period a report on the developments in the situation and the measures taken to implement Resolution 338."

I want to express again my deep appreciation for the statesmanlike proposal which you have made and my gratification that it is now possible to move ahead on the basis of that proposal. The renewal of the UNDOF mandate will help provide the framework for further progress along the lines you and I have discussed.

Warm personal regards,

Henry A. Kissinger

وثيقة 10 ـ 2:

١٢/٥/١٩٧٥

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

٢٢٠-١/

٢٥ تشرين الثاني ١٩٧٤

سيادة حافظ الاسد
رئيس الجمهورية العربية السورية،

عزيزي السيد الرئيس،

اود ان ابلغكم فوراً ان نص قرار مجلس الامن الذي يمدد انتداب (اندوف) هو الآن مقبول وانني قد اصدرت تعليمات الى بعثة الولايات المتحدة في الامم المتحدة بالبدء في التحرك من اجل تقديم القرار وفقاً لاقتراحكم الاصلي لي.

وعلى ذلك، فان النص الذي سيقدم، هو كما يلي:

الجمهورية العربية المتحدة
الرئيس

٢

«مجلس الأمن، بعد اطلاعه على
الجهود المبذولة لإقامة سلام عادل ودائم
في منطقة الشرق الأوسط وعلى تطور
الأوضاع في المنطقة،
« وإذ يبدي قلقه من حالة التوتر
السائدة في المنطقة،
« وإذ يؤكد أن اتفاقية فصل
القوات ليست سوى خطوة على طريق تنفيذ
القرار ٣٣٨،
« يقرر
« أ - دعوة الأطراف المعنية للتنفيذ
الفوري لقرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨
لعام ١٩٧٣
« ب - تمديد مدة قوة المراقبين الدولية
مدة ستة أشهر جديدة
« جـ - يقدم الأمين العام في نهاية

٢

الجمهورية العربية المتحدة
الرئيس

هذه الفترة تقرير عن تطورات الوضع
وعن الاجراءات المتخذة لتنفيذ القرار ٢٤٢.

اود ان اعبر مرة ثانية عن
عميق تقديري للاقتراح الدال على حنكة
رجل الدولة الذي تقدمتم به وعن اعتباطي
بانه يمكن الان السير قدما على اساس
هذا الاقتراح، ان التحديد انتداب
(الهدف) سيساعد على تركيز الاهتمام
لمزيد من التقدم وفق الخطوط التي
بحثناها انتم وانا

تحياتي الشخصية الحارة
هنري كيسنجر

سلمت هذه الرسالة الى
المكتب الخاص الساعة ١٢،٢٠
الاثنين ٢٥/١١/٧٤

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

ر ٢٣٠٦

رسالة شفهية من الدكتور كيسنجر
للسيد الرئيس سلمت صباح يوم
١٢ / ١٠ / ١٩٧٥
(بالانكليزية)

[illegible]

[illegible] العرب [illegible] الحقيقة [illegible] العربي [illegible] لم تتحدث [illegible] الدمشقي [illegible] عن [illegible] الأخيرة [illegible] للصحف [illegible] الرئيس [illegible] والولايات [illegible] أن [illegible] جيدة بين [illegible] الرئيس [illegible] العلاقات [illegible] السابق [illegible] المتحدة [illegible] العربي [illegible] تماماً [illegible] الأسد [illegible] الرئيس الأسد [illegible] معه [illegible] جهودي [illegible] الشرق الأوسط [illegible] العربي [illegible] العالم [illegible] العرب [illegible] المنطقة [illegible] العربي [illegible] الولايات [illegible] المتحدة.

[illegible]

وثيقة 11 ـ 1: رسالة شفهية من هنري كيسنجر إلى الرئيس الأسد (2 تشرين الأول 1975).

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

أشد رجائي أن تعود العلاقات بين البلدين في مطلع السنة
الجديدة - وطلبه الدائم ونداءاتكم بزيارة عدد
[illegible] لعودة العلاقات .
من هنا التاريخي [illegible] عمل ارسال هذا الوفد
[illegible] [illegible] العلاقات [illegible]
التقتنا [illegible] ومشاركتنا [illegible] أيضاً .
[illegible] [illegible] ١٩٧٦
[illegible] تشرين الثاني [illegible]

وثيقة 11 ـ 2:

Message from HE President Hafez Al-Assad
to Dr. Henry Kissinger

1 - His Excellency President Hafez Al-Assad wishes to thank Dr. Henry Kissinger for his two messages dated September 9, 1975 and his oral message conveyed by Ambassador Murphy on October 2nd.

2 - The president wishes to reaffirm once again our keenness in the Syrian Arab Republic to achieve just peace in this area. He has no doubt that our attitude in this connection is very clear to Dr. Kissinger as he learnt it many times during their several meetings.

3 - Dr. Kissinger will recall that the President made it clear during their latest meeting that the Arabs have interest in peace, and that if we conclude that there was an Arab interest in talks on a new disengagement, then we will say yes to such talks, otherwise we will not agree to the talks.

While we are keen to achieve just peace in the area, it is our view that the Sinai agreement signed between Egypt and Israel has made it impossible for Syria to enter negotiations in respect of the Syrian front.

The Syrian Arab Republic is unable to follow the path of Egypt when it entered into individual talks.

4 - Dr. Kissinger will also recall that the President repeatedly said during their frequent meetings that the division of the question and splitting of the Arab front would not serve the process of peace. The President reaffirmed this view during the latest meeting with Dr. Kissinger when he stated in the course of clarifying the road leading to peace, that we viewed the question as as an Arab - Israeli conflict and not an Egyptian - Israeli nor a Syrian - Israeli conflict, because any solution not based on this view will only close the doors toward peace, and that neither Egypt separately nor Syria separately had the right to solve its problems at the expenses of others. Indeed, as stated by the President at that meeting, the Sinai agreement has complicated the situation.

5 - In the light of the above, the President wants to say that if Israel really desires not to close all doors towards peace and also desires to carry out serious talks which are not merely designed to waste time, then the only possible talks are those talks which involve the Syrian and the Palestinian fronts simultaneously. We are convinced that this is the only road which leads to revive the process of peace.

6 - The president believes that Dr. Kissinger has realized the sincerity of Syria's intentions and its sincerity to the cause of peace. Dr. Kissinger several times expressed that he was convinced of this.

But we in Syria cannot follow a path which we definitely believe that it is harmful to Arab interests as well as to the cause of peace.

Finally, the President sends his warm personal regards to Dr. Kissinger and his best wishes for his good health and happiness.

وثيقة 11 ـ 3: الرد على الرسالة الشفهية.

١- يشكر السيد الرئيس حافظ الأسد الدكتور هنري كيسنجر على رسالتيه المؤرختين في ٢٠ أيلول ١٩٧٥ ورسالته الشفهية التي نقلها السفير مورفي في الثاني من تشرين الأول.

٢- يرغب السيد الرئيس في ان يؤكد مرة أخرى حرصنا في الجمهورية العربية السورية على تحقيق السلام العادل في هذه المنطقة، ولا شك في ان موقفنا في هذا الصدد واضح تماما للدكتور كيسنجر بعد ان اطلع عليه مرارا خلال لقاءاته العديدة مع السيد الرئيس.

٣- يذكر الدكتور كيسنجر ان السيد الرئيس اوضح له في اجتماعهما الاخير ان للعرب مصلحة في السلام، وأننا اذا رأينا في محادثات فصل جديد مصلحة عربية، فاننا سنقول نعم للمحادثات والا فاننا لن نقبل المحادثات.

٣

إننا مع حرصنا على تحقيق السلام العادل في المنطقة نرى أن اتفاقية سيناء بين مصر وإسرائيل قد جعلت إجراء مفاوضات بالنسبة للجبهة السورية أمراً متعذراً

فليس باستطاعة الجمهورية العربية السورية أن تفعل ما فعلته مصر عندما أقدمت على إجراء محادثات منفردة.

٤ - ويذكر الدكتور كيسنجر أن السيد الرئيس كرر دائماً في اللقاءات المتعددة أن تجزئة القضية وتفتيت الجبهة العربية لا يخدم عملية السلام، وقد أكد السيد الرئيس هذا الرأي في آخر لقاء مع الدكتور كيسنجر عندما بيّن في معرض إيضاحه للطريق المؤدية إلى السلام، أننا ننظر إلى القضية على أساس أنها صراع عربي - إسرائيلي، لا مصريا - إسرائيليا ولا سوري - إسرائيليا، ولا أي

٢

من الانطلاق من هذه النظرة انما نغلق
الابواب في وجه السلام، وانه ليس
من حق مصر منفردة ولا سوريا منفردة
حل مشاكل حل جانب الاخرين.
والحقيقة ان اتفاقية سيناء، كما
ذكر السيد الرئيس في ذلك اللقاء، قد
عقدت الموقف

٥ — في ضوء ذلك يود السيد الرئيس
ان يقول انه اذا كانت اسرائيل تريد
فعلا عدم اغلاق كل الابواب المؤدية
الى السلام، وكانت تريد اجراء محادثات
جادة لا تهدف فقط الى اضاعة الوقت
فان المباحثات الممكنة هي المباحثات
التي ستشمل الجبهة السورية الفلسطينية
في آن واحد.
وفي قناعتنا ان هذا هو
الطريق الوحيد الذي يمكن ان يؤدي الى
احياء عملية السلام.

س ٩

٦ - يعتقد السيد الرئيس ان الدكتور كيسنجر قد ادرك صدق نوايا سورية واخلاصها لقضية السلام، وقد اكد الدكتور كيسنجر قناعته هذه مرات عديدة.

ولكننا في سورية لا نستطيع ان نسلك طريقا نعتقد جازمين انه يسيء الى المصلحة العربية والى قضية السلام على حد سواء.

وختاما يبعث السيد الرئيس الى الدكتور كيسنجر بتحياته وتمنياته له بالصحة والسعادة.

—

سلمت الى القائم بالاعمال الامريكي من قبل المكتب الخاص الساعة ١٢,٤٥ الثلاثاء ٧/١٠/٧٥

EMBASSY OF THE
UNITED STATES OF AMERICA

Damascus, October 8, 1975

His Excellency
Hafez al-Asad,
President,
Syrian Arab Republic.

Dear Mr. President:

I appreciate your message further clarifying the Syrian position toward future negotiations. From our talks together and from my most recent meeting with Foreign Minister Khaddam, I believe I have understood your position and your objectives. As I have said in our conversations, we share the same objective of a just and lasting peace. Our differences of approach have resulted only from our respective analyses of what course of action is most likely to produce movement toward our common goal.

It remains our conviction that it is important for us to work together in developing a strategy for continuing the negotiations. For this reason, we continue to believe that it would be useful for you and President Ford to have an opportunity to meet and discuss these matters. There are many intangibles in the present situation which I believe you would consider important if we could describe them fully to you.

President Ford has therefore asked me to tell you that he is now planning to be in Europe in the middle of November and that he would welcome the opportunity to meet you at a mutually satisfactory place beginning in the evening of November 17 and continuing the talks on November 18, if that were convenient for you. President Ford would have to return to Washington during the afternoon of November 18.

وثيقة 12 ـ 1: برقية من هنري كيسنجر إلى الرئيس الأسد (8 تشرين الأول 1975).

President Hafez al-Asad 2

As the President and I have both stated on previous occasions, we remain committed to continued progress toward peace and we believe also that good relations between our two countries can contribute to this end. I believe a meeting between you and President Ford could be important in laying the groundwork for further steps toward that goal.

Warm regards,

Henry A. Kissinger

وثيقة 12 ـ 2:

[illegible]

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

٣٢٠٨٠٢

دمشق ٨ تشرين الاول ١٩٧٥

سيادة الرئيس حافظ الأسد
رئيس الجمهورية العربية السورية

عزيزي السيد الرئيس

اعرب عن تقديري لرسالتكم التي
اوضحت اكثر الموقف السوري ازاء
مستقبل المفاوضات. ومن خلال
محادثاتنا معاً وبعد آخر اجتماع مع
وزير الخارجية خدام، اعتقد انني قد
فهمت موقفكم واهدافكم. وكما قلت
في مباحثاتنا، فاننا نشترك في نفس
الهدف اي السلام العادل والدائم.

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

٧

ان خلافاتنا حول المنطلق ناجمة فقط
عن تحليل كل منا لنهج العمل الأكثر
احتمالا ان ينتج تحركا نحو هدفنا
المشترك .
وتبقى قناعتنا انه من المهم لنا
ان نعمل معا في تطوير استراتيجية لاستمرار
المفاوضات . ولهذا السبب ، فاننا
لا نزال نعتقد بانه من المفيد لكم
والرئيس فورد ان تتاح لكل فرصة
اللقاء معا وبحث هذه الامور . هنالك
امور عديدة غير ملموسة في الموقف الراهن
اعتقد بانكم سترون انه من المهم ان
نضعها لكم وصفا كاملا .
لقد طلب إلي الرئيس فورد ان
ابلغكم انه يعتزم الان ان يكون في

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

٢

اوروبا في منتصف تشرين الثاني فانه
سيرحب بفرصة اللقاء معكم في مكان
ملائم لكم بصورة متبادلة بدءا من
مساء ١٧ تشرين الثاني وان يواصل
المحادثات في ١٨ تشرين الثاني، اذا
كان ذلك ملائما لكم. وينبغي للرئيس
فورد ان يعود الى واشنطن اثناء بعد
ظهر ١٨ تشرين الثاني.

كما قلنا ~~الرئيس~~ الرئيس وأنا في
مناسبات سابقة، فاننا لا نزال ملتزمين
باستمرار التقدم نحو السلام ونعتقد
ايضا بان العلاقات الطيبة بين بلدينا
يمكن ان تسهم في بلوغ هذه الغاية.
اعتقد ان لقاءا بينكم وبين الرئيس
فورد يمكن ان يكون هاماً في وضع ارضية
لخطوات اخرى نحو هذا الهدف
مع التحيات الحارة
هنري كيسنجر

سلمت للملحق
الى م. الامة ...
الاربعاء ١٨/١٠/٧٥

Message: From His Excellency President Hafez Al-Assad
To Dr. Henry Kissinger

His Excellency President Hafez Al-Assad wants to thank Dr. Henry Kissinger for his message dated October 8, 1975.

1 - His Excellency the President wants to express to President Ford his esteem of the motives behind his desire to arrange a meeting between them. Indeed, ~~the~~ President Hafez Al-Assad shares with President Ford his desire in ~~arranging for this~~ having such meeting.

However, the President wants to make it clear that the date of the Sinai agreement, our attitude toward this agreement and developments that followed, all these may give way to untrue inferences or interpretations to the meeting of the two Presidents, and some of such inferences and interpretations may be manipulated in favour of the Sinai agreement - a situation which does not conform with the aim of the meeting.

2 - Therefore, the President suggests that the meeting should take place in mutually more favourable conditions, so that such conditions will be - as we hope - free of any shortcomings which may mar them and affect the positive effectiveness of the meeting in developing relations and cooperation between our two countries.

Finally, His Excellency the President sends his warm personal regards to Dr. Kissinger.

October 17, 1975

وثيقة 13 : برقية من هنري كيسنجر إلى الرئيس الأسد (17 تشرين الأول 1975).

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

سلمت إلى السفير الأمريكي
الساعة ١٥،١٥ من يوم
١٧-١٠-١٩٧٥

يشكر السيد الرئيس حافظ الأسد
الدكتور هنري كيسنجر على رسالته
المؤرخة في ٨ تشرين الأول ١٩٧٥

١- يود السيد الرئيس أن يعرب
للرئيس فورد عن تقديره لدوافع رغبته
في ترتيب لقاء بينهما . والحقيقة
أن السيد الرئيس يشارك الرئيس فورد
رغبته في هذا اللقاء .
ولكنه يود أن يوضح أن معطيات
اتفاقية سيناء وموقفنا المعروف
من هذه الاتفاقية، وما تلا ذلك،
كل ذلك يجعل أن يجعل اللقاء بينهما

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

٧

الرئيسين تفسيرات بمعنى حقيقية، ومنها ما يمكن أن يوظف لصالح اتفاقية سيناء، الأمر الذي لا يتلاءم مع هدف اللقاء.

٢ - لذلك يرى السيد الرئيس أن يتم اللقاء في ظروف أخرى أكثر ملاءمة بصورة متبادلة، بحيث تكون الظروف التي يتم فيها اللقاء - كما نأمل - خالية من أي شوائب يمكن أن تؤثر على فاعلية اللقاء الإيجابية في تطوير العلاقة والتعاون بين البلدين.

الجمهورية العربية السورية
الرئاسة

٢

في الختام يبعث السيد الرئيس
بتحياته الشخصية للدكتور كيسنجر.

EMBASSY OF THE
UNITED STATES OF AMERICA

His Excellency
Hafez al-Asad,
President of the Syrian Arab Republic,
Damascus.

Dear Mr. President:

President Ford has asked me to thank you for your message on the subject of a possible meeting in Europe in mid-November. We very much appreciate the spirit and tone of your message. While we understand the considerations which lie behind your decision, we do regret it. As you know from our past discussions we consider understanding and cooperation between Syria and the United States essential to the success of our efforts to help achieve a comprehensive settlement in the Middle East. President Ford remains dedicated to this objective and would very much have liked to have talks with you at this time on how best to proceed. As I wrote you in my last letter I am convinced that you would have found our considerations of interest and consistent with some of your views.

Because of the many frank discussions we have had, I understand your point of view. However, you also know why we are convinced that the strategy we have been pursuing offers the only realistic hope of sustained movement toward a just and durable peace, taking into account the legitimate interests of all nations and peoples in the Middle East, including the Palestinians. If misunderstandings should come between us, they could undo the progress which has been made and disrupt the future progress which I am more confident than ever before lies ahead.

وثيقة 14 ـ 1: برقية من هنري كيسنجر إلى الرئيس الأسد (19 تشرين الأول 1975).

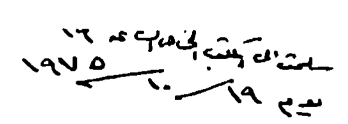
- 2 -

I am also concerned, as I told Foreign Minister Khaddam in New York, that the understandable impatience and frustration in the Arab World would undermine the growing support which has been so painstakingly built in my country for the cause of an overall settlement in the Middle East based on Security Council Resolution 242. We have no interest in dividing the Arabs. It is only with their cooperation that we can move toward peace and avoid another conflagration which could seriously damage the interests of the U.S. as well as the nations and peoples of the area.

I am glad that you agree that a meeting at some point would be useful. In the interim we very much look forward to staying in close touch with you in deciding upon the most effective means of making further progress toward peace in the Middle East, and in hopes of being able to find a mutually agreeable time for a meeting between you and President Ford. Such a meeting would be clearly in the interest of mutual understanding and the attainment of peace in the Middle East.

Warm regards,

Henry A. Kissinger



وثيقة 14 ـ 2:

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

١ - ٢٢٢٠

سيادة الرئيس حافظ الاسد
رئيس الجمهورية العربية السورية
دمشق

عزيزي السيد الرئيس

لقد طلب إليّ الرئيس فورد ان اشكركم على
رسالتكم حول موضوع امكانية لقائكما في اوروبا
في منتصف تشرين الثاني. اننا نقدر تقديراً
كبيراً جداً روح رسالتكم ولهجتها. وفي حين
اننا نفهم الاعتبارات الكامنة وراء قراركم،
فاننا نأسف لهذا القرار. وكما
تعلمون من مباحثاتنا في الماضي، فاننا نعتبر
التفاهم والتعاون بين سوريا والولايات

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

٢

المتحدة جوهرية لنجاح جهودنا في سبيل
المساعدة على تحقيق تسوية شاملة في الشرق
الاوسط. ان الرئيس فورد يظل
ناذراً نفسه لهذا الهدف، ولكم كان
يود ان يجري محادثات معكم في هذا
الوقت حول أفضل سبيل للانطلاق.
وكما كتبت لكم في رسالتي الأخيرة،
فاني مقتنع بانكم كنتم ستجدون
اعتباراتنا مثيرة للاهتمام ومتوافقة مع
بعض وجهات نظركم.
وبسبب المحادثات الصريحة العديدة
التي جرت بيننا، فاني افهم وجهة نظركم،
ولكن، انتم ايضا تعلمون لماذا نحن
مقتنعون بان الستراتيجية التي ما فتئنا
ننتهجها تشكل الامل الواقعي الوحيد
بتحرك مستمر نحو سلام عادل ودائم،

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

٢

أخذين بالحسبان المصالح المشروعة
لجميع الأمم (الدول) والشعوب في
الشرق الأوسط، ومن ضمنها الفلسطينيون
وإذا ما نشأت حالات سوء تفاهم
بيننا، فإنه يمكن أن توقف
التقدم الذي تم احرازه وتعرقل
التقدم للمستقبل، ذلك التقدم الذي
انا أكثر ثقة من أي وقت مضى بأننا
مقبلون عليه.

وإني أيضاً أشعر بقلق، لما
أخبرت وزير الخارجية خدام في نيويورك،
من أن يسبب نفاد الصبر والإحباط المفهومين
في العالم العربي، تقويض التأييد
المتنامي الذي احتفاه بالجهد المضني في بلادي،

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

٤

بالنسبة لقضية التسوية الشاملة في
الشرق الاوسط على اساس قرار
مجلس الامن رقم ٢٤٢ . ليست
لنا مصلحة في تجزئة الحرب .
فلا يمكن الا بالتعاون معهم ان نتحرك نحو السلام الآن
ونتجنب الانفجار حرباً اخرى يمكن ان
تلحق ضرراً خطيراً بمصالح الولايات
المتحدة وكذلك مصالح امم (الدول)
وشعوب المنطقة .

يسرني انكم موافقون على ان لقاءاً
في وقت ما سيكون مفيداً . في خلال
ذلك فاننا نتطلع كثيرا جدا الى البقاء
على اتصال وثيق معكم بشأن تقرير ماهي
اكثر الوسائل فعالية لتحقيق تقدم
آخر نحو السلام في الشرق الاوسط ،
وبشأن الامل في ان نتمكن من ايجاد

الجمهورية العربية السورية
الرئيس

٥

هو مد موافق بصورة متبادلة للقاء
بينكم وبين الرئيس فورد. ان
لقاءا كهذا سيكون بكل وضوح في
مصلحة التفاهم المتبادل وبلوغ السلام
في الشرق الاوسط.

تحياتي الحارة

هنري كيسنجر.

١/٤/٧٦

ر - ٢٢٤٥

١- لقد اعلمنا جلالة الملك حسين صباح اليوم انه قيل للرئيس الاسد اننا نشجع جمبلاط على مواصلة القتال في لبنان . ان الوزير يود ان يعلم الرئيس الأسد منه مباشرة ان هذه كذبة خبيثة وقحة هدفها في كل الاحتمالات ، هو بذر بذور الشقاق بين الولايات المتحدة وسوريا وبين قادة بلدينا .

٢- وكما ذكر كل من الرئيس فورد والوزير مرة اخرى وبشكل قاطع لجلالة الملك حسين صباح اليوم ، وهو الأمر الذي نحن متأكدون من ان السفير مورفي سيوضحه ، فاننا نعمل بوضوح وبتحديد لتحقيق وقف اطلاق نار وحل وفق ما عبر عنه الاقتراح السوري بتاريخ ٢٢ كانون الثاني.

وثيقة 15 ـ 1: برقية من هنري كيسنجر إلى الرئيس الأسد (1 نيسان 1976).

٢

٣ - علاوة على ذلك ، ينبغي ان يعلم الرئيس الأسد ان السفير براون لديه تعليمات دقيقة وحازمة بان يكون قاطعاً بصورة مطلقة مع جمبلاط وغيره فيما يتعلق بنية الولايات المتحدة الثابتة بان تتخذ معها كل خطوة عملية لتحقيق وقف لاطلاق النار ، وان جمبلاط ومؤيديه هم الذين سيعانون من العواقب اذا استمروا في مقاومة ذلك . ولا يمكن ايضا ان يكون هناك اي شك في جهودنا المستمرة للمساعدة على تحقيق حل سياسي سريع متلائم مع المقترحات السورية في كانون الثاني ، وفق ما سبق ان ذكرنا للرئيس الاسد

٤ - لدينا الثقة بان الرئيس الاسد لن يتقبل بمثل هذه المناورات الجمبلاطية

كيسنجر

سري

ساعة الى الحقت الخاص [illegible]
الواهدة من صحيح [illegible]
١/٤ - ١٩٧٦

وثيقة 15 ـ 2:

ر-٣٢٤٦

١٤/٤/١٩٧٦

قرأ السفير الأمريكي مورفي على السيد المستشار السياسي مقاطع من رسالة بعث بها إليه الدكتور كيسنجر جاء فيها ما ملخصه بخط السيد المستشار السياسي:

إن الحكومة الإسرائيلية أبلغت الحكومة الأمريكية أنها ستتغاضى عن دخول القوات السورية إلى لبنان، بعد التأكيدات التي تلقتها من الولايات المتحدة بشأن طبيعة المهمة التي تقوم بها.

ولكن إسرائيل تعتبر أن حجم هذه القوات وامتدادها، قد وصلا إلى حافة الخطورة، وإن أية زيادة أو أي تقدم يتخطى نقاط تمركزها في الشمال أكثر من هذا المستوى سيحمل إسرائيل على اتخاذ الإجراءات المتعلقة بسلامتها..

وفي لقاء تم بين السيد المستشار السياسي والسفير الأمريكي بعد ظهر اليوم نفسه، قال السفير ~~[illegible]~~ إنه تلقى رسالة من الدكتور كيسنجر تفيد:

إننا ضغطنا خلال الأيام الماضية بشدة

وثيقة 16 ـ 1: برقية من الرئيس الأسد إلى هنري كيسنجر (14 نيسان 1976).

على الاسرائيليين ليمتنعوا من اصدار أي ردّ فعل تجاه
ادخال قوات سورية وعتاد ثقيل إلى لبنان.

وفي الثاني عشر من هذا الشهر [نيسان ٧٦] أعلمتنا
الحكومة الاسرائيلية بأنها تعتبر الأعمال السورية في
لبنان قد وصلت إلى نقطة ستجد اسرائيل نفسها
ملزمة باتخاذ تدابير واجراءات خاصة بها إذا تمّ
تخطيها.

وهم في الولايات المتحدة قلقون من أن ينشأ انطباع
في سورية بأن انعدام وجود ردّ فعل اسرائيلي علني
يعني عدم اهتمام من اسرائيل تجاه الأعمال السورية.»

ردّ السيد الرئيس على الصفحة التالية.

وثيقة 16 ـ 2:

الرد

١- إن سورية ترى أن ما ورد في الرسالة يشكل انذاراً
وهي ترفض هذا الانذار رفضاً قاطعاً.

٢- ان سورية ليست مستعدة الآن ولن تكون مستعدة في
المستقبل لقبول أي انذار، من أية جهة في العالم.

٣- ان ما يحدث في لبنان شأن عربي داخلي، والعرب
فقط هم أصحاب الاختصاص في معالجة هذا
الشأن.

٤- ان الاعتبار الوحيد الذي حدد ويحدد الآن
وفي المستقبل أبعاد التدخل السوري في لبنان، بما
في ذلك حجم ومواقع القوات السورية، هو مصلحة
شعب لبنان، لأن تاريخنا واحد، ومستقبلنا
واحد، ومصيرنا واحد.

[كتب الرد بخط السيد الرئيس]

وثيقة 16 ـ 3:

فهرس الشخصيات

سورية

حافظ الأسد: رئيس الجمهورية العربية السورية 1971 ـ 2000.

عبد الحليم خدام: وزير الخارجية السوري 1970 ـ 1984.

مصطفى طلاس: وزير الدفاع السوري 1972 ـ 2004.

يوسف شكور: رئيس أركان الجيش العربي السوري أثناء حرب تشرين.

ناجي جميل: قائد القوى الجوية السورية أثناء حرب تشرين.

حكمت الشهابي: رئيس الاستخبارات العسكرية السورية 1971 ـ 1974، رئيس أركان الجيش العربي السوري 1974 ـ 1998.

أسعد كامل إلياس: مترجم ومستشار للرئيس حافظ الأسد.

إسكندر لوقا: مسجل محاضر ومساعد للرئيس حافظ الأسد.

الولايات المتحدة الأمريكية

هنري كيسنجر: وزير الخارجية الأمريكي 1973 ـ 1977، مستشار الأمن القومي الأمريكي 1969 ـ 1975.

ريتشارد نيكسون: رئيس الولايات المتحدة الأمريكية 1969 ـ 1974.

جيرالد فورد: رئيس الولايات المتحدة الأمريكية 1974 ـ 1977.

ريتشارد مورفي: السفير الأمريكي في الجمهورية العربية السورية 1974 ـ 1978.

جوزيف سيسكو: مساعد وزير الخارجية الأمريكي لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا 1969 ـ 1974، وكيل وزارة الخارجية الأمريكية للشؤون السياسية 1974 ـ 1976.

برنت سكوكروفت: مستشار الأمن القومي الأمريكي 1975 ـ 1977.

روي أثيرتون: نائب مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا 1970 ـ 1974، مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا 1974 ـ 1978.

عيسى صباغ: مترجم لهنري كيسنجر.

إسـرائـيل

غولدا مائير: رئيسة وزراء إسرائيل 1969 ـ 1974.

إسحق رابين: رئيس وزراء إسرائيل 1974 ـ 1977.

موشيه دايان: وزير دفاع إسرائيل 1967 ـ 1974.

شمعون بيريز: وزير دفاع إسرائيل 1974 ـ 1977.

يغال آلون: وزير خارجية إسرائيل 1974 ـ 1977.

سيمحا دينيتز: سفير إسرائيل في الولايات المتحدة الأمريكية 1973 ـ 1979.

الاتحاد السوفييتي

ليونيد بريجنيف: رئيس الاتحاد السوفييتي 1964 ـ 1982.

أندريه غروميكو: وزير خارجية الاتحاد السوفييتي 1957 ـ 1985.

مصـر

أنور السادات: رئيس مصر 1970 ـ 1981.

إسماعيل فهمي: وزير خارجية مصر 1973 ـ 1977.

أحمد إسماعيل: وزير دفاع مصر أثناء حرب تشرين.

سعد الدين الشاذلي: رئيس أركان الجيش المصري أثناء حرب تشرين.

محمد الجمسي: رئيس هيئة عمليات الجيش المصري أثناء حرب تشرين.

الأردن

الملك حسين بن طلال: ملك الأردن 1952 ـ 1999 .

فلسطين

ياسر عرفات: رئيس منظمة التحرير الفلسطينية 1969 ـ 2004 .

لبـــنان

كميل شمعون: رئيس لبنان 1952 ـ 1958 .

فؤاد شهاب: رئيس لبنان 1958 ـ 1964 .

شارل حلو: رئيس لبنان 1964 ـ 1970 .

سليمان فرنجية: رئيس لبنان 1970 ـ 1976 .

إلياس سركيس: رئيس لبنان 1976 ـ 1982 .

صائب سلام: رئيس وزراء لبنان 1970 ـ 1973 .

رشيد كرامي: رئيس وزراء لبنان 1975 ـ 1976 .

بيير الجميّل: رئيس حزب الكتائب اللبنانية 1936 ـ 1984 .

كمال جنبلاط: قائد الحركة الوطنية اللبنانية 1969 ـ 1977 .

المملكة العربية السعودية

الملك فيصل: ملك السعودية 1964 ـ 1975 .

الملك خالد: ملك السعودية 1975 ـ 1982 .

التسلسل الزمني للأحداث

6 تشرين الأول 1973 : سورية ومصر تشنّان هجوماً مفاجئاً في مرتفعات الجولان وشبه جزيرة سيناء. كانت إسرائيل قد احتلت المنطقتين خلال حرب الأيام الستة عام 1967.

14 تشرين الأول 1973: بدء عملية «نيكل غراس»، حيث قامت قوات النقل الجوي العسكري الأمريكي بنقل آلاف الأطنان من الأسلحة والذخائر إلى إسرائيل بغية التعويض عن خسائر المعركة.

20 تشرين الأول 1973 : وصول هنري كيسنجر إلى موسكو لمناقشة وقف إطلاق النار في الشرق الأوسط مع القادة السوفييت.

22 تشرين الأول 1973 : مجلس الأمن الدولي يتبنى القرار 338، داعياً إلى وقف إطلاق النار في الشرق الأوسط فورياً، وإلى عقد مؤتمر دولي للسلام تحت رعاية الدولتين العظمَيين.

25 تشرين الأول 1973 : مجلس الأمن الدولي يمرّر القرار 340، الذي يدعو إلى وقف إطلاق النار في الشرق الأوسط بعدما قامت إسرائيل بخرق وقف إطلاق النار في مناسبات عديدة. توقف القتال على كلتا الجبهتين السورية والمصرية.

28 تشرين الأول 1973 : البدء بمحادثات بين ضباط مصريين وإسرائيليين عند الكيلومتر 101 على طريق القاهرة ـ السويس.

2 تشرين الثاني 1973: هنري كيسنجر يلتقي نائب وزير الخارجية السوري محمد زكريا إسماعيل.

5 تشرين الثاني 1973: هنري كيسنجر يصل إلى القاهرة لاستكمال اتفاق النقاط الست مع السادات، والذي يضمن إطلاق سراح الأسرى الإسرائيليين في مصر، مقابل إيصال شحنات المساعدات للجيش الثالث المصري المحاصر.

28 تشرين الثاني 1973: انعقاد أول قمة عربية بعد الحرب في الجزائر، حضرها كل من حافظ الأسد وأنور السادات.

15 كانون الأول 1973: وصول هنري كيسنجر إلى دمشق، وعقد أول لقاء له مع الرئيس حافظ الأسد لمناقشة مؤتمر السلام المقبل في جنيف.

21 كانون الأول 1973: افتتاح مؤتمر جنيف للسلام؛ قاطعت سورية إجراءات المؤتمر، وفشل المؤتمر في تحقيق أي نتائج ملموسة.

18 كانون الثاني 1974: مصر وإسرائيل توافقان على فصل القوات في سيناء بعد أسبوع من الدبلوماسية المكوكية التي أجراها كيسنجر.

20 كانون الثاني 1974: وصول هنري كيسنجر إلى دمشق للقاء الرئيس الأسد بغية مناقشة فصل القوات على الجبهة السورية.

12 شباط 1974: حافظ الأسد، وأنور السادات، والرئيس الجزائري هواري بومدين، والملك فيصل ملك السعودية يجتمعون في الجزائر ويقرّرون إبقاء حظر النفط العربي حتى يتم فصل القوات على الجبهة السورية.

26 شباط 1974: وصول هنري كيسنجر إلى دمشق، وعقده اجتماعين مع الرئيس حافظ الأسد.

1 آذار 1974: عودة هنري كيسنجر إلى دمشق بعد سلسلة اجتماعات عقدها في القاهرة وتل أبيب، وقد فشل في وضع محادثات فك الاشتباك السورية الإسرائيلية على المسار الصحيح.

18 آذار 1974 : انتهاء الحظر النفطي العربي.

29 آذار 1974 : وصول وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه دايان إلى العاصمة الأمريكية لمناقشة خطط فك الاشتباك على الجبهة السورية مع هنري كسنجر.

10 نيسان 1974 : استقالة غولدا مائير من منصب رئيس وزراء إسرائيل.

13 نيسان 1974 : وصول الجنرال حكمت الشهابي رئيس الاستخبارات العسكرية السورية إلى العاصمة الأمريكية لإجراء مباحثات مع هنري كيسنجر.

3 أيار 1974 : وصول هنري كيسنجر إلى دمشق لإجراء أول لقاء له بالرئيس حافظ الأسد ضمن سلسلة مفاوضات فصل القوات.

29 أيار 1974 : سورية وإسرائيل توافقان على فك اشتباك قواتهما في مرتفعات الجولان بعد شهر من المفاوضات.

31 أيار 1974 : ضباط سوريون وإسرائيليون يوقعون على اتفاق فك الاشتباك في جنيف.

15 حزيران 1974 : الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون يصبح أول رئيس أمريكي يزور العاصمة السورية.

24 حزيران 1974 : الرئيس حافظ الأسد يرفع العلم السوري فوق مدينة القنيطرة المحررة.

9 آب 1974 : استقالة ريتشارد نيكسون من رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية، ونائب الرئيس جيرالد فورد يؤدي اليمين الدستورية رئيساً جديداً للبلاد.

11 تشرين الأول 1974 : وصول هنري كيسنجر إلى دمشق للقاء الرئيس الأسد.

14 تشرين الأول 1974 : وصول هنري كيسنجر إلى دمشق للقاء الرئيس الأسد ومناقشة قمة الرباط المقبلة.

24 تشرين الأول 1974 : القادة العرب يعترفون في قمة الرباط بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطيني.

8 تشرين الثاني 1974: وصول هنري كيسنجر إلى دمشق للقاء الرئيس حافظ الأسد ومناقشة تبعات قمة الرباط.

11 تشرين الثاني 1974: وصول هنري كيسنجر إلى دمشق للقاء الرئيس الأسد.

9 آذار 1975: وصول هنري كيسنجر إلى دمشق للقاء الرئيس حافظ الأسد ومناقشة المفاوضات المصرية الإسرائيلية الجارية.

15 آذار 1975: وصول هنري كيسنجر إلى دمشق للقاء الرئيس حافظ الأسد ومناقشة المفاوضات المصرية الإسرائيلية الجارية.

22 آذار 1975: هنري كيسنجر يقوم بتعليق تحركاته الدبلوماسية في الشرق الأوسط بعد أن أخفق في التوصل إلى اتفاق فك الاشتباك الثاني بين مصر وإسرائيل.

25 آذار 1975: مختل من الأسرة الحاكمة السعودية يقوم باغتيال ملك المملكة العربية السعودية فيصل بن عبد العزيز.

13 نيسان 1975: بدء الحرب الأهلية في لبنان.

30 حزيران 1975: رشيد كرامي يرأس حكومة وحدة وطنية في لبنان بعد وساطة سوريّة.

21 آب 1975: وصول هنري كيسنجر إلى دمشق للقاء الرئيس الأسد ومناقشة المفاوضات المصرية الإسرائيلية الجارية.

1 أيلول 1975: مصر وإسرائيل توقعان اتفاقية سيناء الانتقالية (سيناء 2).

3 أيلول 1975: وصول هنري كيسنجر إلى دمشق في آخر زيارة له إلى العاصمة السورية.

6 كانون الأول 1975: الرئيس حافظ الأسد يلتقي بيير الجميّل رئيس حزب الكتائب اللبنانية في دمشق.

20 كانون الثاني 1976: دخول وحدات من جيش التحرير الفلسطيني إلى لبنان بغية تحقيق استقرار في أوضاع البلاد بعد مضي شهر على القتال وإراقة الدماء.

22 كانون الثاني 1976: اتفاق القادة السياسيين في لبنان على مجموعة من الإصلاحات واسعة النطاق، فيما عُرف بـ «الوثيقة الدستورية» بعد وساطة سوريّة.

7 شباط 1976: الرئيس اللبناني سليمان فرنجية يقوم بالتوقيع على الوثيقة الدستورية.

17 آذار 1976: الجنرال اللبناني عزيز الأحدب يطلق محاولة انقلاب عسكري فاشلة ضد الرئيس سليمان فرنجية.

27 آذار 1976: الرئيس حافظ الأسد يعقد اجتماعاً عاصفاً استمر مدة 8 ساعات مع كمال جنبلاط، ولكنه يخفق في ثنيه عن التصعيد العسكري.

5 نيسان 1976: وحدات من جيش التحرير الفلسطيني وقوات الصاعقة، المدعومة والموجهة سورياً، تنتقل إلى لبنان لإيقاف هجوم منظمة التحرير الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ضد جبل لبنان.

14 نيسان 1976: هنري كيسنجر يرسل برقيتين إلى الرئيس حافظ الأسد تفصّلان «الخطوط الحمر» الإسرائيلية جراء التدخل السوري في لبنان. والرئيس الأسد يرفض البرقيتين معتبراً أنهما برقيتا إنذار، ويرفض الالتزام بـ «الخطوط الحمر».

8 أيار 1976: انتخاب إلياس سركيس رئيساً للبنان.

1 حزيران 1976: وحدات نظامية من الجيش السوري تدخل إلى لبنان بهدف منع مزيد من التصعيد العسكري الذي يقوم به تحالف منظمة التحرير الفلسطينية مع الحركة الوطنية اللبنانية.

22 حزيران 1976: هنري كيسنجر يقول لسفراء الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط إن سورية قد حطّمت كلّ «الخطوط الحمر» الإسرائيلية.

23 أيلول 1976: إلياس سركيس يؤدي اليمين الدستورية رئيساً للبنان.

26 أيلول 1976: مجموعة من الفلسطينيين تهاجم فندقاً في وسط العاصمة السورية دمشق.

18 تشرين الأول 1976: قمة في الرياض تجمع بين الرئيس حافظ الأسد، والرئيس

المصري أنور السادات، والرئيس اللبناني إلياس سركيس، والملك السعودي خالد بن عبد العزيز.

26 تشرين الأول 1976: انعقاد قمة عربية في القاهرة تمنح شرعية لوجود الجيش السوري في لبنان تحت مظلة «قوة الردع العربية». قوة حفظ السلام الجديدة تدخل إلى وسط بيروت، ويتوقف القتال على جميع الجبهات. الحرب الأهلية اللبنانية أوشكت على الانتهاء.

4 تشرين الثاني 1976: انتخاب جيمي كارتر رئيساً جديداً للولايات المتحدة الأمريكية.

الدكتورة بثينة شعبان

كاتبة وأستاذة في جامعة دمشق منذ عام 1985. عملت في القطاع الحكومي بين وزيرة ومستشارة لمدة تزيد عن عشرين عاماً، وقبل توليها المنصب الوزاري عام 2003، كانت الدكتورة شعبان مديرة الإعلام الخارجي في وزارة الخارجية والناطق الرسمي باسم الجمهورية العربية السورية. ثم في عام 2003 أصبحت وزيرة للمغتربين وعضو مجلس الوزراء.

في عام 2008 تمّ اختيارها مستشارة سياسية وإعلامية للرئيس بشار الأسد وعضو اللجنة السياسية العليا.

طوال السنوات الثلاثين الماضية كانت الدكتورة شعبان مثالاً للمرأة الخبيرة العاملة في مستويات صنع القرار في بلدها كمحاولة لتغيير ليس فقط مصير النساء وإنما تغيير مستقبل الرجال والنساء على حدٍ سواء. درست الدكتورة شعبان في المملكة المتحدة ونالت شهادة الدكتوراه في الأدب الإنكليزي من جامعة وورويك، وفي العام 1990 ـ 1991 نالت منحة فلبرايت للأبحاث من جامعة ديوك في الولايات المتحدة، وفي عام 1993 قُدِمَت لها منحة (روكفيلر) من جامعة رايس في هيوستن، تكساس، ثم في العام 2000 احتلت كرسي (ثيلما ماكاندليس) للأستاذ المتميز من جامعة ميتشيغان الشرقية. نالت الدكتورة شعبان

جائزة (المرأة العربية المتميزة في حقل العمل الحكومي) من قبل جامعة الدول العربية العام 2005. كما أنها رشّحت لنيل جائزة نوبل للسلام لعام 2005 تقديرًا للجهود التي بذلتها من أجل خدمة قضية السلام في العالم.

في العام 2016 قامت الدكتورة شعبان بتأسيس مؤسسة وثيقة وطن التي تعنى بحفظ التاريخ الشفوي السوري عبر تسجيل الروايات المحكية لشخصيات سورية ساهمت في إغناء كافة مجالات الحياة في سورية من خلال أعمالها في السياسة والثقافة والعلوم والمجتمع.

لها مؤلفات عديدة باللغتين العربية والإنكليزية منها:

- عشرة أعوام مع حافظ الأسد 1990 ـ 2000، (بالعربية) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2015.
- (مذكرات دمشق (Damascus Diary): القصة الحقيقية لدبلوماسية حافظ الأسد من أجل السلام 1990 ـ 2000)، (بالإنكليزية)، دار لين راينر للنشر، نيويورك 2012.
- بنت الأرض، (بالعربية)، دار الفكر (أربع أجزاء)، دمشق 2012.
- أصوات مكتشفة: روائيات عربيات بين 1898 و2000 (Voices Revealed: Arab Women Novelists)، (بالإنكليزية)، دار لين راينر للنشر، نيويورك 2009.
- المرأة في السياسة والمجتمع، (بالعربية)، دار الفكر، دمشق 2008.
- ديمقراطية الأجساد المتطايرة (بالعربية)، دمشق 2007.
- مأزق التدخل الأمريكي وإمكانات الفعل العربي: نبضات ورؤى، (بالعربية)، دار الفكر، دمشق 2006.
- المرأة العربية في القرن العشرين (بالعربية)، دار المدى، دمشق، 2000.
- مئة عام من الرواية النسائية العربية (بالعربية)، دار الأدب، بيروت، 1999.

- شعر وسياسة: شيلي والشعراء الصعاليك (بالعربية)، دار طلاس، دمشق 1993.
- باليمين والشمال (Both Right and Left-Handed)، نساءٌ عربيات يتحدثن عن أنفسهن (بالإنكليزية)، دار وميمنز بريس، لندن ـ 1988، ومطبعة جامعة إنديانا، 1991.

مؤلفة مشاركة:

- (النساء في المجتمعات الإسلامية)، تنوع ضمن الوحدة (بالإنكليزية)، تحرير هيربرت بودمان ونيرب توحيدي، لين راينر للنشر، الولايات المتحدة، 1998.
- (النساء العربيات بين التحدي والإحجام)، تحرير سها صباغ، دار نشر انتيرلينك، نيويورك، 1996.
- (شيلي، شاعر محكّم للعالم) (بالإنكليزية)، تحرير بيتي بينيت وستورات كوران، منشورات جامعة جون هوبكينز، 1996.
- (الإيمان والحرية)، حقوق الإنسان للنساء في العالم الإسلامي (بالإنكليزية)، تحرير مهناز أفخمي، أي بي توريس للنشر، نيويورك، 1995.

محرّرة:

- (السفور والحجاب)، نظيرة زين الدين، 1928، أعيد إصداره عن دار المدى، دمشق 1998.
- (الفتاة والشيوخ)، نظيرة زين الدين 1929، أعيد إصداره عن دار المدى، دمشق، 1998.

حافة الهاوية
وثيقة وطن

الرواية التاريخية
لمباحثات حافظ الأسد وهنري كيسنجر

كتب الرئيس الأمريكي ريتشادر نيكسون في مفكرته هذه الكلمات لوصف مجابهته مع الأسد:

«لقد تجاوز الأسد ما توقعته منه بناء على محادثاتي مع هنري. لقد كان، كما قال هنري، مفاوضاً صعباً، لكن لديه الكثير من السحر والغموض وقدرة التحمّل الهائلة، يضحك بسهولة، ويمكنني أن أرى أنه سيكون قائداً ديناميكياً لو أبقى على قدرته هذه في الحكم على الأمور. في محادثتنا الأخيرة، اعترض بشدّة على فصل مسارات السلام. لكنه، من جهة ثانية، كان منطقياً تجاه مقارباتنا الإقليمية الأخرى. خلاصة القول، هو رجل ذو معدن أصيل، وفي عمره هذا ـ 44 عاماً ـ إن استطاع تفادي إطلاق أحدهم النار عليه أو التعرّض لانقلاب، فسيكون قائداً ذا شأن في هذا الجزء من العالم».

16 حزيران 1974

